حالـــة ســكان العـــالم ٢٠١١

البشـر والإمكـانات
فـي عـالم تعداده
٧ بلايين نسـمة

حالـة سكان العـالم ٢٠١١

أعدت هذا التقرير شعبة الإعلام والعلاقات الخارجية في صندوق الأمم المتحدة للسكان .

فريق التحرير

كبيرة المعدِّين: باربارا كروسيت
شارك في الإعداد والتأليف: ريتشارد كولودج
المجلس الاستشاري لصندوق الأمم المتحدة للسكان: رون فروسيت ، فيرنر هواغ ، أميناتا توريه ، سيلفيا وونغ
المحرر: ريتشارد كولودج
معاون التحرير: روبرت بوشاليك
معاونة التحرير والإدارة: ميريه شلهوب
مدير التوزيع: جايش غولراجاني

الإعراب عن الشكر

يعرب فريق التحرير عن امتنانه للمجلس الاستشاري للتقرير لما قدمه من توجيهات حول فكرة التقرير وإعداده ، ولما أبداه من تعليقات قيمة على مسودات التقرير .

وقام رؤساء أو نواب رؤساء سبعة مكاتب ميدانية لصندوق الأمم المتحدة للسكان (والموظفون التابعون لهذه المكاتب) بإعداد المقابلات وتوفير الترتيبات اللازمة لها ، وساعدوا في تحديد أفكار الموضوعات المطروحة ، وتوجيه عملية تقديم الإفادات في كل موقع: برنارد كوكلين (الصين) ، زياد رفاعي (مصر) ، بنويت كالاسا (إثيوبيا) ، مارك ديرفيو (الهند) ، دييغو بالاثيوس (المكسيك) ، باتريشيا غوزمان (موزامبيق) ، أغاثي لوسون (نيجيريا) ، فرانسوا فرح وتاتيانا سيكوسكا (جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة) . وقدم مديرو المكاتب الإقليمية لصندوق الأمم المتحدة للسكان دعماً قيماً من أجل إعداد التقرير: حافظ شقير (الدول العربية) ، ثيا فييرنس (شرق أوروبا وآسيا الوسطى) ، نوبوكو هوريبي (آسيا والمحيط الهادئ) ، بونمي ماكينوا (أفريقيا) ، مارسيلا سوازو (أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي) . وأعدت هيكا فورينما ، كبيرة مسؤولي الدعوة في اتحاد الأسرة في فنلندا (فايشتوليتو) ، الأساس الذي ارتكزت عليه الإفادات التي تضمنها التقرير من فنلندا .

وأسهم بآراء ثاقبة في التقرير كل من صفية تشار ، مديرة شعبة الإعلام والعلاقات الخارجية ؛ ونيل فورد ، رئيس فرع وسائط الإعلام والاتصالات ؛ ودليا بارسلونا ، وساتورنين إيبي ، وآن إرب – ليونكافاللو ، وأنتي كارتينن ، وبتينا ماس ، وبورنيما مين ، ونيي أوجولاب ، وإيلينا بيروندييني ، وشيرين سعد الله ، وماري سيمونن من مكتب المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان .

كما قدم زملاء آخرون من الشعبة التقنية وشعبة البرنامج في الصندوق – وهم أكثر من أن يتسنى إدراجهم جميعاً في هذا المقام – تعليقات وآراء ثاقبة حول مسودات التقرير ، كفلت دقة البيانات ، وساعدوا في زيادة تركيز وتوجيه القضايا التي شملها القرير .

وشعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة هي مصدر معظم البيانات الواردة في التقرير ، وقد استرشد بها التقرير في تحليله وعرضه للتوقعات السكانية ، وكان لدعمها كل الفضل في صدور هذا التقرير . كما ساهم ببيانات مهمة كل من معهد إحصاءات اليونسكو ، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) ، ومنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة ، والبنك الدولي ، ومشروع تدفقات الموارد المشترك بين صندوق الأمم المتحدة للسكان والمعهد الديمغرافي الهولندي المتعدد التخصصات . وتولت إديلبرتو لويازا من فرع السكان والتنمية في صندوق الأمم المتحدة للسكان اختيار وعرض المؤشرات التي تضمنها التقرير .

ويتوجه فريق التحرير بالشكر إلى الشعبة التقنية في صندوق الأمم المتحدة للسكان على دعمها المالي السخي . ويتضمن هذا التقرير جميع الصور الأصلية للأشخاص والأماكن الذين ورد ذكرهم في متن التقرير .

الصور الأصلية حسب كل موقع: غيو تيليو (الصين) ؛ ماثيو كاسل (مصر) ؛ أنطونيو فيورنته (إثيوبيا) ؛ سامي ساليين (فنلندا) ؛ سانجيت داس وأتول لوكي (الهند) ؛ ريكاردو راميريز آريولا (المكسيك) ؛ بيدرو سا دا باندييرا (موزامبيق) ؛ أكينتوندي أكينلييه (نيجيريا) ؛ أنتونين كراتوشفيل (جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة) .

كما يود فريق التحرير أن يتوجه بالشكر إلى جميع الأشخاص الذين ساهموا في التقرير بالحديث عن تجاربهم الذاتية .

صورة الغلاف
حصة جغرافيا ،
جامعة إدواردو موندلين ، مابوتو ،
موزامبيق.

© صندوق الأمم المتحدة للسكان / بيدرو سا دا باندييرا

حالة سكان العالم ٢٠١١

البشر والإمكانات
في عالم تعداده ٧ بلايين نسمة

تصدير — صفحة ب

١ نظرة من قريب إلى عالمنا البالغ تعداده ٧ بلايين نسمة — صفحة ١

٢ الشباب: قوة عالمية جديدة تعيد تشكيل العالم — صفحة ٩

٣ الأمن والقوة الاقتصادية والاستقلال في مرحلة الشيخوخة — صفحة ٢٩

٤ ما هي العوامل التي تؤثر في معدل الخصوبة ؟ — صفحة ٤٣

٥ قرار الرحيل: قوة الهجرة وأثرها — صفحة ٦٥

٦ التخطيط مسبقاً لنمو المدن — صفحة ٧٧

٧ تقاسم موارد الأرض والعمل على استدامتها — صفحة ٩٣

٨ آفاق المستقبل: إنجاز مهام جدول أعمال القاهرة — صفحة ١٠١

المؤشرات — صفحة ١١٠

مراجع مختارة — صفحة ١٢٤

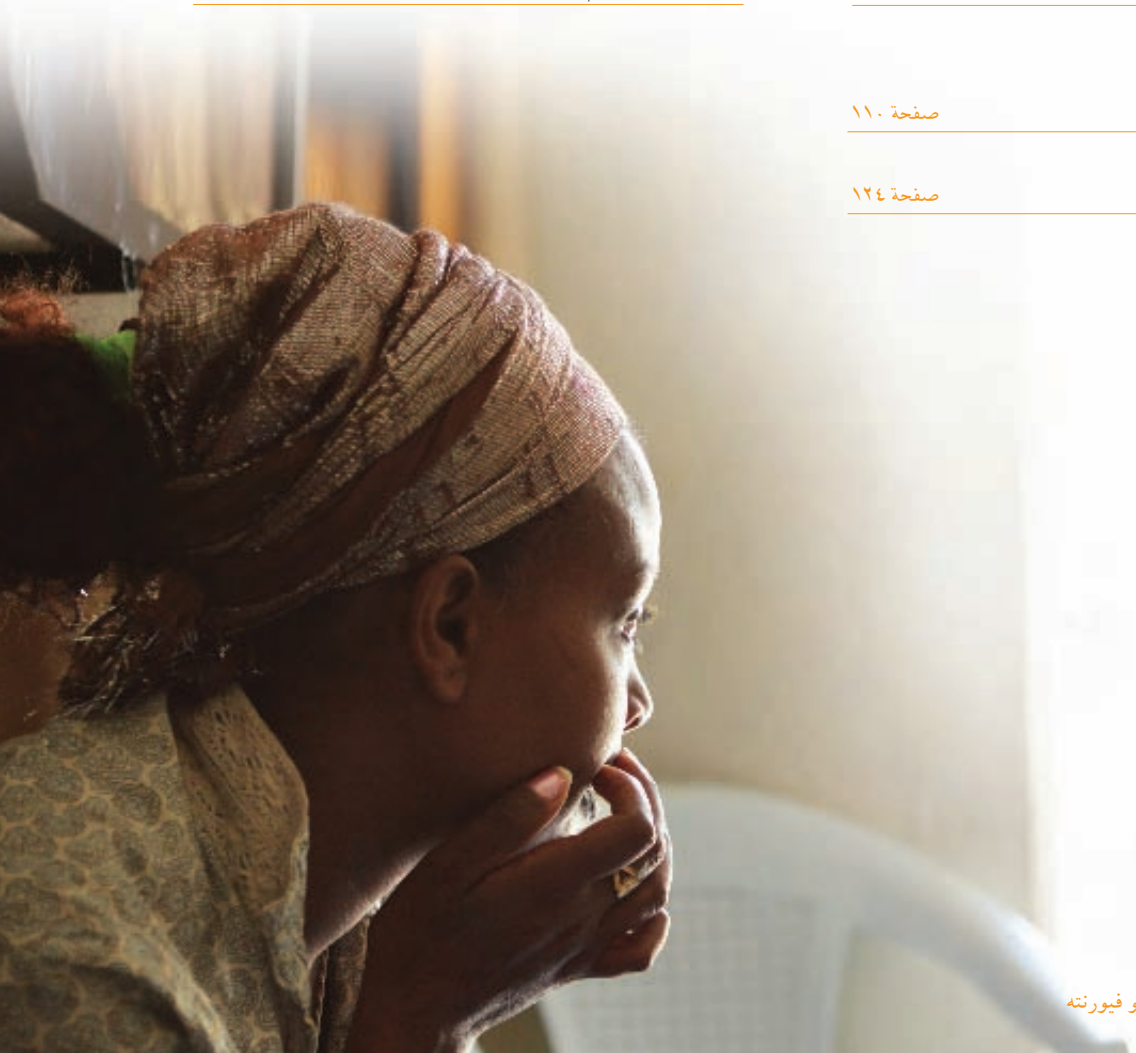

© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ أنطونيو فيورنته

تصديـــر

في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ، سيبلغ عدد سكان العالم ٧ بلايين نسمة . لقد كُتب لي خلال سنوات عمري أن أرى عدد سكان العالم وقد تضاعف إلى ثلاث مرات تقريباً . وبعد ثلاثة عشر عاماً أخرى من الآن ، سيزداد عددنا بليوناً آخر . ولعل أحفادي خلال عمرهم سيشهدون العالم وقد أصبح عدد سكانه عشرة بلايين نسمة .

فكيف أصبحنا بهذه الكثرة ؟ وكم عدد الناس الذين يمكن أن تتحملهم أرضنا ؟

ولعل تلك أسئلة هامة ، لكنها ليست الأسئلة المناسبة لعصرنا . فنحن حينما ننظر إلى هذه الأرقام الهائلة قد نندهش لضخامتها التي تحجب عنا فرصاً جديدة من أجل بناء حياة أفضل للجميع في المستقبل .

ولذلك ، فبدلاً من أن نطرح على أنفسنا أسئلة من قبيل "هل نحن أكثر مما ينبغي ؟" ، علينا أن نسأل أنفسنا "ماذا يمكننا القيام به لجعل حياتنا أفضل ؟" أو "ماذا يمكننا أن نفعل لكي نحول مدننا الدائبة النمو إلى قوى قادرة على تحقيق الاستدامة ؟" وعلينا أيضاً أن نسأل أنفسنا ما الذي يمكن أن يفعله كل منا من أجل تمكين كبار السن من القيام بدور أكثر نشاطاً في مجتمعاتهم المحلية . وماذا يمكننا أن نفعل لكي نطلق الطاقات والإمكانات الإبداعية لأكبر فئة عمرية من الشباب شهدتها الإنسانية على مر تاريخها ؟ وماذا يمكننا أن نفعل لكي نزيل الحواجز أمام تحقيق المساواة بين النساء والرجال كي يتمتع الجميع بسلطتهم الكاملة في اتخاذ القرارات التي تخصهم ، ولكي يحققوا كامل إمكاناتهم ؟

إن تقرير حالة سكان العالم ٢٠١١ يلقي نظرة فاحصة على الاتجاهات ــ أو الديناميات ــ التي تشكل عالمنا ذا السبعة بلايين نسمة ، ويبين ماذا يقوم به الناس في بلدان وظروف جدّ مختلفة داخل مجتمعاتهم المحلية لكي يحققوا جلّ المراد من عالمنا هذا .

إن بعض هذه الاتجاهات جليٌّ جداً: فالعالم يحتوي اليوم على ٨٩٣ مليون نسمة ممن تزيد أعمارهم على ٦٠ سنة . وبحلول منتصف هذا القرن سيزداد هذا الرقم إلى ٢,٤ بليون نسمة . كما يعيش في المدينة فرد واحد من بين كل اثنين ، وفي غضون نحو ٣٥ عاماً سيرتفع هذا الرقم إلى اثنين من بين كل ثلاثة . أما السكان دون سن الخامسة والعشرين من العمر فهم يشكلون الآن بالفعل ٤٣ في المائة من سكان العالم ، وتصل نسبتهم إلى نحو ٦٠ في المائة في بعض البلدان .

ويقدم هذا التقرير لقطات سريعة عن الكيفية التي تواجه بها بلدان مثل الصين ، ومصر ، وإثيوبيا ، وفنلندا ، والهند ، والمكسيك ، وموزامبيق ، ونيجيريا ، وجمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة تحديات ديمغرافية متنوعة تتراوح بين شيوخة السكان وارتفاع معدلات الخصوبة ، وبين التوسع الحضري وظهور أجيال جديدة من الشباب . وتواجه بعض هذه البلدان معدلات خصوبة عالية في حين يواجه بعضها معدلات خصوبة متدنية حدت بالحكومات إلى السعي بالفعل وراء سبل لزيادة حجم سكانها . وهناك بعض البلدان التي تعاني من نقص في اليد العاملة مما يجعلها تتجه إلى المهاجرين لشغل الوظائف ، في حين تعتمد بلدان أخرى على التحويلات المالية التي يرسلها مواطنوها بالخارج لدعم اقتصاداتها . وفي حين تجتذب بعض البلدان مزيداً من الناس إلى المدن الضخمة الناشئة حيث يتزايد حجم الوظائف وترتفع تكلفة المعيشة ، تشهد

المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان باباتوندي أوشوتيمن
© براد هاميلتون

بلدان أخرى موجات هجرة من مراكز المدن إلى المناطق الحضرية المجاورة حيث تكاليف المعيشة ربما أكثر انخفاضاً ولكن قد يكون هناك نقص في الخدمات الأساسية وفي الوظائف .

كما يطرح هذا التقرير حجة مفادها أن التخطيط والاستثمار الاستباقي الصحيح في البشر ــ وتمكينهم من الخيارات التي لا يقتصر نفعها عليهم فقط لكنه يشمل أيضاً قضايانا العالمية المشتركة ــ فإن عالمنا ذا البلايين السبعة يمكن أن يضم مدناً مزدهرة ومستدامة ، وقوى عاملة منتجة وقادرة على تحريك النمو الاقتصادي ، وتجمعات من الشباب القادر على الإسهام في تعافي الاقتصادات والمجتمعات ، وجيلاً من كبار السن يتمتعون بصحة جيدة ويشاركون بنشاط في الأمور الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعاتهم .

وفي أنحاء كثيرة من العالم النامي ، حيث تتجاوز معدلات النمو السكاني معدلات النمو الاقتصادي ، لا تزال هناك حاجة كبيرة إلى خدمات الصحة الإنجابية ، وخاصة تنظيم الأسرة . ويعد الاستقرار السكاني شرطاً لابد منه من أجل تحقيق النمو والتنمية الاقتصاديين بصورة معجلة وقائمة على التخطيط . وللحكومات التي تبذل جهوداً جادة في سبيل القضاء على الفقر أن تكون على نفس القدر من الجدية في سعيها إلى توفير الخدمات والإمدادات والمعلومات التي تحتاج إليها المرأة في ممارستها لحقوقها الإنجابية .

إن ما بلغناه من حجم قياسي في عدد السكان يمكن النظر إليه من أوجه عديدة باعتباره نجاحاً للبشرية : فذلك يعني أن البشر يعيشون عمراً أطول وينعمون بصحة أفضل . لكن هذا الإنجاز أو ما ينطوي عليه من نوعية حياة عالية المستوى لم يكونا شاملين للجميع . فهناك تفاوتات كبيرة قائمة داخل البلدان وفيما بينها . كما أن هناك تفاوتات في الحقوق والفرص بين النساء والرجال والفتيات والفتيان . وأصبحت الآن مسألة رسم طريق إلى التنمية التي تعزز المساواة ، لا أن تفاقم الفوارق أو تعززها ، أكثر أهمية من أي وقت مضى .

إننا جميعاً لنا مصلحة في مستقبل البشرية . ولقد أصبح كل فرد ، وكل حكومة ، وكل عمل تجاري أكثر ترابطاً وأكثر اعتماداً على الآخرين من أي وقت مضى ، مما يجعل لأي عمل يقوم به أيٌ منا الآن تأثيره علينا جميعاً في المستقبل . وسيكون بوسعنا ، معاً ، أن نغير العالم ونجعله أفضل .

وإننا بتعدادنا البالغ ٧ بلايين من البشر ، إنما نمثل أيضاً ٧ بلايين من الفرص والإمكانات .

باباتوندي أوشوتيمن
المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان

الفصل الأول

نظرة من قريب إلى عالمنا البالغ تعداده ٧ بلايين نسمة

شكل بلوغ تعداد سكان العالم سبعة بلايين نسمة علامة فارقة تميزت بالإنجازات والنكسات والمتناقضات. ففي حين أصبح النساء في المتوسط ينجبن عدداً أقل من الأطفال مما كن عليه في الستينات من القرن الماضي، لا تزال أعدادنا في تزايد مستمر. وعلى الصعيد العالمي، زادت معدلات الشباب والشيخوخة، على السواء، بين السكان عما كانت عليه في أي وقت مضى. وفي بعض أفقر البلدان، تؤدي معدلات الخصوبة العالية إلى عرقلة التنمية وإدامة الفقر، في حين أنه في بعض البلدان الأغنى، يؤدي انخفاض معدلات الخصوبة والتقلص الشديد في عدد الملتحقين الجدد بسوق العمل إلى إثارة مشاعر القلق إزاء احتمالات النمو الاقتصادي المستدام وإزاء توفير مقومات البقاء لنظم الضمان الاجتماعي. وفي حين تهدد حالات النقص في اليد العاملة بعرقلة اقتصادات بعض الدول الصناعية، فإن المهاجرين المحتملين من البلدان النامية الذين يواجهون شبح البطالة سوف يعانون من إغلاق الحدود الوطنية أمامهم وأمام الخبرات التي يمكنهم تقديمها في مزيد من البلدان. ورغم إحراز تقدم في مجال التخفيف من حدة الفقر، فإن الفجوات آخذة في الاتساع بين الأغنياء والفقراء في كل مكان تقريباً.

وتقرير حالة سكان العالم ٢٠١١ يستكشف بعض هذه التناقضات من منظور الأفراد ويبين العقبات التي يواجهونها ــ والتي يتغلبون عليها ــ في سعيهم إلى بناء حياة أفضل لأنفسهم ولأسرهم ومجتمعاتهم المحلية وأوطانهم.

وعبر روايات شخصية، يلقي التقرير الضوء على تحديات من واقع الحياة نواجهها جميعاً في عالم السبعة بلايين نسمة. وهو في الأساس تقرير ميداني من تسعة بلدان قام فيها أناس عاديون يعيشون هناك، وخبراء وطنيون يعكفون على دراسة الاتجاهات الديمغرافية، ومقررون للسياسات يتعين عليهم اتخاذ قرارات بناء على الأوضاع المحلية في مجتمعاتهم، قاموا جميعاً بالتحدث مباشرة عن حياتهم وأعمالهم: وهم من الصين، ومصر، وإثيوبيا، وفنلندا، والهند، والمكسيك، وموزامبيق، ونيجيريا، وجمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة.

وهؤلاء السكان الذين قدمت نبذات عنهم انطلاقاً من الأحوال في تلك البلدان يمثلون تشكيلة متنوعة من الخبرات الإنسانية والأماني التي تراود بني البشر والأولويات التي يضعونها نصب أعينهم، على نحو يصور طابع التنوع الذي يتسم به سكان العالم اليوم والاتجاهات التي تكمن خلف هذا الطابع.

ومن خلال المحادثات مع الناس الذين يعيشون ويعملون في تلك البلدان، سرعان ما يكتشف المرء أنه لا يمكن الآن النظر إلى أي مسألة سكانية بمعزل عن القضايا الأخرى. فحياة السكان المسنين، على سبيل المثال، ترتبط ارتباطاً عالمياً بالاتجاهات القائمة بين الشباب. وفي كثير من البلدان المتقدمة النمو والبلدان النامية، يهاجر الساعون إلى الحصول على فرص عمل من بين الشبان من المناطق الريفية إلى

▶ مشاة في مكسيكو
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو رامبريز آريولا

المدن أو إلى بلدان أخرى تتوافر فيها احتمالات أفضل لفرص العمل ، وفي أحيان كثيرة يتركون وراءهم أفراد الأسرة الأكبر سناً ، ويحرمونهم أحياناً مما يحتاجون إليه من دعم لحياتهم اليومية . وفي بعض البلدان الأغنى ، تشكل قلة أعداد الشباب حالة من عدم اليقين حول من سيتولى رعاية المسنين في المستقبل ، ومن سيتولى تسديد تكاليف الرعاية التي سيتمتع بها كبار السن .

وكل بلد من البلدان التي جرى تناولها في التقرير لا يرى في الاتجاهات السكانية المحددة الخاصة به ، مثل التوسع الحضري ، وارتفاع معدلات العمر المتوقع ، والتزايد السريع في أعداد السكان في سن العمل ، مجرد تحديات كبرى فقط ، ولكن يرى أنها تشكل أيضاً فرصاً هائلة يتعين انتهازها وتحويلها إلى منافع تعم الجميع . وهذه الاتجاهات يجري حجبها أحياناً في ما يجري من مناقشات بشأن حجم السكان بيد أن الكثير مما تطرحه من تحديات وفرص مباشرة لا يمكن إدراكه إلا حينما يتم إمعان النظر فيها . ففي مقاطعة شانزي بالصين ، على سبيل المثال ، يجري البحث عن سبل لإيواء وإعالة أعداد متزايدة من كبار السن . وفي مدينة ضخمة مثل لاغوس ، في نيجيريا ، يسعى خبراء التخطيط إلى إعادة تطوير الضواحي وإقامة مجتمعات محلية تكون أكثر اتساقاً وأيسر إمكانية على إدارتها والعيش فيها . وفي مكسيكو ، تحتل

السنوات التي حقق فيها عدد سكان العالم زيادات بليونية

يعد التزايد السريع في عدد سكان العالم ظاهرة حديثة . ومنذ نحو ٢٠٠٠ عام ، كان تعداد سكان العالم نحو ٣٠٠ مليون نسمة . واستغرق الأمر أكثر من ١٦٠٠ عام كي يتضاعف عدد سكان العالم إلى ٦٠٠ مليون . وقد بدأ التزايد السريع في تعداد سكان العالم عام ١٩٥٠ ، حيث طرأت حالات انخفاض على معدلات الوفيات في المناطق الأقل نمواً مما نشأ عنه سكان قدر عددهم بـ ٦,١ بليون نسمة ، أي قرابة مثلين ونصف عدد السكان في عام ١٩٥٠ . ومع انخفاض معدلات الخصوبة في معظم أرجاء العالم ، فإن معدل النمو السكاني العالمي أخذ في التناقص منذ وصل إلى ذروته البالغة ٢ في المائة في الفترة ١٩٦٥- ١٩٧٠ .

المصدر: شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة.

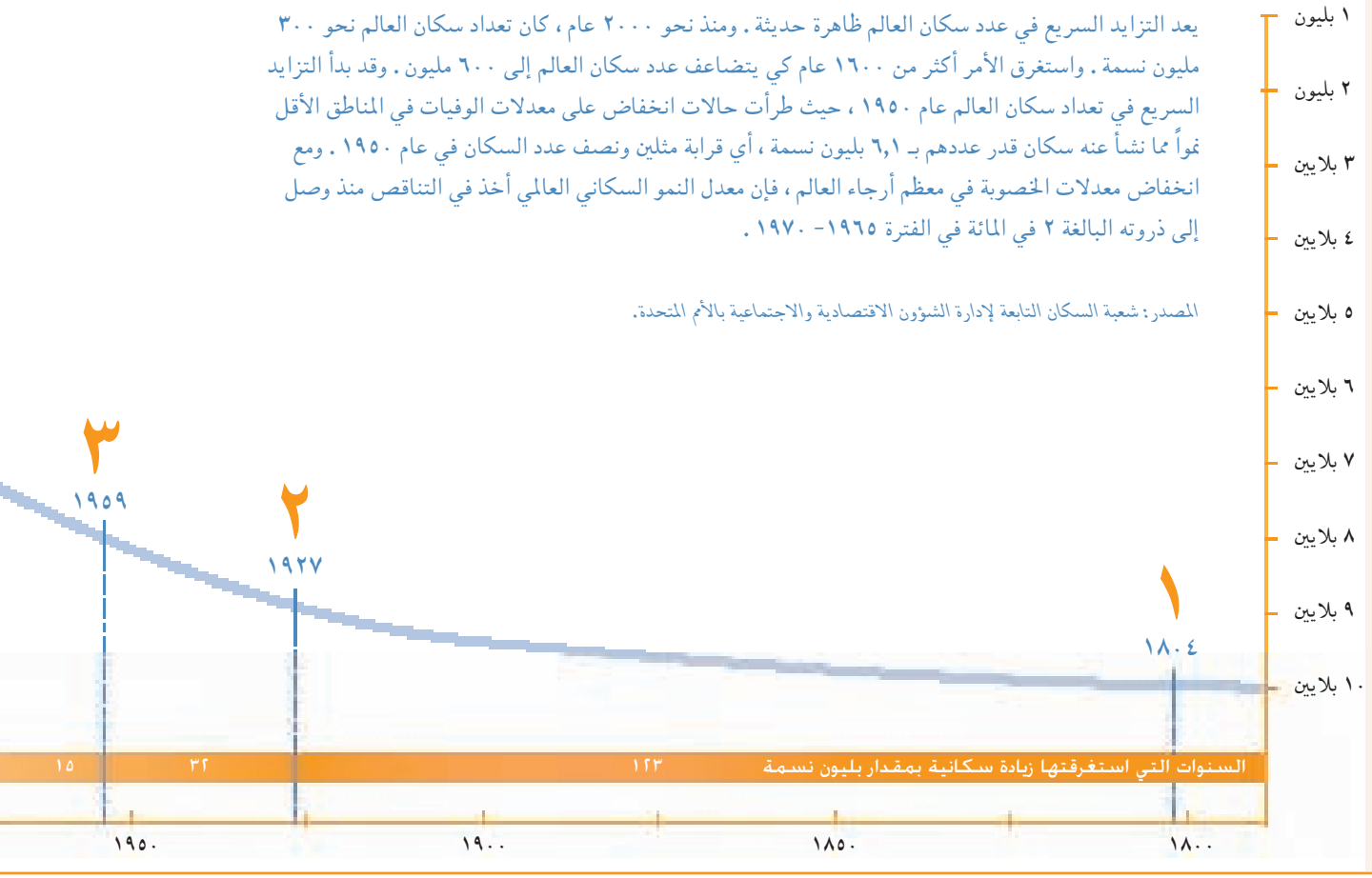

قائمة الأولويات الحدائق المناسبة لعامة الناس ، وإنشاء مساحات خضراء على جوانب الطرق وتوفير المزيد من وسائل المواصلات العامة سعياً إلى جعل الحياة الحضرية أكثر صحة واستدامة .

وتسعى بلدان مثل جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة وفنلندا ، حيث تنخفض معدلات الخصوبة ويتأخر الحمل ، إلى سبل لدعم النساء اللاتي لديهن عدد كبير من الأطفال . وشرعت بلدان مثل إثيوبيا والهند في حملات لإنهاء ممارسة زواج الأطفال ومنع حالات الحمل بين المراهقين والتي تهدد حياتهم .

إن المدن تنمو في كل مكان تقريباً . وبفضل التخطيط الجيد والسياسات المتأنية يمكن للحكومات أن تبدأ عهداً من النمو الحضري الذي ينشِّط الاقتصادات ويوفر فرص العمل في الوقت الذي يحقق فيه استخدام الطاقة على نحو أكثر كفاءة ويوفر الخدمات الاجتماعية لأعداد أكبر من الناس .

ويشكل الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة نسبة ٤٣ في المائة من سكان العالم . وحينما يمكن للشباب أن يطالبوا بحقوقهم في الصحة والتعليم وظروف العمل اللائقة ، فإنهم يصبحون قوة يعتد بها من أجل التنمية الاقتصادية والتغيير الإيجابي . وفي جميع أنحاء العالم النامي ، يسعى علماء الاجتماع وراسمو السياسات إلى تحقيق أفضل استفادة من فئات السكان الشبابية الضخمة لصالح الشباب أنفسهم الذين تراودهم الطموحات والآمال ، وأيضاً لصالح النمو والتنمية الاقتصاديين . بيد أن

ـة المتمثلة في تحقيق "العائد الديمغرافي"
ـة عابرة لابد من اقتناصها فوراً حتى

أفقر البلدان ، فإن روابط الفقر المدقع ،
أمن الغذائي ، وعدم المساواة ، وارتفاع
لوفيات ، وارتفاع معدلات المواليد تترابط
لقة مفرغة . وهناك سبيل إلى كسر هذه
، طريق الحد من الفقر الذي يمكن أن يتأتى
، الاستثمار في الصحة والتعليم ، لاسيما
ى النساء والفتيات . ومع تحسين أحوال
يمكن للآباء أن يكونوا أكثر اطمئناناً على
أطفالهم على قيد الحياة . وحينئذ سيختار
بناء أسر صغيرة العدد . ومن شأن ذلك
لاستثمار بصورة أكبر في توفير الصحة
كل طفل ، وفي تحسين الإنتاجية ، وتوفير
ل على المدى الطويل ـ للأسر وللبلدان على

ء بالإنجازات والتخطيط
بل

ير مما يمكن الاحتفاء به في ما يتعلق
ن السكانية في العالم على مدى الستين عاماً
وبخاصة فيما يتعلق بالمعدلات المتوسطة

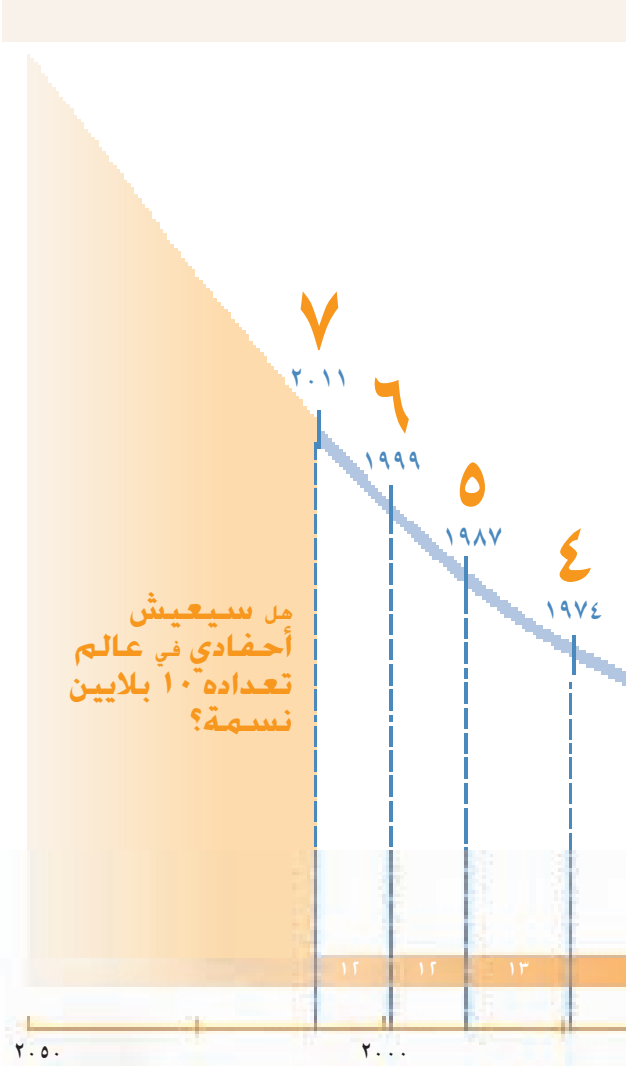

للعمر المتوقع ، والتي قفزت من نحو ٤٨ سنة في أوائل خمسينات القرن الماضي إلى نحو ٦٨ سنة في العقد الأول من القرن الجديد . وطرأ انخفاض حاد على معدل وفيات الرضع من نحو ١٣٣ حالة وفاة بين كل ١٠٠٠ مولود في خمسينات العقد الماضي إلى ٤٦ حالة في الفترة ما بين ٢٠٠٥ و ٢٠١٠ . وأدت حملات التحصين إلى خفض معدلات انتشار أمراض الأطفال حول العالم .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد انخفض معدل الخصوبة ، أي عدد الأطفال الذين يتوقع للمرأة أن تنجبهم خلال السنوات التي تتمتع فيها بالقدرة على الإنجاب ، بأكثر من النصف ، أي من نحو ٦ أطفال إلى ٢,٥ طفل ، ويعزى ذلك جزئياً إلى معدلات النمو والتنمية الاقتصاديين للبلدان ، لكنه يرجع أيضاً إلى مزيج مركب من العوامل الاجتماعية والثقافية وإلى ازدياد فرص المرأة في الحصول على التعليم ومناصب عمل مدرة للدخل ، وخدمات الصحة الإنجابية ، بما في ذلك وسائل منع الحمل الحديثة .

وفي بعض المناطق ، طرأ انخفاض حاد على معدلات الخصوبة منذ عام ١٩٥٠ . ففي أمريكا الوسطى ، على سبيل المثال ، كان معدل الخصوبة الإجمالي نحو ٦,٧ أطفال ، في حين انخفض هذا المعدل بعد مرور ٦١ عاماً إلى ٢,٦ طفل ، وهي نسبة أعلى بمقدار نصف في المائة من "مستوى الإحلال" السكاني البالغ ٢,١ طفل ، بينهم طفلة . وفي شرق آسيا ، بلغ معدل الخصوبة الإجمالي في عام ١٩٥٠ نحو ٦ أطفال لكل امرأة ، أما اليوم فهو ١,٦ طفل ، وهو أدنى بكثير من مستوى الإحلال . أما في بعض أجزاء أفريقيا ، فلم يطرأ سوى انخفاض ضئيل على معدل الخصوبة الإجمالية ، الذي لا يزال اليوم أكثر من خمسة أطفال لكل امرأة .

ولكن على الرغم من حالات الانخفاض في معدلات الخصوبة على الصعيد العالمي ، هناك قرابة ٨٠ مليون نسمة يضافون إلى تعداد سكان العالم كل عام ، وهو رقم يعادل تقريباً عدد سكان ألمانيا أو إثيوبيا . ولا يزال النمو السكاني بمعدلات كبيرة مستمراً اليوم بسبب ارتفاع أعداد المواليد خلال الخمسينات والستينات ، مما نشأ عنه وجود قواعد سكانية أساسية تضم الملايين من الشباب ممن يبلغون سنواتهم الإنجابية على مر الأجيال المقبلة .

وتتوقع شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة ، في منشورها المعنون: التوقعات السكانية في العالم: تنقيح عام ٢٠١٠ (المنشور في أيار/مايو ٢٠١١) أن يصل تعداد سكان العالم في عام ٢٠٥٠ إلى ٩,٣ بلايين نسمة ، بما يشكل زيادة عن التقديرات السابقة ، وإلى أكثر من ١٠ بلايين بحلول نهاية هذا القرن ــ ويفترض هذا السيناريو انخفاضاً تدريجياً لمعدلات الخصوبة ومع وجود معامل تغير ضئيل فقط في معدلات الخصوبة ، لاسيما في البلدان الأكثر اكتظاظاً بالسكان ، فإن مجموع تعداد سكان العالم يمكن أن يرتفع: وربما يصبح عدد الذين يعيشون على ظهر البسيطة ١٠,٦ بلايين نسمة بحلول عام ٢٠٥٠ ، وأكثر من ١٥ بليون

الصين والهند: أصحاب البلايين

أصدرت الصين والهند مؤخراً نتائج أحدث تعدادين للسكان فيهما فقدمتا للعالم لمحة عن عملية إعادة التشكُّل التي تتم في هذين البلدين العملاقين سكانياً من حيث أعداد السكان ومعدلات النمو . والجدول التالي هو تعبير عن هذين البلدين عددياً ، وباستخدام الأرقام الرسمية أو المستقاة من توقعات الأمم المتحدة .

ووفقاً لتوقعات شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة ، فإن الهند ، في عام ٢٠٢٥ ، سيبلغ عدد سكانها ١,٤٦ بليون نسمة ، متجاوزة بذلك عدد سكان الصين البالغ ١,٣٩ بليون نسمة ، وتصبح بذلك البلد الأكثر سكاناً في العالم . وبعد ذلك سينخفض تعداد الصين ، استناداً إلى معامل تغير متوسط ، إلى نحو ١,٣ بليون نسمة في عام ٢٠٥٠ . وستواصل الهند نموها السكاني حتى يصل إلى قرابة ١,٧٢ بليون نسمة في عام ٢٠٦٠ قبل أن يبدأ في الانخفاض .

	الصين	الهند
مجموع السكان ، ٢٠١١	١,٣٥ بليون	١,٢٤ بليون
الزيادة ٢٠٠١ ــ ٢٠١٠	٦٩,٧ مليون	١٧٠,١ مليون
معدل الخصوبة	١,٦	٢,٥
العام المتوقع لتحقيق استقرار السكان	٢٠٢٥	٢٠٦٠

المصدر: شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة.

نسمة في عام ٢١٠٠ وفقاً لتقديرات شعبة السكان. وتفيد الأمم المتحدة بأنه "من المتوقع أن ينشأ قدر كبير من هذه الزيادة عن البلدان ذات معدلات الخصوبة المرتفعة، والتي تضم ٣٩ بلداً في أفريقيا، وتسعة بلدان في آسيا، وستة في أوقيانوسيا، وأربعة في أمريكا اللاتينية".

ووفقاً لما ذكره جون كليلاند من مدرسة لندن للصحة العامة والطب المداري، وهو خبير دولي في مسائل الصحة الإنجابية في أفريقيا، فإن أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى "هي المنطقة الوحيدة المتبقية في العالم التي يتوقع فيها لتعداد السكان أن يتضاعف أو يصبح ثلاثة أمثاله خلال الأربعين عاما المقبلة". وقال إن هذا يوضح السبب في التركيز المتزايد من جانب خبراء الديمغرافيا على هذه المنطقة "لأن النمو السكاني السريع يضاعف من صعوبة الإفلات من الفقر والجوع".

التقديرات والتوقعات السكانية حسب المنطقة الرئيسية، ومعامل التغير المتوسط، ١٩٥٠- ٢١٠٠ (بالبلايين)

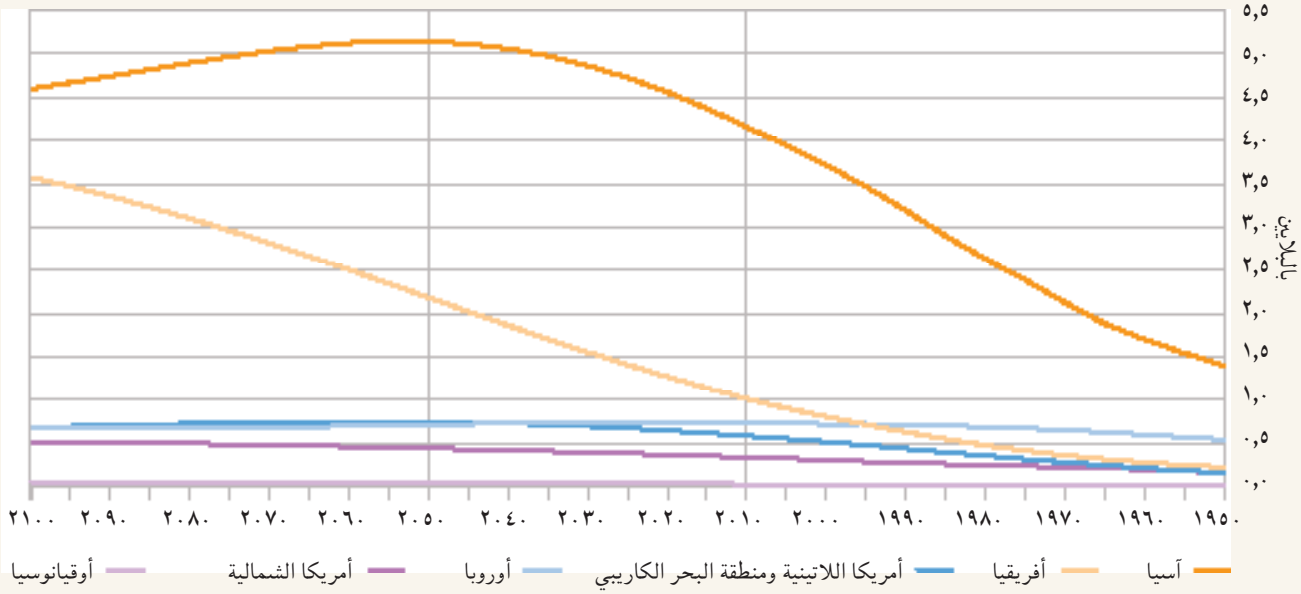

ستظل آسيا المنطقة الرئيسية الأكثر كثافة في العالم خلال القرن الحادي والعشرين ولكن أفريقيا ستزداد كثافة أيضاً حيث سيتضاعف عدد سكانها إلى الثلاثة أمثال، ويرتفع عدد سكانها من ١ بليون نسمة في عام ٢٠١١ إلى ٣,٦ بلايين نسمة في ٢١٠٠.

في عام ٢٠١١، عاش ٦٠ في المائة من سكان العالم في آسيا، و ١٥ في المائة في أفريقيا. ويزداد عدد سكان أفريقيا بنسبة ٢,٣ في المائة سنوياً خلال الفترة من ٢٠١٠ إلى ٢٠١٥، وهو معدل يبلغ أكثر من ضعف معدل زيادة السكان في آسيا (١ في المائة سنوياً). وتجاوز عدد سكان أفريقيا البليون لأول مرة في عام ٢٠٠٩، ومن المتوقع أن يضيف بليوناً أخرى في مجرد ٣٥ عاماً (بحلول عام ٢٠٤٤)، حتى مع انخفاض معدل الخصوبة فيها من ٤,٦ أطفال لكل امرأة في الفترة ٢٠٠٥-٢٠١٠ إلى ٣ أطفال في الفترة ٢٠٤٠ - ٢٠٤٥.

ومن المتوقع أن يبلغ عدد سكان آسيا، البالغ حالياً ٤,٢ بلايين نسمة، ذروته قرابة منتصف القرن (حيث من المتوقع أن يصل إلى ٥,٢ بلايين نسمة في ٢٠٥٢)، وسيبدأ في التباطؤ بعد ذلك.

ويبلغ عدد سكان جميع المناطق الرئيسية الأخرى مجتمعة (الأمريكتان، وأوروبا، وأوقيانوسيا) ١,٧ بليون نسمة في عام ٢٠١١ ومن المتوقع أن يرتفع هذا العدد إلى قرابة بليونين في عام ٢٠٦٠ ثم يبدأ في الانخفاض ببطء شديد، ويظل مستقراً عند قرابة البليونين بحلول مشارف القرن. ومن بين هذه المناطق، من المتوقع أن يبلغ عدد سكان أوروبا ذروته قرابة عام ٢٠٢٥ حيث يبلغ ٠,٧٤ بليون نسمة ثم يبدأ في الانخفاض بعد ذلك.

المصدر: شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة

ويقول ستيفن سندنغ ، الذي عكف على مراقبة الاتجاهات السكانية على مر السنين بوصفه مديراً لمكتب السكان في وكالة التنمية الدولية التابعة للولايات المتحدة ، وهو أستاذ للسكان وصحة الأسرة بجامعة كولومبيا ، والمدير العام للاتحاد الدولي لتنظيم الأسرة ، إنه "من الواضح أننا نمر عبر فترة استثنائية في تاريخ البشرية تمثل عهداً من النمو غير المسبوق في نوعنا البشري" . ويضيف قائلاً: "إن وتيرة النمو تشكل تحديات خطيرة بالنسبة إلى الكثير من أفقر البلدان ، التي تفتقر إلى الموارد ليس فقط لتلبية الطلب من الهياكل ، والخدمات الأساسية في مجالي الصحة والتعليم ، وفرص العمل المطلوبة لعدد متزايد من الشباب ، ولكن أيضاً من أجل التكيف مع تغير المناخ" .

ويتطلب تحقيق استقرار النمو السكاني ، وبخاصة في أفقر البلدان ، وصولاً أفضل وأشمل لخدمات الصحة الإنجابية وبخاصة تنظيم الأسرة في مختلف البلدان . وينبغي لتوفير هذه الخدمات أن يستند إلى حقوق الإنسان وأن يعزز هذه الحقوق ، وأن يشمل التثقيف الجنسي للشباب ، وبخاصة المراهقات .

ويقول خوسيه أنغيل أغويلار غيل ، مدير منظمة الديمقراطية والحياة الجنسية ، وهي منظمة غير حكومية مقرها المكسيك وتعنى بتعزيز الصحة والحقوق الجنسية والإنجابية ، إن المراهقات والشابات "لهن الحق في الحصول على التثقيف الجنسي المتكامل كجزء من حق أعمّ من حقوق الإنسان: ألا وهو الحق في التعليم" .

وتقول غابرييلا ريفيرا ، وهي معاونة برنامج في مكتب صندوق الأمم المتحدة للسكان في مكسيكو إن هناك "أدلة وافرة" على المزايا التي يمكن أن تتحقق من التثقيف الجنسي القائم على الحقوق . وفي رأيها ، فإن البرامج الناجحة توفر المعلومات العلمية الكافية وحسنة التوقيت والمكيفة حسب احتياجات كل فئة عمرية . "وقد أظهرت دراسات التقييم أن التثقيف الجنسي له تأثيره في تأخير السن التي يتم فيها الاتصال الجنسي لأول مرة ، وفي التقليل من مستويات العنف ضد الفتيات" ، وفقاً لما تقوله ريفيرا . وتضيف قائلة: "إن ما سبقت الإشارة إليه أعلاه تعني ضمناً الحد من حالات الحمل المبكر وغير المرغوب فيه ، وخفض معدلات الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز" .

غابرييلا ريفيرا ، نائبة مدير البرنامج الوطني للصحة الجنسية والإنجابية للشباب والمستضعفين ، صندوق الأمم المتحدة للسكان ، المكسيك

© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو راميريز آريولا

٧ بلايين : إنه أمر يتعلق بالبشر

على الرغم من أن جلَّ اهتمام العالم سوف ينصب بالتأكيد على الأرقام في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ، وهو اليوم الذي يقدر فيه الخبراء الديمغرافيون أن عدد سكان العالم سيصل إلى ٧ بلايين ، فإن هذا التقرير يركز على الأفراد ، وعلى المحللين الذين يدرسون الاتجاهات ذات التأثير على حياة السكان اليومية . ويلقي التقرير نظرة فاحصة على القرارات التي يتخذها هؤلاء الأفراد ــ أو التي يودون اتخاذها إن سنحت لهم الفرصة لذلك .

وفي المؤتمر الدولي للسكان والتنمية المعقود عام ١٩٩٤ ، اتفقت الدول على أن إحراز تقدم في معالجة المسائل السكانية يمكن أن يتحقق على نحو أفضل عن طريق تمكين النساء والفتيات من المشاركة في مجتمعاتهن واقتصاداتهن على قدم المساواة مع

أمسالو بوكي (إلى اليسار) ومساعدتها.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

الرجال والفتيان، ومن اتخاذ القرارات الأساسية بشأن حياتهن، بما في ذلك القرارات المتعلقة بتوقيت حالات الحمل والولادة والمباعدة بينها. وفي الوقت الذي أصدرت فيه وفود المؤتمر الدولي بالقاهرة برنامج عملها التاريخي، كانت هناك بحوث وخبرات وفيرة من بلدان كثيرة مدعومة بالوثائق أنه حينما تتمتع المرأة بالمساواة في الحقوق والفرص في مجتمعاتها، وحينما تتمتع الفتيات بالتعليم والصحة، تنخفض معدلات الخصوبة. وأوضح برنامج العمل أيضاً أن تمكين المرأة ليس مجرد غاية في حد ذاته، لكنه يشكل أيضاً خطوة صوب القضاء على الفقر.

و يبدأ تقرير حالة سكان العالم ٢٠١١ بتقديم عينات من الشباب وإلقاء نظرة على تقييمهم لتزايد أعداد السكان في مختلف الأوضاع. ثم تبحث الفصول التالية في مواضيع شيوخة السكان، والهجرة، وعلاقة الترابط بين مختلف أنماط الخصوبة، وخدمات الصحة الإنجابية، ونوع الجنس وحقوق المرأة والفتاة، وإدارة المناطق الحضرية الشاسعة، والمصاعب البيئية.

وفي هذا التقرير يتحدث أفراد يتمتعون بعمق الفكر والرؤى الثاقبة من مختلف أنحاء العالم عن التحديات والفرص التي يواجهونها في تشكيل مجتمعاتهم وعن التحديات والفرص المتعلقة بسكان العالم على مدى هذا القرن وفيما وراءه. ومعظم هؤلاء الأفراد من الشباب، وهم واعون بالحقيقة الديمغرافية التي تقول بأنهم هم الذين سيصممون شكل العالم في القرن الحادي والعشرين.

السكان والفقر

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

... إن استمرار انتشار الفقر على نطاق واسع فضلاً عن أوجه الجور الخطيرة، الاجتماعية والقائمة على نوع الجنس، لها آثار كبيرة على البارامترات الديمغرافية مثل نمو السكان وهيكلهم وتوزعهم... والجهود الرامية إلى التخفيف من سرعة نمو السكان والحد من الفقر وتحقيق التقدم الاقتصادي وتحسين حماية البيئة والحد من أنماط الاستهلاك والإنتاج غير المستدام تعزز بعضها بعضاً... ومن شأن القضاء على الفقر أن يسهم في التخفيف من سرعة النمو السكاني وتحقيق الاستقرار السكاني في وقت مبكر.

الفصل الثاني

الشباب: قوة عالمية جديدة تعيد تشكيل العالم

إيثيل فيري ، شابة في الثانية والعشرين من العمر ، تشتغل كمدرسة في مجال تعليم الأقران لدى رابطة تنظيم الأسرة في موزامبيق (أموديفا) ، وهي منظمة غير الحكومية تقوم على تنفيذ أحد برامج توعية الشباب في البلد ، وهو برنامج Geração Biz ، أو "الجيل المثابر" ، وتدير برنامج *bancadas femininas* ، الذي ينظم مجموعات مناقشة في المدارس أو الأسواق أو أي مكان آخر في المجتمعات المحلية حول مابوتو من أجل دعم الشباب فيما يهمهم من قضايا مثل الصحة الجنسية والإنجابية والوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز وتثقيفهم بشأن حقوق المرأة . وتقول فيري إن مجموعاتها "تتناول كثيراً الحديث عن سيطرة الرجال على النساء . فالنساء ليس لهن صوت داخل بيوتهن . وهن يسعين إلى تغيير هذه الثقافة ، ويطلبن من الحكومة أن تولي اهتماماً أكبر لقضاياهن" .

وتتوافر للشباب في الصين السبل اللازمة للتعرف على الفرص الاقتصادية المتاحة ، ويسعون إلى تأهيل أنفسهم للحصول على هذه الفرص. ويتحدث المهاجرون الصينيون الشباب من منطقة زيان ، الواقعة في مقاطعة شانزي ، عن الوظائف التي يقومون بها في أكشاك البيع بالأسواق وفي المصانع فيصفونها بأنها وسيلة لادخار بعض النقود والعودة إلى ديارهم والشروع في أعمال تجارية خاصة بهم . ومن هؤلاء المهاجرين هان كيان ، ٢١ سنة ، التي شرعت في دراسة الطب ، ثم انتقلت إلى الصيدلة ، وحصلت على وظيفة في مجال اختبار العقاقير . تعبّر كيان عن مللها ، وتقول إنه راق لها مقهى قريب ، فشرعت في الادخار مما تكسبه لكي تكوّن رأسمال يمكنها من فتح مقهى خاص بها .

وفي قرية تاري الإثيوبية المنعزلة ، كانت أمسالو بوكي تحمل على كتفها صندوقاً من المستلزمات الطبية ، وقد بدت تلك فكرة ثورية تماماً بالنسبة إلى النساء اللاتي تعشن في هذه المنطقة التي لا يوجد بها أطباء ولا طرق . وهاهي أمسالو ، التي لم تتعد العشرين من العمر ، تعبر الحقول القاحلة من قرية إلى قرية وتوفر لوازم تنظيم الأسرة لنساء متعطشات إلى المساعدة حتى إنهن ينتظرنها على قارعة الطرق التي تمر بها في جولاتها يلتمسن منها بلطف تزويدهن بوسائل منع الحمل .

وفي سكوبيه ، عاصمة جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة ، تحدثت مجموعة من الشابات عن الفرص التي انتهزنها في مجال تنظيم المشاريع في الاقتصاد الانتقالي الذي يمر به البلد لكي يهيئن أنفسهن لتحقيق النجاح في مجالات جديدة من الأعمال التجارية والخدمات . وكان العديد منهن قد عشن بالخارج واكتسبن ، شأنهن شأن الكثير من المهاجرين الشباب ، مهارات وثقة بالنفس ، سواء سافروا للعمل خارج الحدود أو إلى مدن أخرى داخل بلدانهم . مارينا أنشفيسكا هي إحدى هؤلاء المشتغلات بالأعمال الحرة الجدد ، وقد عادت من هولندا لكي ترسخ نفسها كمدربة رياضية شخصية وعلى المستوى التجاري ، وتخصصت في تنظيم فصول دراسية لتعليم اليوغا . وقالت أنشفيسكا إنها تسعى إلى تغيير أجواء

ريكاردو مورينو وسارة غونزاليس في مكسيكو.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو راميريز آريولا

المكاتب وقاعات مجالس الإدارة في هذا البلد الذي سار يوماً في ركاب الاشتراكية وأصبح يروق اليوم للاستثمار الأجنبي والشركاء الاقتصاديين الدوليين الذين يريدون المساعدة في تنمية البلد .

وفي نيجيريا ، تولت فوزية عبد الله ، المقيمة في مدينة لاغوس الشاسعة ، تنظيم حملة حضرية لتسجيل الشباب للتصويت في الانتخابات الوطنية التي نظمت مؤخراً في أكثر البلدان كثافة بالسكان في أفريقيا ، وحيث يشكل الشباب دون سن الخامسة والثلاثين نسبة ٧٠ في المائة من مجموع السكان . وقامت بالحملة تحت عنوان "حافلة التصويت" ، وهو مستمد من عرض تليفزيوني يحمل اسم الحافلة المدرسية ، وشجعت الحملة على المناقشة والمشاركة السياسيتين تحت شعار "الشباب يستغلون أصواتهم في التفاوض من أجل المستقبل" .

وفي المكسيك ، يشكل إنتاج الأغذية وصناعات الخدمات آفاقاً واعدة للحياة المهنية . ليو روميرو شاب في السادسة عشرة كان من بين الكثيرين من المتزلجين وراكبي الدراجات فوق منحدر أقيم لهذا الغرض تحت أحد المعابر الفوقية في المدينة . توقف قليلاً وسط الجلبة لكي يتحدث عن المهنة التي يخطط لها . قال إنه يهدف إلى الدراسة في أحد معاهد فنون الطهي لكي يجد عملاً في هذا المجال . ويقول روميرو ، الذي يكسب قوته بالعمل عازفاً موسيقياً غير متفرغ في إحدى فرق موسيقى (الصلصة) ، إنه يخبر أصدقاءه بمواصلة التعليم في المدارس وعدم الزواج إلى أن يحصلوا على وظائف جيدة .

وفي الهند ، انضم آلاف الخريجين الجامعيين من الشباب إلى ساحة الاقتصاد العالمي عن طريق العمل في مركز للاتصال ، على أمل أن يكون ذلك خطوة أولى على طريق شغل وظيفة تكنولوجية متقدمة .

هؤلاء جميعاً شباب يحدوهم الأمل والطموح والالتزام بتحسين حياتهم وحياة أقرانهم وجيرانهم ومجتمعاتهم المحلية وبالتالي بلدانهم . بيد أن نجاحهم في هذا المسعى إنما يعتمد على قدرتهم على استغلال الفرص التعليمية والاقتصادية في صحوتهم من أجل التغلب على العقبات أمام صحتهم الجنسية والإنجابية والحقوق المتعلقة بها .

مزيد من الشباب ، مزيد من الإمكانات

على الرغم من أن الأشخاص في سن ٢٤ سنة أو أقل يشكلون قرابة نصف عدد سكان العالم البالغ ٧ بلايين نسمة (من بينهم ١,٢ بليون نسمة تتراوح أعمارهم بين ١٠ سنوات و ١٩ سنة) ، فإن نسبتهم المئوية من سكان بعض البلدان النامية الرئيسية بلغت ذروتها بالفعل ، وفقاً لتقديرات شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة في منشورها المعنون التوقعات السكانية في العالم: تنقيح ٢٠١٠ . وفي واقع الأمر ، فإن نسبة الشباب ـ الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ سنوات و ٢٤ سنة وفق تصنيف الأمم المتحدة ـ بدأت في الانخفاض في أماكن كثيرة ، ليس فقط في البلدان الصناعية المتقدمة النمو ، ولكن أيضاً في البلدان المتوسطة الدخول . ففي المكسيك حيث تقلص معدل الخصوبة كثيراً في السنوات الأخيرة ، بدأ "الهرم" السكاني للبلد في التقلص باطراد من أسفل ، مع انخفاض نسبة عدد السكان من الفئة العمرية من المولد حتى سن الرابعة عشرة من ٣٨,٦ في المائة من مجموع عدد السكان على الصعيد الوطني في عام

▼ فوزية عبد الله ، ناشطة شبابية في لاغوس ، نيجيريا .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ أكينتوندي أكينلييه

١٩٩٠ إلى ٣٤,١ في المائة في عام ٢٠٠٠ ، ثم إلى ٢٩,٣ في المائة في عام ٢٠١٠ . ونتيجة لذلك ارتفع متوسط العمر في البلد من ١٩ إلى ٢٦ خلال عقدين من الزمان . وتحرك هذا المعدل في الزيادة صعودياً إلى مرحلة متوسط العمر وأعيد تشكيل تركيبة الهرم السكاني .

وتبرهن الإحصاءات من هذا القبيل على أنه في البلدان المتوسطة الدخل وفي بعض البلدان المنخفضة الدخل سريعة النمو فإن عدد السنوات التي يمكن فيها الاعتماد على فئة سكانية عاملة كبيرة من الشباب قد يكون سريع الزوال ، ويتعين على الحكومات والقطاع الخاص أن يتصرفا سريعاً لإعداد الشباب للاضطلاع بأدوار منتجة ولتوفير الوظائف لهم في مرحلة مبكرة من حياتهم العملية .

وفي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى حيث لا تزال معدلات النمو الاقتصادي مرتفعة نسبياً ، جرى تحذير الحكومات في التقرير الاقتصادي عن أفريقيا لعام ٢٠١١ الصادر عن لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية لأفريقيا والاتحاد الأفريقي من أن هذا الأداء لا يترجم على نحو يوفر الوظائف المطلوبة . وحث التقرير على المزيد من التدخل الحكومي الفعال لوضع السياسات والبرامج التي من شأنها توفير العمالة .

وفي سكوبيه ، تقول عالمة الاجتماع أنطوانيلا بتكوفسكا من جامعة Ss. Cyril and Methodius إنها تشعر بالقلق إزاء الإحباط الذي ينتاب الشباب حينما يدرسون بجد واجتهاد بدون أي توقعات بالحصول على وظائف مرضية . وتضيف قائلة: "إن الشباب شديدو التشاؤم إزاء مستقبلهم ، خاصة في ضوء ارتفاع معدل البطالة مما يحرمهم من فرص العمل . ولذلك فإن معظمهم يكافح من أجل الحصول على دبلوم عال ، ليس حباً في المعرفة" . وهي تتطلع إلى المزيد من المساعدة من جانب الحكومة لإدماج الشباب في المجتمع الفكري الأوروبي الأوسع نطاقاً من أجل توسيع مداركهم التعليمية ، وتريد من الحكومة أن ترتقي بنظام التعليم العالي في البلد ، بما في ذلك البحث العلمي ، بما يتيح إمكانية التبادل بين الجامعات . وتمضي قائلة: "إنني جد آسفة بالنسبة لطلابي لأنهم يكونون أحياناً من الشباب الذين يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء ، وكل ما يطلبونه هو دعم بعض احتياجاتهم ، فنحن فعلاً نمتلك إمكانات ضخمة" .

وتؤثر التطورات الاقتصادية والاجتماعية على الشباب في الهند ، التي يبلغ تعدادها ١,٢ بليون نسمة ، وهذا التأثير هو موضع اهتمام خاص من جانب الكثير من علماء الديمغرافيا لأن البلد في سبيله إلى أن يحتل مكان الصين ، التي يبلغ عدد

" تستطيع أن تقول لا للجنس ، ولكن يستحيل أن تقول لا لاستعمال الرفال" ، تحذير تتضمنه هذه النشرة التي توزعها إيثيل فيري ، الناشطة في منظمة أموديفا في مابوتو ، موزامبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/بيدرو سا دا باندييرا

▲ شباب مصريون قرب ميدان التحرير في القاهرة.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ماثيو كاسل

سكانها الآن ١,٣ بليون نسمة ، كأشد سكان العالم كثافة بحلول عام ٢٠٢٥ ، كما أن حجم البلد سوف يؤثر على التركيب السكاني العالمي .

وفي الهند ، حيث لا يزال معدل الخصوبة ، البالغ ٢,٥ طفل لكل امرأة ، أعلى كثيراً من مستوى الإحلال البالغ ٢,١ ، هناك أكثر من ٦٠٠ نسمة ممن هم في سن ٢٤ سنة أو أقل . وأعرب المسؤولون الحكوميون في الهند عن ثقتهم بأن هذه الفئة الكبيرة من الشباب والأطفال ستفيد الاقتصاد لعدة سنوات مقبلة ، الأمر الذي شكك فيه خبراء الديمغرافيا وعلماء الاجتماع ، وتساءلوا عن عدد الشباب الذين سيكونون على استعداد للدخول في حياة عملية منتجة في ظل اقتصاد أكثر تعقيداً وتقدماً وفي الوقت الذي يعاني فيه أكثر من ٤٨ في المائة من أطفال الهند من سوء التغذية ، وحيث لا يكمل الدراسة الابتدائية منهم سوى ٦٦ في المائة ، ويواظب النصف أو أقل على حضور التعليم الثانوي ، وفقاً لما أورده تقرير اليونيسيف وضع الأطفال في العالم ٢٠١١ .

ويجادل ك . شاندراموليو ، المسجل العام ومفوض التعداد في الهند ، بالقول بأن الوقت لا يزال يدعو إلى التفاؤل إزاء مستقبل النمو الصناعي في البلد لأن الهند لديها أكبر فئة سكانية من الشباب في سن العمل ممن يتمتعون بالطاقة اللازمة لدفع الاقتصاد على مدى عقود . ويرى خبراء اقتصاديون من خارج الهند أن هذا العامل ، مقروناً بنظام سياسي ديمقراطي قادر على إجراء إصلاحات سياسية ، هما من بين المؤشرات على أن الهند ستواصل نموها الاقتصادي القوي . ولكن شاندراموليو يضيف محذراً بأن القضية الآن تتمثل في كيفية معالجة 'الزيادة الشبابية' ، ويتساءل: "ما هو نوع المهارات التي توفرها لهم ؟ كيف تجعل منهم رصيداً ؟"

دخول سوق العمل في ظل ندرة الوظائف

هناك الآن نقص في كل مكان تقريباً في الوظائف المأمونة ذات الأجور المعقولة ، وخاصة بالنسبة إلى الشباب .

وقد أعلنت منظمة العمل الدولية في عام ٢٠١٠ أن ٨١ مليوناً من أصل ٦٢٠ مليوناً من الشباب الناشطين اقتصادياً ممن تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢٤ سنة على الصعيد العالمي ـ أو ١٣ في المائة من هذه الفئة ـ كانوا عاطلين في العام السابق ، وعزت ذلك إلى حد كبير إلى الأزمة المالية والاقتصادية في العالم .

وفي ذروة الأزمة الاقتصادية ، شهد معدل البطالة بين الشباب على الصعيد العالمي أكبر زيادة سنوية على الإطلاق ـ من ١١,٩ في المائة إلى ١٣,٠ في المائة في الفترة ما بين ٢٠٠٧ و ٢٠٠٩ .

ويضيف تقرير منظمة العمل الدولية أن الشابات واجهن صعوبة أكثر من الشبان في العثور على عمل . وكانت نسبة البطالة بين الشابات ١٣,٢ في المائة في عام ٢٠٠٩ بالمقارنة بنسبة ١٢,٩ للشبان . وكانت الحالة "وخيمة" بوجه خاص في الدول العربية "وليس أمامها سوى أن تزداد سوءاً بعد أن أدت الأزمة الاقتصادية إلى غلق الأبواب القليلة التي كانت مفتوحة أمام هؤلاء الذين كانوا يقنعون ببعض الدخل وبعض الرضى من خلال عملهم" . ويضيف التقرير قائلاً "إن هناك هدراً جسيماً في الطاقة الإنتاجية للشابات" .

وحتى في ظل أفضل الظروف الاقتصادية ، واجهت الشابات عموماً صعوبات أكثر من تلك التي واجهها الشباب في البحث عن عمل . وحتى وإن وجدت الشابات وظائف فهي تكون في

أحيـان كثيرة أقل أجراً وفي قطاع الاقتصاد غير الرسمي حيث لا يتوفر أي أمن وظيفي أو مزايا اجتماعية .

وتحذر منظمة العمل الدولية من أن حالات الشباب العاطلين الذين يئسوا في البحث عن عمل "تترتب عليها تكاليف يتكبدها الاقتصاد والمجتمع والأفراد وأسرهم" . وتضيف المنظمة قولها بأن "هناك صلة مؤكدة بين بطالة الشباب والإقصاء الاجتماعي" . ويضطر بعض الشباب غير القادرين على كسب الدخل إلى الحصول على الدعم المالي من أسرهم مما لا يترك لهذه الأسر سوى النزر اليسير للإنفاق على أفراد الأسرة والاستثمار فيهم . وفي مثل هذه الأحوال ، تفقد المجتمعات المحلية استثماراتها في التعليم ، وتتخلف الحكومات عن تقديم التبرعات إلى نظم الضمان الاجتماعي . ويشكل كل ذلك ، وفقاً لما تذكره منظمة العمل الدولية ، "تهديداً لإمكانات النمو والتنمية الخاصة بمختلف الاقتصادات" . ومن الضروري إيجاد فرص العمل المدر للدخل لأن الشباب ليسوا فقط مولدون للأفكار والابتكارات لكنهم أيضاً يشكلون "قوة دافعة للتنمية" داخل بلدانهم . "ويشكل إغفال هذه الإمكانات إهداراً للاقتصاد" .

وفي عام ٢٠١١ ، وفي خضم الثورات التي اجتاحت شوارع البلدان العربية ، أشارت منظمة العمل الدولية أيضاً إلى أن معدل البطالة بين الشباب في البلدان العربية الذي بلغ ٢٣,٤ كان من العوامل الرئيسية التي ساهمت في تلك الانتفاضات .

"من الصعب أن تكون شاباً في موزامبيق" ، هكذا يقول روي بيدرو كوسا ، وهو طالب في الرابعة والعشرين من العمر يدرس الجغرافيا في جامعة إدواردو موندلين في مابوتو . ويوضح قائلاً : "ففي مرحلة الشباب يفترض عادة أنك تكتسب الخبرة من أجل المستقبل ، ولكنك تواجه من المشاكل أكثر مما تجد من الفرص . ولا سبيل إلى التغلب على العقبات" .

فيرناندا باولا مانيك ، زميلة كوسا في الدراسة ، توافقه الرأي ، وتضيف قائلة إن احتمالات العمل بالنسبة إلى الشباب "صعبة المنال" .

▲ فيرناندا مانهيك ، تدرس الجغرافيا في جامعة إدواردو موندلين في مابوتو ، موزامبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/بيدرو سا دا باندييرا

وكما هو من الصعب الآن على كوسا ومانيك العثور على وظيفة في ميدان تخصصهما ، يحتمل أن تكون الحالة أكثر سوءًا للباحثين عن وظائف في السنوات المقبلة من غير الحاصلين على مؤهلات تعليمية عالية .

ويسعى الشباب إلى أخذ زمام ا لمبادرة وتوسيع نطاق الفرص في أماكن كثيرة . ففي نيجيريا ، في عام ٢٠٠٨ ، أنشئ دور رسمي أنيط بالشباب من خلال إنشاء برلمان الشباب الوطني الذي قصدت به الحكومة الاتحادية تعليم الشباب من خلال المشاركة كيفية كتابة القوانين ، وتخطيط الميزانيات ، ووضع السياسات . ويضم برلمان الشباب ١٠٠ عضو ، ويعقد اجتماعاته في العاصمة أبوجا في قاعات الجمعية الوطنية

لنيجيريا ، وهو مكلف بإصدار قرارات استشارية لكي تنظر فيها الحكومة . وفي السنة الأولى لإنشائه اقترح المجلس اتخاذ عدد من التدابير التي اعتمدت منذ ذلك الحين على مستوى الحكومة الاتحادية ، من بينها خطة وطنية لتشغيل الشباب .

معدلات مشاركة الشباب في القوى العاملة ، حسب المنطقة ونوع الجنس ، ٢٠١٠

معدلات المشاركة في قوة العمل للشابات أقل منها للشبان في جميع المناطق عدا شرق آسيا ، بما يعكس أساساً تباين التقاليد الثقافية وانعدام الفرص أمام النساء للجمع بين العمل ومسؤوليات الأسرة ليس فقط في بلدان العالم النامي ولكن أيضاً في بلدان العالم الصناعي . وفي مناطق كثيرة ، تقلصت التفاوتات في معدلات مشاركة الشباب حسب نوع الجنس على مدى العقد الماضي ، لكنها ظلت كبيرة في جنوب آسيا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا . وفي منطقة شمال أفريقيا ، تقلصت معدلات مشاركة الإناث بأسرع مما هو بالنسبة لمعدلات مشاركة الذكور ، الأمر الذي وسع بالفعل من التفاوت حسب نوع الجنس .

	المجموع ٪	ذكور ٪	إناث ٪
العالم	٥٠,٩	٥٨,٩	٤٢,٤
الاقتصادات المتقدمة النمو والاتحاد الأوروبي	٥٠,٢	٥٢,٦	٤٧,٧
وسط وجنوب شرقي أوروبا (من غير الاتحاد الأوروبي) وكمنولث الدول المستقلة	٤١,٧	٤٧,٧	٣٥,٥
شرق آسيا	٥٩,٢	٥٧,٠	٦١,٦
جنوب شرق آسيا والمحيط الهادئ	٥١,٣	٥٩,١	٤٣,٣
جنوب آسيا	٤٦,٥	٦٤,٣	٢٧,٣
أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي	٥٢,١	٦١,٣	٤٢,٧
الشرق الأوسط	٣٦,٣	٥٠,٣	٢١,٥
شمال أفريقيا	٣٧,٩	٥٢,٥	٢٢,٩
أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى	٥٧,٥	٦٢,٧	٥٢,٢

المصدر : اتجاهات الاستخدام العالمية للشباب ، منظمة العمل الدولية.

ويعكف أولاليكان عزيز ـ إيغينلا ، منسق ولاية لاغوس لشبكة الشباب الوطنية بشأن فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز ، والسكان والتنمية ، على دراسة مسألة العمالة . حيث يقول إنه حتى عهد قريب لم يكن للشباب أي إسهام هام في عمليات رسم السياسات والحوكمة . وهو يحتفظ بسجل بأسماء الشباب المؤهلين الذين يودون "تقديم المساعدة في تخطيط المستقبل الذي سيصبحون هم أنفسهم جزءًا منه" . ويضيف قائلاً إنه يسعى إلى أن يطلب من محافظ لاغوس ، كولاية وكمدينة أيضاً ، أن يجد أو يهيئ السبيل إلى إيجاد فرص الوظائف لما يصل عددهم إلى مليون من الشباب المؤهلين .

كثير من الشباب لديهم أسر صغيرة

يسعى شباب اليوم من الجنسين ــ وعدد كبير منهم لا يزالون في سن المراهقة في أقل البلدان نمواً ــ إلى الحصول على التعليم الأفضل والصحة الأوفر وفي النهاية على الوظائف من أجل إعالة أنفسهم وعائلاتهم . وفي بلدان كثيرة من بلدان شمال العالم ، يتزوج الشبان والشابات في سن متأخرة وينجبون عدداً قليلاً من الأطفال ، ويظهر هذا الاتجاه في كثير من البلدان النامية ، وإن كان بطيئاً .

وفي إثيوبيا ، وهو بلد منخفض الدخل ويعيش ٣٩ في المائة من سكانه البالغ عددهم ٨٢,٩ مليون نسمة تحت خط الفقر الدولي المحدد بمبلغ ١,٢٥ دولار في اليوم ، وفقاً لبيانات البنك الدولي ، فإن المشقة ــ وليس ارتفاع مستوى التوقعات والسعي إلى معايير معيشية أفضل ــ ربما تكون هي العامل الرئيسي المحرك للشابات والشبان في المدن حينما يحددون خياراتهم المتعلقة بأسرهم . ووفقاً لما ذكرته أصيفه هايلي ماريام ، المديرة السابقة لمركز بحوث ودراسات السكان في معهد دراسات التنمية التابع لجامعة أديس أبابا ، فإن سكان الحضر من الشباب يقفون وراء الانخفاض السريع لمعدلات الخصوبة لأسباب اقتصادية .

أولاليكان عزيز – إيغينلا، من الناشطين الشبان، يتحدث في مقابلة بمكتب صندوق الأمم المتحدة للسكان في لاغوس، نيجيريا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ أكينتوندي أكينلييه

وتقول هايلي ماريام "إن الحياة في المناطق الحضرية كثيرة المطالب. ولا يمكنك الاعتماد على الأقارب لرعاية أطفالك. ولن تتحمل أيضاً أن يكون لديك عدد كبير من الأطفال – من حيث تدبير ما يلزم لتربيتهم ورعايتهم. كما أن الذين يعيشون في المناطق الحضرية على اتصال بوسائل الإعلام ووسائطه ما يجعلهم يدركون حقيقة أن العدد المحدود من الأطفال يضمن لهم مستقبلاً أفضل – فستكون قادراً على تعليمهم وكسائهم وما إلى ذلك".

وعلى الصعيد الوطني، كان معدل الخصوبة في إثيوبيا ٣,٨ أطفال للفترة ٢٠١٠ - ٢٠١٥. وتقول هايلي ماريام إن معدل الخصوبة انخفض في العاصمة أديس أبابا دون ١,٥. "في عام ٢٠٠٠ انخفض إلى ١,٩ أو نحو ذلك؛ والآن نتوقع له مزيداً من الانخفاض". وتوضح قائلة "إن هذا الانخفاض لا يعزى بالضرورة إلى استعمال وسائل منع الحمل، وإن كان ذلك قد لعب دوره في هذا الخصوص، لكنه يعزى إلى عدد من المسائل المتصلة بالتنمية – من قبيل ارتفاع سن الزواج في أديس أبابا، والتعليم، وتحسن الأوضاع الصحية، وإمكانية الحصول على وسائل منع الحمل".

التشجيع على الزواج المتأخر

أصبحت أمسالو بوكي، التي تقوم بتوزيع مستلزمات تنظيم الأسرة على المجتمعات المحلية الإثيوبية النائية التي يتعذر لها الحصول عليها، أصبحت هي نفسها، رغم صغر سنها، مراقبة حاذقة لأحوال الفتيات في سن المراهقة أو الأصغر

الجدوى الاقتصادية للاستثمار في الشباب

تعتبر فترة المراهقة مرحلة هامة لاكتساب المهارات والصحة وتكوين الشبكات الاجتماعية والتمتع بالخصائص الأخرى التي تشكل رأس المال الاجتماعي المطلوب لتحقيق الإنجاز في الحياة. وحقيقة أن رأس المال الإنساني يتشكل أثناء المراهقة والشباب، وأنه يمثل أيضاً أحد العوامل المحدِّدة الهامة للنمو في الأجل الطويل، إنما تطرح حجة قوية من حجج الاقتصاد الكلي التي تدعم المزيد من الاستثمار في الشباب.

ويمكن للاستثمارات الاجتماعية في تعليم الشباب وصحتهم وتشغيلهم أن تساعد البلدان على بناء قاعدة اقتصادية قوية، ومن ثمَّ يمكن لها أن تحدَّ من انتقال الفقر بين الأجيال. ويمكن لتعزيز قدرات الشباب أن يحقق عائدات أكبر أثناء فترة حياتهم العملية.

ويشكل الشباب أيضاً مورداً هائلاً للنمو في الأجل القصير. ويعد ترك الشباب بلا عمل أمراً مكلفاً بالنسبة للناتج الفعلي... كما أن فقد الدخل بين أجيال الشباب يترجم إلى نقص في المدخرات وإلى خسارة في الطلب الكلي.

– مقتطف مأخوذ من منشور بعنوان مسألة الاستثمار في الشباب بوصفها جزءًا من الاستراتيجية الوطنية للحد من الفقر، صندوق الأمم ا لمتحدة للسكان، ٢٠١٠

أمسالو بوكي ومساعدتها تبدآن رحلتهما الشاقة لإيصال خدمات تنظيم الأسرة إلى المجتمعات النائية في إثيوبيا .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ أنطونيو فيورنته

سناً . وخلال السنوات الأربع التي أمضتها في المركز الصحي في قرية تاري لاحظت أن هناك انخفاضاً في معدلات زواج الأطفال . وتقول بوكي: "كان عادياً أن تتزوج الفتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، أما الآن ، وبفضل جهود الدعوة التي تقوم بها المنظمات النسائية المحلية ، فإن هذه الممارسة تنقرض شيئاً فشيئاً" .

ووفقا لبيانات صندوق الأمم المتحدة للسكان ومكتب المراجع السكانية ، وهو إحدى منظمات البحث المستقلة في الولايات المتحدة ، تعتبر إثيوبيا ، حيث يتزوج نصف الفتيات في سن الثامنة عشرة ، أحد البلدان التي تنخفض فيها معدلات زواج الأطفال ، وهي الممارسة التي تقضي بالفعل على كل فرص الفتاة في التعليم وقد تدمر صحتها أو تنهي حياتها . إلا أن هذه الممارسة لا تزال مشكلة مستعصية في منطقة الأمهرة وبعض الأجزاء الأخرى في إثيوبيا ، ولا تزال تجرد الفتيات والشابات من حقوقهن وفرصهن في التعليم والصحة .

ووفقاً لبيانات مكتب المراجع السكانية في دراسته الاستقصائية لعام ٢٠١١ التي أجراها تحت عنوان من يتحدث باسمي ؟ السبيل إلى القضاء على زواج الأطفال ، فإنه من أصل البلدان العشرة ذات المعدلات الأعلى لزواج الأطفال ، هناك ثمانية منها في أفريقيا على رأسها النيجر حيث يتزوج ثلاثة أرباع الفتيات قبل سن الثامنة عشرة . أما البلدان الآخران خارج المنطقة فهما نيبال ، حيث تتزوج نسبة ٧ من الأطفال في سن العاشرة و ٤٠ في المائة في سن ١٥ ، وبنغلاديش . وهناك ولايات عديدة في الهند تحتل أيضاً مرتبة متقدمة في زواج الأطفال . وفي الهند ، يعكف المركز المعني بالصحة والتعليم والتدريب والتوعية التغذوية ، وهو منظمة غير حكومية مقرها في ولاية غوجارات ، على مكافحة الانتشار الواسع النطاق لفقر الدم بين الفتيات ، الذي يصيبهن بالضعف ويتسبب في ما يقدر عددها بنحو ٦٠٠٠ حالة من الوفيات بين المراهقات الحوامل كل سنة ، معظمهن بسبب الزواج المبكر ، وفقاً لتقرير نشرته مؤخراً

سوابنا ماجومدار من الوكالة الإخبارية الإلكترونية Women's eNews .

ووفقاً لما جاء في الدراسة الاستقصائية لمكتب المراجع السكانية فإن "زواج الأطفال يقوض تقريباً جميع الأهداف الإنمائية للألفية ؛ فهو يشكل عقبة أمام القضاء على الفقر ، وتحقيق هدف تعميم التعليم الابتدائي ، وتعزيز المساواة بين الجنسين ، وتحسين صحة الأم والطفل ، والحد من الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز" . وتضيف الدراسة أنه بالنظر إلى أن الفتيات الصغيرات غالباً ما يتزوجن رجالاً كباراً في السن ممن ربما يكون لهم العديد من الشركاء الجنسيين ، فإن احتمالات إصابتهن بفيروس نقص المناعة البشرية تكون أكبر من الفتيات غير المتزوجات لكنهن ناشطات جنسياً .

وتقول غيل نيلسون ، الخبيرة في شؤون الجنسين في صندوق الأمم المتحدة للسكان إن إرغام الطفل على الزواج لأي سبب من الأسباب يعد انتهاكاً لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة واتفاقية حقوق الطفل . وانعدام المساواة بين الجنسين هو أحد الأسباب الرئيسية الكامنة وراء زواج الأطفال ، "وبدون التصدي لهذه المسألة سيكون من المتعذر القضاء على هذه الممارسة أو غيرها من الممارسات التمييزية الضارة" .

وفي موزامبيق ، فإن ميزان القوى في حالة الزواج المبكر يميل أكثر لصالح الرجل ويؤثر على حق الشابات في تقرير مصيرهن بأنفسهن من حيث حقوقهن الإنجابية وغالباً ما يؤدي الأمر إلى العديد من حالات الحمل المبكر . كما تضعف أكثر قدرة الشابات على اتخاذ القرارات في الأماكن المسموح فيها بتعدد الزوجات وهو ما يجعل واحدة من بين كل أربع نساء موزامبيقيات عرضة لذلك .

تتركز البلدان ذات المعدلات الأعلى من المواليد بين المراهقين في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ومنطقة أمريكا اللاتينية والبحر الكاريبي

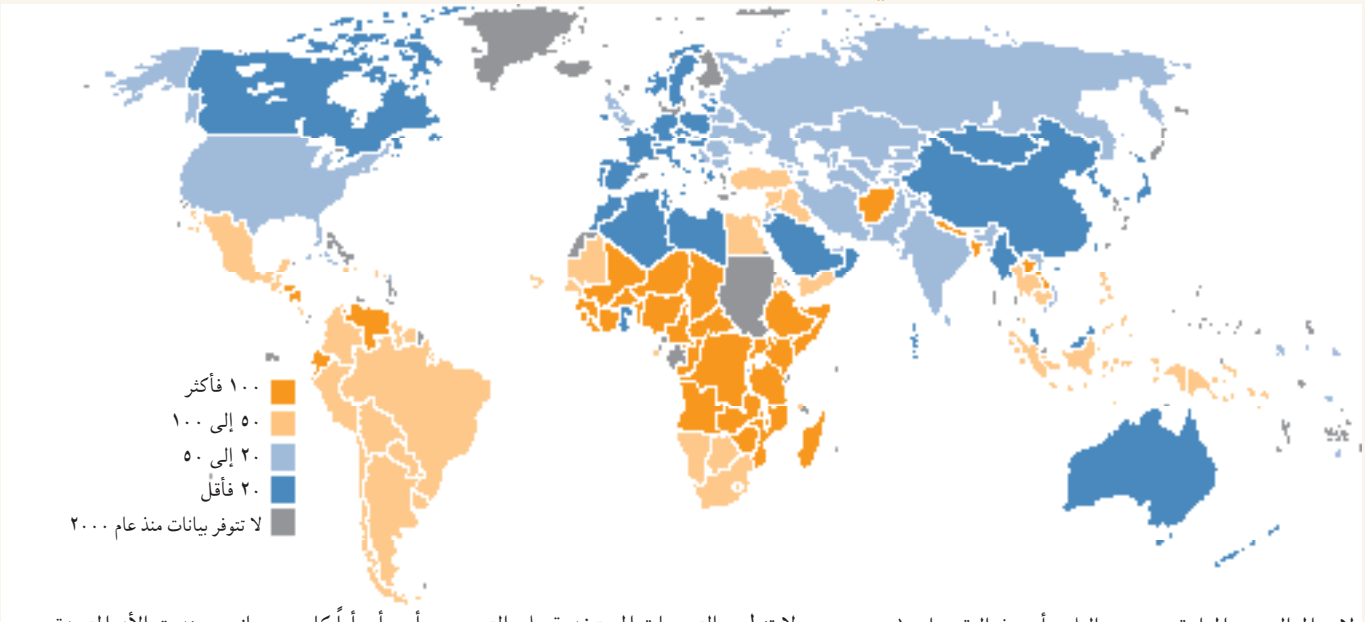

معدلات المواليد بين المراهقين حسب البلد ، أحدث التقديرات (عدد المواليد لكل امرأة بين سن ١٥ و ١٩ سنة)

المصدر : شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة.

لا تنطوي التسميات المستخدمة على التعبير عن أي رأي أياً كان من جانب صندوق الأمم المتحدة للسكان فيما يتعلق بالمركز القانوني لأي بلد ، أو إقليم ، أو مدينة ، أو منطقة ، أو سلطاتها ، أو فيما يتعلق بتعيين حدودها . والخط المتقطع يمثل تقريباً خط المراقبة في جامو وكشمير الذي اتفقت عليه الهند وباكستان . ولم يتفق الطرفان بعد على الوضع النهائي لجامو وكشمير .

ووفقاً لدراسة أجراها المعهد الوطني للإحصاءات في موزامبيق ، فإن أكثر من نصف النساء ما بين سن ٢٠ و ٤٩ سنة تزوجوا قبل سن ١٨ سنة ، وهناك امرأة واحدة تقريباً من بين كل خمس نساء ذكرن أنهن تزوجن قبل سن ١٥ سنة . وفي موزامبيق كما هي الحال في بلدان كثيرة ، يكثر الزواج المبكر خاصة بين الفتيات اللاتي نلن حظاً ضئيلاً من التعليم النظامي أو اللاتي لم يتيسر لهن ذلك التعليم أصلاً .

وقد منعت حكومة موزامبيق بحكم القانون الزواج دون سن السادسة عشرة ، ومنذ عام ٢٠٠٤ حينما بدأ سريان قانون جديد للأسرة ، لا يجوز زواج الأطفال قبل بلوغهم سن الثامنة عشرة بدون موافقة آبائهم ، وهي الموافقة التي يمنحها الآباء غالباً حرصاً منهم على تزويج بناتهم في أسرع وقت ممكن . وعلاوة على ذلك ، فإنه من الصعب إنفاذ القانون ، وخاصة في المناطق النائية . كما أنه لا يمكن ، بالقانون ، منع الفتيات من الدخول في علاقات خارج إطار الزواج . وهناك نحو امرأتين من كل خمس نساء متزوجات أو مرتبطات يقمن علاقات مع رجال أكبر منهن سناً بفارق ١٠ سنوات أو أكثر .

ويبين تقرير صدر عن صندوق الأمم المتحدة للسكان ومجلس السكان في عام ٢٠٠٣ "العواقب الديمغرافية" لزواج الأطفال: وهي قصر أجل الفترات الفاصلة بين الأجيال والنمو السكاني . ويذكر التقرير أن "صغر سن العروس ، الذي يرتبط غالباً بكبر سن الشريك ، يضاعف من شدة الفوارق بين قوة الطرفين . ويعتبر صغر سن العروس دليلاً على انخفاض مستواها التعليمي . ونظراً لافتقارها إلى المعارف والمهارات ، تصبح أكثر اعتماداً على العدد الكبير من الأطفال لتأمين زواجها وكذلك من أجل الحماية الاجتماعية في الأجل البعيد" .

الخدمات المتكاملة من الشباب إلى الشباب

في إثيوبيا ، حيث يبلغ متوسط العمر ١٨,٧ سنة ، ونصف السكان يتراوح عمرهم بين ١٥ و ٢٩ سنة ، يظهر الشباب في كل مكان يساعدون في إدارة مجموعة متنوعة من البرامج الخاصة . وفي أديس أبابا ، هناك ٥٦ نادياً أو مركزاً للشباب و ٥٠ أخرى قيد الإنشاء ، إلى جانب طائفة من البرامج الحكومية التي يدعمها صندوق الأمم المتحدة للسكان واليونيسيف ، ضمن وكالات أخرى . وفي أحد هذه الأندية النشيطة ، راح داويت ييتاغيزو ، الذي يعمل في مكتب أديس أبابا للوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز ومكافحته ، راح يعدد الخدمات التي يمكن أن تقدمها هذه المراكز للشباب ، بما في ذلك خدمات الفحص والإرشاد ، وخدمات الصحة الإنجابية ، وبرامج كسب الرزق والتدريب على الأعمال التجارية ، والمساعدة المتعلقة بالائتمان والادخار ، كما يوجد ــ على الأقل في أحد المراكز الكبرى ــ مكتبة عامرة ، يحتشد فيها الشباب الذين يطالعون في سكون بعيداً عن منازلهم التي تصعب الدراسة فيها .

▼ أمسالو بوكي في زيارة إلى أحد المجتمعات النائية في إثيوبيا .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

وفي نوادي الشباب يغلب وجود الفتيان الذين يفوق عددهم كثيراً عدد الفتيات في الأنشطة التي تضطلع بها المراكز ، ولذلك فقد جرى تصميم برامج لاجتذاب الفتيات ، بما في ذلك برامج لخادمات المنازل اللاتي نادراً ما يتوفر لهن الوقت للحصول على المساعدة أو المشورة بحكم عزلتهن في عملهن في بيوت الآخرين لساعات طويلة . وتعمل مراكز الشباب على اجتذابهن إلى دورات للتدريب على المهارات أو المشاركة في مجموعات النقاش .

ولا يوجد مركز للشباب في المنطقة التي تقوم فيها أمسالو بوكي ، الأخصائية الصحية الإثيوبية ، بجولاتها قرب حي ديبري تسيغي ، الواقع جنوب شرق العاصمة . لكن مظهرها الشاب وطلعتها البشوشة يسهلان عليها الاقتراب من الشابات وطرح أسئلة عليهن تتعلق بصحتهن الإنجابية ، كما أنها تتعامل مع النساء الأكبر سناً الراغبات في الحصول على وسائل منع الحمل ، أو مع أي شخص في حاجة إلى دواء لعلاجه من الاضطراب المعوي أو الإسهال أو الصداع . وتقوم بوكي بتطعيم أهالي القرية ، كما تتابع بدقة على لوحة جدارية أعدتها بنفسها مواعيد كل تطعيم قامت به للوقاية من الالتهاب السحائي أو الكزاز أو الشلل أو السل .

والمركز الصحي في تاري جورجيوس ، حيث مقر عمل أمسالو ، لا توجد به مياه جارية أو كهرباء . ويجري تخزين جرعات التطعيم في براد صغير يدار بمولد كهربائي حصلت عليه من اليونيسيف ويوجد في واحدة من الغرف الثلاث المتهالكة المبنية من الطين والقش والتي تتكون منها العيادة . ولا تسع الغرفة الرئيسية في العيادة إلا لمكتب واحد وبضعة مقاعد . وإلى جوار الغرفة الرئيسية توجد غرفة الولادة التي تتسع بالكاد لطاولة فحص مجهزة لعمليات الولادة وتحتوي على منضدة جانبية صغيرة للأوعية والمعدات الطبية الأساسية . وتجري أمسالو أيضاً عمليات الولادة في المنازل ، وتصل إلى القرى إما سيراً على الأقدام أو على ظهر حصان أو حمار – أو بسيارة عابرة تقوم بتوصيلها .

وأمسالو بوكي هي واحدة من ٣٧ ٠٠٠ من أخصائيي الإرشاد الصحي الذين تم توزيعهم في جميع أنحاء البلد على مدى السنوات القليلة الماضية ، وفقاً لما يقوله فسيها ميكونين ، المدير التنفيذي لرابطة التوجيه الأسري في إثيوبيا ، التي تعمل مع الحكومة من أجل تحسين الصحة وتوسيع فرص الحصول على خدمات تنظيم الأسرة في المناطق الريفية وخدمات التمريض في المدن . وينظر إلى فرق الإرشاد الصحي ، وكثير من أفرادها من الشباب في مقتبل العمر ، كنموذج أساسي للدول النامية الأخرى التي تفتقر إلى التغطية الصحية الشاملة ؛ وهي أيضاً نموذج يعطي للشباب دوراً ونصيباً في البرامج الوطنية التي تهم الجميع بصرف النظر عن السن .

ويقول فسيها إنه في بعض مراكز الصحة الأولية جرى تركيب أجهزة تشغيل اسطوانات الفيديو التي تعمل بالطاقة الشمسية حيث يتم عرض برامج تتناول مختلف قضايا الصحة والتغذية ونوعية الحياة . ويقول فسيها إن هذه الأجهزة يجري تشغيلها في حضور المرضى ، فهي ملك للمجتمع المحلي ويحق لمنظمات المجتمع المدني استعمالها . غير أن المركز الصحي في ديبري تسيغي الذي تعمل فيه أمسالو لم تصل إليه بعد هذه الأجهزة ، وبدلاً من ذلك تضع أمسالو على مكتبها دائماً لوحة تصور إحدى النساء وهي تحقن بإحدى وسائل منع الحمل ، وهي إحدى الوسائل التي يشتد عليها الطلب في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى .

"صغر سن العروس ، الذي يرتبط غالباً بكبر سن الشريك ، يضاعف من شدة الفوارق بين قوة الطرفين" .

وأمسالو حاصلة على شهادة إتمام الدراسة الثانوية فقط ثم حصلت على تدريب لمدة سنة على الرعاية

الصحية الأولية ، بما في ذلك التدريب اللازم لكي تصبح قابلة . وتساعدها في عملها مساعدة شابة تتولى حفظ السجلات ومصاحبتها في جولاتها في القرى . وتحصل أمسالو على مرتب شهري صاف قدره ٥٧٠ برّ إثيوبي (بما يعادل نحو ٣٤ دولاراً) .

ويقول فسيها إن هناك خططاً لرفع مستوى تعليم وتدريب أخصائيي الإرشاد الصحي بحيث يصلون على الأقل إلى المستوى الأكاديمي للمساعدين الطبيين . ويضيف قائلاً: "إننا ، في الوقت نفسه ، نرى أنهم يحققون أفضل أداء بالنسبة إلى مستواهم" . وهم يدركون متى يتطلب الأمر مساعدة على درجة أعلى من الخبرة ، ومن المتوقع حينئذ أن يبعثوا بالمرضى إلى المستشفيات عند ظهور أول بوادر على خطورة المرض . وتعتبر أمسالو ، التي ظلت مسؤولة عن مركزها الصحي لأربع سنوات ، محظوظة بوجود مستشفى لا يبعد عنها سوى أقل من خمسة أميال في أقرب مدينة ، ولكنها مع ذلك تبدو بعيدة جداً بالنظر إلى عدم وجود سيارة إسعاف ، أو حتى سيارة أجرة من أي نوع في حالة حدوث أي طارئ .

وفي موزامبيق اليوم ، فإن نصف السكان تقريباً تبلغ أعمارهم ٢٤ سنة أو أقل .

ولئن كان الشباب يتمتعون بالإمكانات التي تجعلهم قادرين على تحقيق التغيير الإيجابي في أي بلد والإسهام في اقتصادٍ حيوي ، فإنهم في موزامبيق ، في الغالب الأعم ، "من بين أسوأ المضارين" بالأوضاع الاقتصادية والتعليمية والصحية القاسية ، وفقاً لما يقوله سباستياو كونا ، أحد موظفي صندوق الأمم المتحدة للسكان في موزامبيق ، والذي يشرف على برنامج يحمل اسم "الجيل المثابر" (بالبرتغالية Geração Biz) ، وهو برنامج حكومي يهدف إلى التقليل من معدلات الحمل المبكر والوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية وغيره من الأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي بين المراهقين . وتتولى تنفيذ البرنامج ثلاث وزارات ومنظمات وطنية غير حكومية ، بدعم تقني من منظمة "باثفايندر" الدولية وصندوق الأمم المتحدة للسكان ، الذي يقدم أيضاً الدعم المالي مع كل من الدانمرك والنرويج والسويد .

ومن خلال برنامج "الجيل المثابر" تشترك وزارات الصحة ، والتعليم ، والشباب والرياضة في تزويد الشباب بخدمات الصحة الجنسية والإنجابية الملائمة للشباب ، وتقوم بالحملات الإعلامية في المدارس بشأن استخدام وسائل منع الحمل والوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية ، وحملات إعلامية مجتمعية لتثقيف الشباب غير الملتحقين بالمدارس .

واشتدت الحاجة إلى الخدمات الموجهة إلى الشباب في أعقاب الحرب الأهلية في البلد ، حيث تدفق إلى المدن آلاف الشباب العاطلين بحثاً عن فرص لكسب الرزق . ولكن الوظائف كانت قليلة نتيجة لضعف الاقتصاد ، وعجزت الخدمات الاجتماعية عن مواكبة الطلب عليها . وكان من نتائج هذه الموجة من الهجرة من الريف إلى المدينة وجود عدد كبير من الشباب الناشطين جنسياً دون الحصول على قدر يذكر من المعلومات عن الجنس أو الحمل أو مخاطر الإصابة بالأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي .

ويقول جولياو ماتسيني ، المستشار لدى صندوق الأمم المتحدة للسكان في موزامبيق ، إنه من المحظور عادة مناقشة الصحة الجنسية مع المراهقين . ويؤدي

إستر كابيلي ، ممرضة في أموديفا ، مابوتو ، موزامبيق .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/بيدرو سا دا باندييرا

نقص المعلومات حول الصحة الجنسية والإنجابية إلى أوخم النتائج وبخاصة إذا ما تعلق الأمر بفيروس نقص المناعة البشرية" . وهناك نسبة ١١,٥ في المائة من بين السكان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٤٩ سنة مصابون بالفيروس .

ومن خلال شبكة تضم ٥ ٠٠٠ من المستشارين الأقران ، يتقدم برنامج "الجيل المثابر" متجاوزاً حدود المحظور ومحطماً حاجز الصمت من أجل توفير المعلومات والخدمات الموثوق بها والتي لا تقوم على أحكام قيمية إلى شباب موزامبيق .

يولاندا فتاة في الرابعة والعشرين حضرت إلى مكتب مابوتو لرابطة تنظيم الأسرة في موزامبيق (أموديفا) لكي تجري فحصاً أثناء أول حمل لها . وأموديفا هي إحدى المنظمات غير الحكومية التي تقوم بتنفيذ برنامج "الجيل المثابر" وتقدم خدمات مجانية لجميع الأشخاص في سن ٢٤ فأقل . وقد بدأت يولاندا زياراتها إلى أموديفا منذ عدة سنوات للحصول على معلومات عن وسائل منع الحمل والوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية . وتقول يولاندا: "من السهل هنا أن تتحدث عن هذه المواضيع العويصة مثل فيروس نقص المناعة البشرية . حيث الأمر أيسر مما هو في المنزل" .

وتقول إستر كابيلي ، أحد مقدمي الخدمات إلى أموديفا ، إنها تقابل كل شهر ١٢٠ عميلاً جديداً ، معظمهم من النساء ، وأنهم يطلبون تزويدهم بوسائل منع الحمل . وهي تجري على كل منهم فحصاً مجانياً يتعلق بالإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية ، وفي شهر نيسان/أبريل ٢٠١١ فقط ، وجدت أن ستة منهم مصابون بالمرض . وتضيف كابيلي إن الخدمات التي تقدمها أموديفا أكثر شعبية من تلك المتاحة لدى المراكز الصحية التي تديرها الحكومة لأن مكاتبها أقل اكتظاظاً ولديها موظفون تدربوا على العمل مع الشباب كما أن الخدمات تقدم في بيئة آمنة . ولولا الخدمات التي تقدمها أموديفا لواجه كثير من الشباب حالات حمل غير مخطط لها ، أو أصيبوا بفيروس نقص المناعة البشرية وانتهى بهم الأمر إلى التسرب من التعليم مما يعرض مستقبلهم للخطر .

▲ جوسياس شيتيفي ، ناشط في ميدان مكافحة فيروس نقص المناعة البشرية ، ويدرس الفلسفة في جامعة إدواردو موندلين في مابوتو ، موزامبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/بيدرو سا دا باندييرا

وفي مقر كوليزاو ، وهي منظمة غير حكومية أخرى تقوم بتنفيذ برنامج "الجيل المثابر" ، تقوم ماريا فيليشيا ، البالغة من العمر ٢٦ سنة ، بتنسيق المعلومات وبرامج التوعية بشأن الصحة الجنسية والإنجابية ، إضافة إلى برامج تعليم المهارات الحياتية وتوليد الدخل . وتعتقد ماريا أن الكثير من الشابات يصبحن حوامل نتيجة لقلة معلوماتهن عن وسائل منع الحمل أو لضعف قدرتهن على التفاوض مع شركائهن بشأن استعمال الرفالات . "وتكمن الصعوبة في أن جميع المبادرات الجنسية في ثقافة هذا البلد تكون من جانب الرجال . وإذا طلبت المرأة من شريكها أن يستعمل الرفال ، سيراوده الشك في أنها هي مصابة بفيروس نقص المناعة البشرية" .

وفي Núcleo de Mavalane ، وهي إحدى المنظمات الأخرى القائمة على تنفيذ برنامج "الجيل المثابر" ، يقوم جوسياس شيتيف ، وعمره ٢٨ سنة ، بتنفيذ حملات إعلامية "من الباب إلى الباب" بشأن الوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية . ويقول شيتيف إن الشبان الذين يقابلهم "لا يستسيغون الحديث عن الرفالات" ، لكنه ، مع ذلك ، لاحظ

أن جهاز التوزيع الآلي للرفالات المثبت أمام مبنى المنظمة يعاد ملئه بالرفالات صباح كل يوم.

وحسبما يقول فينيوس ماتسيني، وهو أحد موظفي الإرشاد الشبان في مركز بوانا الصحي الذي يقع في منتصف المسافة بين مابوتو والحدود مع سوازيلند، فإن حمل الشبان والشابات على الحديث عن الجنس لا يزال أمراً صعباً على الرغم من وفرة المعلومات والخدمات المتاحة لهم. ويضيف قائلاً إن الفتيان والفتيات يجدون صعوبة في الانفتاح على بعضهم بعضاً. ومع ذلك، فإن تجربة برنامج "الجيل المثابر" تبين أن المواقف وأنماط السلوك يمكن أن تتغير مع حصول الناس على المزيد من المعلومات عن خياراتهم وحقوقهم.

"لا تزال هناك أعداد كبيرة هائلة من الشباب ممن لا تتاح لهم فرص الاستفادة من برامج التثقيف الجنسي".

تعريف الشباب وتمكينهم من خلال التثقيف الجنسي

ملايين البنات والبنين تراودهم الأحلام بالعيش في هناء وسعادة وأمن. ومع ذلك فإن الغالبية الساحقة منهم لا يحصلون إلا على النزر اليسير من المعلومات الموثوق بها عن الجنس أو الحياة الجنسية أو النوع الاجتماعي. والنتائج معروفة جيداً: فبدون الحصول على التثقيف الجنسي الشامل وخدمات الصحة الجنسية والإنجابية الشاملة، سوف يتعرض الشباب، وبخاصة الفتيات، لمشاكل مخيفة فيما يتعلق بالصحة الجنسية والإنجابية، حسبما خلص إليه ٨٠ من الخبراء في مشاورة عالمية بشأن التثقيف الجنسي، أقيمت في بوغوتا، كولومبيا، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠.

وتقول منى قائد بيه، نائبة مديرة الشعبة التقنية في صندوق الأمم المتحدة للسكان والتي تشرف على مبادرات الصندوق الخاصة بالشباب، وكانت أحد منظمي مشاورة بوغوتا، إن التثقيف الجنسي من شأنه أن يساعد على تعزيز الصحة والوقاية من الإصابة بالأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي، بما في ذلك فيروس نقص المناعة البشرية، كما يساعد على تجنب الحمل غير المرغوب فيه بين الشباب، فضلاً عن تعزيز قواعد المساواة بين الجنسين وتمكين الشابات.

وتقول قائد بيه إن برامج التثقيف الجنسي التي تتصدى للقضايا الجنسانية والمسائل المتصلة بعلاقات القوة بين الجنسين تكون أكثر فعالية في الحد من السلوكيات الخطرة، واستشهدت كمثال على ذلك بالبرنامج حاء، وهو مبادرة تقوم بها البرازيل تهدف إلى ثني الشباب عن المواقف والممارسات المتعلقة بعدم المساواة بين الجنسين. وكشف تقييم لهذا البرنامج عن حدوث انخفاض في السلوكيات الخطرة ــ وفي معدلات انتشار الإصابة بالأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي ــ بين الشباب الذين شاركوا في البرنامج.

وتقول قائد بيه إن الحق في التثقيف الجنسي الشامل وعلى أساس غير تمييزي يستند إلى برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية وعدد من الترتيبات الدولية، "ومع ذلك لا تزال هناك أعداد كبيرة هائلة من الشباب ممن لا تتاح لهم فرص الاستفادة من برامج التثقيف الجنسي".

وتقول قائد بيه: "إنها حقيقة واقعة أن معظم الشباب لا يحصلون على المعلومات المناسبة عن الحياة الجنسية، ولا يعرفون كيف يحمون أنفسهم من الأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي، بما في ذلك فيروس نقص المناعة البشرية أو الحمل غير المقصود". وتضيف قائلة إن راسمي السياسات وقادة المجتمعات المحلية غالباً ما يتجنبون تشجيع التثقيف الجنسي لأنهم لا يريدون إثارة الجدل. ويعد ضعف النظم التعليمية إحدى العقبات الأخرى التي تعترض سبيل التثقيف الجنسي. "فالمناهج الدراسية مكتظة، وغالباً ما يكون المدرسون مجهدين بأكثر من طاقتهم، ويعانون من انخفاض الأجر، ومحدودية الأموال المخصصة للتدريب والمواد التعليمية، وقلة الحوافز

لتناول موضوعات جديدة ـ غالباً ما تكون ذات طبيعة حساسة . وفي ظل التخفيضات في الإنفاق على القطاع الاجتماعي ، غدا من الصعب الحصول على الموارد المالية اللازمة لتدريب المعلمين ووضع منهجيات فعالة" .

كما تشكل الاستدامة أحد التحديات . فالتغييرات التي تطرأ على الحكومات يمكن أن تؤثر على سياسات وزارات التعليم . "وفي أحيان كثيرة لا يكون مناخ السياسات داعماً للتوسع في التثقيف الجنسي ؛ وما لم تكن هناك سياسات وطنية معمول بها ، والتزام بتنفيذها على أعلى المستويات ، فسيكون هناك وزراء يؤيدون التثقيف الجنسي ووزراء آخرون لا يؤيدون ذلك" .

وقد أظهرت البحوث أن أثر التثقيف الجنسي يتجاوز الوقاية من السلوكيات عالية الخطورة . وإذا تركز هذا التثقيف على النوع وكان مستنداً إلى الحقوق ، فسيكون من شأنه أن يعزز من رفاهة الشباب عموماً . وتضيف قائد بيه قائلة: "إن لدينا الآن جيلاً جديداً من البرامج التي تبشر بالخير لأنها برامج قائمة على البحث والتقييم اللذين من الواضح أنهما يحققان أثراً إيجابياً" .

وإلى جانب أهمية إدراج التثقيف الجنسي في المناهج الدراسية ، من المهم أيضاً وضع برامج للشباب غير الملتحقين بالمدارس ، بمن فيهم الشابات المتزوجات ، أو المهاجرات ، أو الشباب الذين يعيشون في مناطق النزاعات ، أو في مناطق نائية . ومن الضروري أن تعنى هذه البرامج بالطابع المتنوع والمعقد لحياة هؤلاء الشباب . "وينبغي لبرامج التثقيف الجنسي أن تراعي تنوع الأوضاع والظروف ، وأن تذهب إلى حيثما يكون الشباب" .

الشباب في "مقعد القيادة"

في نيجيريا ، حيث يبلغ متوسط العمر ١٨,٥ ، كما أن أكثر من نصف سكان البلد يبلغ عمرهم ٢٤ سنة أو أقل ، يشارك الشباب بدور متزايد في الحياة السياسية من أجل إسماع صوتهم والتأكيد على وجودهم ليس فقط في برلمان البلد الخاص بالشباب . وتتواصل حملة تسجيل الشباب وأصواتهم التي تقوم بها فوزية عبد الله وزملاؤها استعداداً لانتخابات عام ٢٠١١ كحملة توعية مدنية . وقالت عبد الله إن الانتخابات أظهرت "وجود حاجة إلى التثقيف المدني المكثف وبناء القدرات التي تمكن الشباب من أن يتبوؤا مقعد القيادة نحو مصيرهم" .

وعلى مشارف مدينة الإسماعيلية المصرية ، على شاطئ قناة السويس ، كان هناك فتى في منتصف العقد الثاني من العمر يجسد حماس جيله وما يراوده من آمال في أن يحرز التأثير السياسي المطلوب في أعقاب التغييرات السياسية التي طرأت مؤخراً: "لقد قمنا بهذه الثورة . ولئن كانت أسرنا قد اعتادت الصمت ، فإننا لم نسكت . لقد انتفضنا كي نحقق الحلم" . وكان الفتى قد انضم إلى مجموعة من الشباب الناشط سياسياً ممن كانوا في العقد الثاني أو الثالث

من اليسار إلى اليمين: شروق ، ومنى ، وحسن في طريقهم إلى حفل موسيقي بالقاهرة.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ماثيو كاسل

من عمرهم وكانت لديهم خطط لنشر الوعي بالقضايا والأولويات التي تشغل الشباب .

وكانت هذه المجموعة تحظى برعاية الحكومة وصندوق الأمم المتحدة للسكان من خلال شراكة مع شبكة أقران الشباب ، وهي شبكة من منظمات الشباب الرامية إلى تعزيز أساليب الحياة السليمة للشباب ، وهي واحدة من العديد من الشبكات المماثلة في بلدان عربية أخرى ، وفي شرقي أوروبا ، وآسيا الوسطى ، وشرق أفريقيا . وفي الإسماعيلية تتيح هذه الشبكة للشباب فرصة نادرة للتعلم والتكلم صراحة حول الصحة الإنجابية وتبادل الآراء حول ذاتهم . وتقول هبة محمد أحمد: "الكثير من الشباب الآن يريد أن يعرف عن السياسة أكثر مما يعرف عن الصحة ، لكن عليهم أيضاً أن يظلوا مهتمين بأمور الصحة باعتبارها جزءًا من الأمن الإنساني وحقوق الإنسان ـ وأيضاً بحق المرأة في المشاركة في المناقشات الدستورية" .

وعلى الرغم من أن الحضور الكبير للشباب في المظاهرات التي عمت البلدان العربية حظي بكثير من اهتمام وسائط الإعلام في عام ٢٠١١ ، فإن سلطة الشباب الذين لا تُركِّز عليهم الأضواء ، والذين يستخدمون قوتهم العددية ويطرحون رؤيتهم للمجتمعات التي يودون قيامها ، قد تؤدي في المدى الطويل إلى إحداث تغييرات أكثر جذرية على نطاق العالم .

وحينما أقدم بائع جوال من تونس عمره ٢٦ عاماً على إضرام النار في نفسه تعبيراً عن اليأس والإحباط ، فقد قام بذلك أيضاً بإشعال فتيل الاحتجاجات التي هزت المنطقة العربية بأسرها . لقد كانت مشاركة الشباب في "الربيع العربي" غير مسبوقة . وعن طريق الاستعانة بمواقع التواصل الاجتماعي مثل فيس بوك وتويتر ، انطلقت احتجاجات الشباب عبر أرجاء المنطقة ضد انتهاكات حقوق الإنسان ، والبطالة ، والوضع القائم . ومن تونس إلى مصر نقل الشباب أصواتهم إلى كل العالم . وتعلق منى قائد بيه ، نائبة مدير الشعبة التقنية بصندوق الأمم المتحدة للسكان ، بقولها: "إن الشباب في الدول العربية يتمتعون بحس فائق بالمسؤولية ، ولذلك فقد أحيوا فكرة عالمية حقوق الإنسان" .

ويشكل الشباب في الدول العربية قرابة ثلث سكان المنطقة ، وعلى الرغم من ذلك فكثيراً ما يستبعدون من عملية اتخاذ القرارات بسبب الافتقار إلى التعليم وارتفاع معدلات البطالة والفقر . وحينما هبَّ الشباب إلى الشوارع وانهار النظامين السياسيين في تونس ومصر ، تعين على الكثير من الحكومات والتنظيمات أن تعيد ترتيب تعاملها مع الشباب .

وقد أصبحت شبكة تثقيف شباب الأقران (Y-PEER) ، التي يدعمها صندوق الأمم المتحدة للسكان ، والتي تعمل في المنطقة منذ بضع سنوات ، أصبحت وسيلة أكثر أهمية للربط بين الشباب

متوسط العمر بالنسبة إلى مجموع السكان (سنوات)

البلد — العالم

١ لأغراض إحصائية ، لا تشمل بيانات الصين منطقتي هونغ كونغ وماكاو ، وهما منطقتان إداريتان خاصتان في الصين .
٢ بما فيها جزر آلاند .
٣ جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة .
المصدر: الأمم المتحدة ، إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، شعبة السكان ، التوقعات السكانية في العالم: تنقيح ٢٠١٠ .

وتوعيتهم بتحديات الصحة الإنجابية ، وبخاصة في أوقات الأزمات . وعلى سبيل المثال ، فقد تمكن صندوق الأمم المتحدة للسكان من خلال شبكته الخاصة بتثقيف الشباب في ليبيا من إجراء استطلاع في ذروة النزاع من أجل التعرف على الاحتياجات والتطلعات الناشئة للشباب . وقد قام قادة الشباب بجمع الردود عن طريق استبيان جرى توزيعه على مجموعات الشباب .

ويصر الكثيرون من الشباب في الشبكة على أنه لا ينبغي النظر إليهم باعتبارهم ضحايا للمشاكل التي تواجه مجتمعاتهم المحلية . "إننا ينبغي أن نعمل مع الشباب ليس لأنهم مهمَّشون ، ولكن لأنهم يشكلون العناصر الفاعلة الحقيقية في مجتمعنا" ، حسبما يوضح أحمد عبد الله ، أحد أعضاء شبكة تثقيف شباب الأقران في مصر .

ومع تغير نظم القيم التقليدية في الدول العربية ، تتغير أيضاً طبيعة التحديات التي تواجه الشباب . فمشاعر التوتر بين الحداثة والدين لا تزال قائمة ، في الوقت الذي أصبحت فيه قضايا الصحة الإنجابية شاغلاً حقيقياً . وفي تونس ، على سبيل المثال ، كانت هناك زيادة ملحوظة خلال السنوات الأخيرة في معدلات المواليد خارج نطاق الزواج . ويقول حافظ شقير ، مدير مكتب صندوق الأمم المتحدة للسكان الإقليمي للدول العربية "إن المشاركة المدنية يجب أن تكون في صلب عملنا ، ولا يمكننا الاستمرار في تجاهل احتياجات الشباب" .

وكانت المشاركة السياسية والتأثير على راسمي السياسات على نطاق يضارع الأعداد المتزايدة للشباب من الأمور التي طرحت نفسها على الشباب عالمياً حسبما يتبين من المطالب التي قدمها الشبان والشابات المشاركون في الأنشطة التي نظمت على هامش مؤتمر عالمي للشباب عقد في غواناخواتو ، بالمكسيك ، في آب/أغسطس ٢٠١٠ ، في بداية الاحتفال بسنة دولية للشباب أعلنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وسيطر شباب المكسيك ، وهو البلد المصنف دخله ما بين العالي والمتوسط ، وهو عضو في مجموعة العشرين ، وفي منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي ، سيطروا على المناسبات التي أقيمت على هامش المؤتمر ، واجتذبوا رواداً فاق عددهم ٢٢ ٠٠٠ شخص على مدى بضعة أيام . وقام دييغو بالاثيوس ، ممثل صندوق الأمم المتحدة للسكان في المكسيك ، وإيفان كاستيانوس ، منسق المشاريع بشأن قضايا الشباب ، وزملاؤهما في الصندوق ، بتوفير مساحة للشباب في إطار منتدى تفاعلي عالمي يحمل اسم "المكعب" The Cube ، الذي وجه الدعوة إلى الشباب للتعبير عن أنفسهم من خلال الرسائل والرسوم الجدارية وغيرها من الأنشطة الموجهة إلى الشباب لغرض التعلم وتقاسم الآراء والمعلومات .

وأصدر الوزراء وغيرهم من المسؤولين الحكوميين في المنتدى الحكومي العالمي الذي شكل جزءًا من ذلك المؤتمر إعلاناً رسمياً دعا إلى زيادة مشاركة الشباب في المبادرات الإنمائية ، وتوفير المزيد من فرص الحصول على الوظائف ، والتعليم وخدمات الصحة الإنجابية لهم ، وإلى المساواة في الحقوق بين النساء والرجال .

▲ شاب يبيع العرقسوس في ميدان التحرير بالقاهرة.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ماثيو كاسل

أهميـة التثقيف الجنسي للمراهقين: تجـربـة فنلنـدا

دان آبتر هو كبير الأطباء ومدير عيادة الصحة الجنسية في منظمة اتحاد الأسرة في فنلندا (فيستوليتو) ، كبرى المنظمات غير الحكومية في القطاع الاجتماعي والصحي . يقول آبتر إنه دائماً يبدأ محاضراته عن حالة الصحة الإنجابية في بلده "بالتحدث قليلاً عن التاريخ" . ففي نهاية الحرب العالمية الثانية كانت فنلندا "مجرد بلد صغير يعاني من ويلات الحرب ، وكانت وسائل منع الحمل تستخدم على أدنى مستوى ، كما كانت الأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي شائعة ، ويلقى النساء حتفهن أثناء عمليات الإجهاض" .

ويواصل آبتر قائلاً: "إن ما حوَّل فنلندا بعد ذلك التاريخ بستة عقود إلى نموذج يحتذى به في مجال الصحة الإنجابية والتثقيف الجنسي هو اتخاذ القرارات السياسية المستنيرة ، وإدماج الصحة الإنجابية في التعليم العام ، والتركيز في الخدمات الصحية على الصحة الجنسية" . وكان لمنظمة فيستوليتو دور في هذه التطورات .

ويتابع آبتر قائلاً: "لقد أصبحت التربية الجنسية مادة إجبارية في المدارس في عام ١٩٧٠ . ومنذ عام ١٩٧٠ أيضاً كان لدينا قانون للإجهاض يتيح الإجهاض آنذاك لأسباب اجتماعية أو لأي أسباب لا تريد المرأة إبداءها ، ويجعل الإرشاد بشأن وسائل منع الحمل جزءًا إلزامياً من ممارسة الإجهاض" .

وبعد التغييرات التي أدخلت على قوانين الصحة العامة في عام ١٩٧٢ ، كلفت البلديات بتقديم الخدمات الإرشادية المجانية بشأن وسائل منع الحمل ، ودخلت عمليات الإجهاض والولادة في مرحلة طويلة من انخفاض معدلاتها . "وفي منتصف التسعينات من القرن الماضي ، كانت معدلات الإجهاض في فنلندا ، من منظور دولي ، متدنية للغاية ــ نحو ١٠ عمليات بالنسبة لكل ١٠٠٠ حمل ، للفتيات ما بين سن ١٥ و ١٩ سنة . ويمكن اعتبار أن ذلك كان نتيجة للخدمات المقدمة وأيضاً للتثقيف الجنسي" .

بيد أنه كانت هناك بعض التراجعات في منتصف التسعينات من القرن الماضي حينما طبقت اللامركزية على الرعاية الصحية (وكانت بعض البلديات أصغر حجماً من أن توفر طائفة مثالية من الخدمات) ، وأدت التخفيضات التي أجريت على الميزانيات الصحية بسبب الركود الاقتصادي إلى اتخاذ قرار بجعل التربية الصحية مادة اختيارية في المدارس . وبدأت الدراسات التي أجريت بحلول نهاية التسعينات تؤكد أن النتيجة تمثلت في "حدوث تدهور واضح في التربية الجنسية في المدارس ، من ناحية الكم والنوع على السواء" ، وفقاً لما يقوله آبتر . وكان ذلك درساً قاسياً .

ويمضي آبتر قائلاً: "وشهدنا زيادة في عدد حالات الإجهاض بنحو ٥٠ في المائة . وشهدنا زيادة في عدد الأشخاص الذين بدأوا ممارسة الاتصال الجنسي في سن مبكر للغاية ــ ١٤ أو ١٥ سنة . وحدث انخفاض في معدلات استخدام وسائل منع الحمل" . ولوحظ تزايد أعداد الإصابة بالأمراض المنقولة عن طريق الاتصال الجنسي ، وخاصة الكلاميديا . "وحينئذ كان لابد من القيام بعمل مرة أخرى في مواجهة ذلك . حتى السياسيون الفنلنديون أنفسهم أيقنوا أن نوعية التربية الجنسية التي كانت تقدم في المدارس كانت بالفعل رديئة للغاية" .

وبحلول عام ٢٠٠٦ ، تم إعداد مقرر دراسي وطني في التربية الصحية والجنسية ، مع التأكيد على الحياة الصحية عموماً ، وأصبح تدريسه إلزامياً . ويبدأ تدريس المقرر في الصف السابع ، ويتولى تدريسه تربويون متخصصون أو مدرسون تلقوا تدريباً لإضافة هذا المقرر إلى واجباتهم العادية .

ويتابع آبتر قائلاً إن هذا المقرر تعقد له امتحانات شأنه في ذلك شأن المواد الأخرى في المدرسة . ويستمر تدريس المادة في المدارس الثانوية ويكون النجاح فيها شرطاً للتخرج . وسرعان ما انعكس اتجاه الإحصاءات المقلقة التي وردت خلال مرحلة التسعينات . وطرأ انخفاض على عدد الشباب الذي يبدأون ممارسة الاتصال الجنسي في سن مبكرة . وزادت معدلات استعمال وسائل منع الحمل ، وحدث انخفاض هائل في عدد حالات الإجهاض والولادة بين المراهقات .

ويقول آبتر إنه إضافة إلى التثقيف الجنسي تم إدخال خدمات الصحة الإنجابية للمراهقين . "ويمكن للممرضات في المدارس تقديم وسائل منع الحمل خلال الشهور الثلاثة الأولى" . ويضيف قائلاً إنه من المتوقع من عيادات الصحة العامة أن تكون ملائمة للشباب . وحيث إن قانون عام ١٩٧٠ جعل القرار الخاص بالإجهاض حقاً مقصوراً على المرأة ، فإنه حتى إذا أرادت فتاة صغيرة السن جداً إجراء عملية إجهاض ، فمن المستحسن أن تشرك والديها في القرار ، لكن القرار النهائي يعود إليها . وهناك الآن عدد ضئيل للغاية من الفتيات دون سن ١٥ سنة لهن مواليد في فنلندا . ومن بين بلدان الشمال الأوروبي ، تسجل فنلندا أقل عدد من حالات الحمل بين المراهقين .

ويقول آبتر إنه حينما تكون هناك اعتراضات من جانب الوالدين ، وبخاصة من جانب بعض المهاجرين الجدد من ذوي الآراء المخالفة بالنسبة للسلوك الجنسي والتربية الجنسية ، لا يكون بمقدورهم سحب الأطفال من تلك الفصول الدراسية ، رغم أنه في بعض المدارس التي تثار فيها قضايا ثقافية ، يمكن الفصل بين البنات والبنين . "ولكن التربية الجنسية هي أساساً مادة إجبارية" . ومن أصل نحو ١١٤ ساعة مكرسة لدروس الصحة حتى الصف التاسع ، يتلقى التلاميذ ٢٠ ساعة من التربية الجنسية . ويضيف آبتر قائلاً "إنه لما كانت التربية الجنسية تقدم في سن مبكرة ، فإنه لا داعي للتجريب" .

وذكرت الوفود في هذا البيان إنه ينبغي للحكومات في كل مكان "أن تعمل على تعزيز التحاق الشباب بالمؤسسات التعليمية والاحتفاظ بهم ... مع إيلاء اهتمام خاص للنساء والشباب الذين يعيشون في ظروف من الفقر والضعف ..." ، وعلى "تحسين جودة المناهج التعليمية وملاءمتها ... وتوجيه [البرامج التعليمية] نحو التنمية الشاملة للشباب ، بما يشمل التعليم المتعدد الثقافات ، والتربية المدنية والتثقيف في مجال السلام ، والتضامن ، والتثقيف في مجال حقوق الإنسان ، والتثقيف من أجل التنمية المستدامة ، والتثقيف الشامل في مجال النشاط الجنسي البشري ، وتعزيز المساواة بين الجنسين ، وتمكين المرأة" .

وذكروا أنه ينبغي للحكومات أيضاً "وضع سياسات عامة تضمن حصول الشباب على الرعاية الصحية دون أي تمييز ، وزيادة جودة وتغطية النظم الصحية وخدمات الرعاية الصحية ، بما فيها خدمات الصحة الجنسية والإنجابية" واتخاذ إجراءات من أجل وقف وعكس مسار انتشار فيروس نقص المناعة البشرية وغيره من الأمراض بين الشباب .

وعلى نحو مستقل عن اجتماع المنتدى الحكومي العالمي ، التقت مجموعة من الشباب تضم أكثر من ٢٠٠ منهم وينتمون إلى ١٥٣ بلداً ، حيث شاركوا في اجتماع للمنظمات غير الحكومية وأصدروا وثيقتهم الخاصة بهم بصورة مستقلة عن سير الأعمال الرسمي للمنتدى . ودعوا في بيانهم إلى إفساح حيز أكبر للشباب في أمور السياسة والمشاركة المدنية عموماً ، وإلى إعطائهم دوراً أكبر في تطوير التكنولوجيات الخضراء والتخفيف من آثار تغير المناخ . وجاء في البيان إنه "من أجل جيلنا ، فإن اتخاذ إجراءات فعالة لمعالجة تغير المناخ هي مسألة حياة أو موت" .

وطالب هؤلاء الشباب أيضاً بأن تقوم الحكومات "بوضع استراتيجيات وتنفيذ إجراءات لمناهضة جميع مظاهر الممارسات الثقافية التي تنتهك حقوق الإنسان الأساسية للأفراد والجماعات ، بصرف النظر عن خلفياتهم الاجتماعية والثقافية أو موقعهم الاقتصادي ، أو هوياتهم الجنسانية ، أو توجههم الجنسي ، أو قدراتهم ، أو دياناتهم ، أو خلفياتهم الجغرافية" .

وعلى الرغم من تباين الآراء التي أبديت بصورة رسمية وغير رسمية ، هناك أمر واحد يظل جلياً أمام الجميع ، ألا وهو: إن جيل شباب اليوم مهيأ لتغيير العالم بصورة جذرية . وسيكون لصالح الحكومات أن تعزز إمكاناتهم وتستغلها بدلاً من ضياع الفرص التي يمثلونها من أجل التنمية .

الشبـاب

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

إن عدداً كبيراً من البلدان النامية لا يزال لديه نسب عالية من الأطفال والشباب بين السكان . ... وينبغي أن تتوخى البلدان تلبية احتياجات وتطلعات الشباب ، لاسيما في مجالات التعليم النظامي وغير النظامي ، والتدريب ، وفرص العمل ، والإسكان والصحة ، مما يضمن إدماجهم ومشاركتهم في جميع مجالات المجتمع ، بما في ذلك المشاركة في العملية السياسية والإعداد لأدوار القيادة . ... وينبغي إشراك الشباب بنشاط في تخطيط أنشطة التنمية التي لها أثر مباشر على حياتهم اليومية وتنفيذها وتقييمها .

ليو روميرو يعتزم دراسة فن الطهي في المكسيك.

© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو راميريز آريولا

الفصل الثالث

الأمن والقوة الاقتصادية والاستقلال في مرحلة الشيخوخة

كل صورة من صور الشيخوخة في عالم السبعة بلايين نسمة هي صورة متلونة ، تعكس شتى الضرورات الثقافية ، والعوامل الاجتماعية ومستويات التنمية والموارد المتاحة التي تحدد كيان أي بلد أو مجتمع . ففي صباح يوم من أيام فصل الربيع في شيان في إقليم شانشي بالصين ، كانت الموسيقى تغمر الأسماع في مجمع سكني ضخم للطبقة الوسطى ، أنشئ في إطار شراكة بين القطاع الخاص والإدارة المحلية على مستوى المحافظة ،

وكرِّس لجعل حياة مسنِّيه ممتعة وصحية . وداخل مركز العجزة ، جوقة تتمرن على قطع موسيقية مصحوبة بعزف على الأكورديون يؤديه أحد القاطنين . وفي الهواء الطلق في ساحة فسيحة بمنأى عن صخب الشوارع المزدحمة ، تجري تمارين رياضية صباحية ـ في شكل حركات تاي تشي وقليل من الرقص الحديث والحركات الرياضية ـ على إيقاعات موسيقية تقليدية يصدرها جهاز أقراص مدمجة (سي دي) . ويعتبر مسؤولو صندوق الأمم المتحدة للسكان في الصين شانشي إقليماً متقدماً على العديد من المحافظات الأخرى في ما يقوم به لفائدة السكان المسنين .

وفي أماكن أخرى من الصين ، على الجانب الآخر من الفجوة الاجتماعية والهوة القائمة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية ، حيث يصعب العيش ، لا تزال المسنات يعملن ساعات طوالاً في الحقول والمزارع ، مما يعكس فجوات واسعة في الدخل توجد في بعض المقاطعات الأسرع نمواً .

وفي العديد من البلدات الزراعية الصينية قد تكون ثمة بيوت جديدة شيدت بإيرادات أفراد الأسر الذين هاجروا إلى مدن بعيدة بحثاً عن عمل ، لكن هذه البيوت غالباً ما تكون مقفرة ، وهذه سمة شائعة تميز القرى التي شهدت هجرة للشباب بأعداد كبيرة أدت إلى تقسيم الأسر التقليدية المختلطة الأجيال ، وخلفت وراءها "أعشاشاً فارغة" . ويشغل أجداد آخرون أنفسهم بتربية الأحفاد الذين تركهم في البيت أفراد الأسر العاملة المهاجرة .

وفي الشق الآخر من العالم ، أي في فنلندا ، قام موظفو مركز للمسنين من أحدث طراز بإخلاء ساحة لتنظيم حفل راقص تقوم فيه فرقة موسيقية بعزف مقطوعات فنلندية مفضلة لمن يحنون إلى أيام شبابهم . وفي جميع أرجاء المركز ، تحفل الأيام بأنشطة لولاها لكانت أياماً موحشة . وتنعش الوجبات الغذائية الأبدان والأرواح .

وفي إثيوبيا ، تحتفل بضع مسنات باليوم الدولي للمرأة في ملجأ صغير في أديس أبابا تنفرد بإدارته محسنة متعاطفة ، هي ساسو نينا تيسفاماريام ، التي تقدم لهن طعاماً بسيطاً وتسدي إليهن المشورة وتوفر لهن الصحبة .

▶ زوجان مسنان يتجولان قرب سور مدينة شيان العتيقة ، الصين.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

▲ سارة توبيلسون، نائبة وزير مكلفة بالتنمية الحضرية والإقليمية في وزارة التنمية الاجتماعية
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو رامبريز آريولا

وفي المناطق الريفية من المكسيك، حيث لم يعد بإمكان المسنين، على غرار العديد من الأماكن، أن يعوِّلوا دائماً على بيت للأسرة يوفر لهم الطمأنينة، في السنوات الأخيرة من حياتهم، وضعت الحكومة نظاماً تدفع بمقتضاه للمسنين الذين تجاوزت أعمارهم ٧٠ عاماً بدل معيشة زهيد حتى يساهموا في دخل الأسرة ويخففوا من حدة التوترات بين الأجيال. وتقول سارة توبيلسون فريدمان، نائبة وزير التنمية الاجتماعية، "إنه لأمر جيد جداً بالنسبة للمسنين في المناطق الريفية، لأننا نعرف جميعاً أن الأبناء بدأوا يعتبرون آباءهم الذين هم في السبعينات من أعمارهم عبئاً على كاهلهم. وبما أنهم يستلمون شيكاً كل شهرين، فإنهم ليسوا عالة على غيرهم– إذ لديهم على الأقل مال للحصول على الغذاء. مما يسهل الأمر".

عـالـم يشيب

لكل بلد – غنياً كان أم فقيراً، صناعياً كان أم نامياً– ساكنة تشيخ بدرجة أو بأخرى. ومع بلوغ شباب اليوم أواسط أعمارهم، سينمو عدد السكان الشيوخ بسرعة تفوق أية شريحة أخرى من سكان العالم حتى عام ٢٠٥٠ على الأقل، وذلك استناداً إلى تقرير لعام ٢٠٠٩ أصدرته شعبة السكان في إدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية تحت عنوان شيخوخة سكان العام ١٩٥٠ – ٢٠٥٠. وهذا ما سُلِّم فعلاً بكونه تحدياً سياسياً كبيراً في البلدان التي يطول فيها العمر المتوقع وتتقلص نسبة السكان الشباب. وفي البلدان المتوسطة والمنخفضة الدخل، تتزايد باضطراد نسبة السكان الذين تتجاوز أعمارهم ستين سنة وسبعين سنة، بل وحتى ثمانين سنة في بعض الحالات. وعلى مدى ستة عقود، يتبين من التغيرات التي تشهدها الصور الديمغرافية الوطنية أنه إذا كان متوسط العمر المتوقع عند الولادة قد زاد زيادة بلغت ١١ سنة في البلدان الأكثر نمواً في الفترة الفاصلة بين عامي ١٩٥٠ و ٢٠١٠، فإن هذه الزيادة أكبر بكثير في المناطق الأقل نمواً حيث زاد متوسط العمر المتوقع زيادة بلغت ٢٦ سنة في نفس الفترة. ففي أقل البلدان نمواً، بلغت الزيادة ١٩,٥ سنة. ومما لا شك فيه أن البلدان الأكثر نمواً قد انطلقت من متوسط مرتفع للعمر المتوقع يضيق مجال نموه. ولكن هذا لا ينقص من المكاسب الهائلة المحققة في العالم النامي، حيث يستفيد المزيد من الناس من التقدم الطبي الذي ينقذ الأرواح ويطيل الأعمار، لاسيما لدى الرضع والأطفال.

وتختلف الدول اختلافاً كبيراً في كيفية التخطيط لشيخوخة السكان وللخدمات التي يمكن أن تتيحها لهم الحكومات. وبصورة متزايدة، يطلب من المنظمات غير الحكومية والمجتمعات المحلية والمحسنين والقطاع الخاص إكمال الجهود التي تبذلها الحكومة في مجال رعاية المسنين، وذلك بتوفير احتياجاتهم، ليس فقط المادية الأساسية منها بل واحتياجاتهم العاطفية والنفسية والاجتماعية وحتى التكنولوجية منها. وفي عصر يشهد زيادة في التنقل والهجرة بفعل تفكك الأسر، يطلب الأجداد تعليمهم كيفية استخدام البريد الإلكتروني، ومواقع التواصل الاجتماعي ووصلات الفيديو أو "سكايب"، باعتبارها صلاتهم الشخصية الوحيدة بأحفادهم. وكثيراً ما تملأ الجهات الفاعلة غير الحكومية الفراغ في الخدمات العامة أو تضيف برامج جديدة لجعل الحياة أكثر إثارة للاهتمام ومجزية بقدر أكبر. ويجري أيضاً قدر كبير من البحوث المتعلقة بالشيخوخة من قبل وكالات غير حكومية أو حكومية دولية تعمل مع الحكومات الوطنية والجماعات المحلية.

ففي إثيوبيا ، يضطلع تيلاهون أبيبي ، البالغ من العمر ٧٥ سنة ، بمهمة بحثية مستعيناً بنتائج دراسة استقصائية للمسنين أجرتها في عام ٢٠١٠ في العاصمة أديس أبابا ، منظمة الرابطة الدولية لمساعدة المسنين ، والمنظمة الدولية للهجرة ومكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية . وخلصت الدراسة الاستقصائية إلى أن ثمة مسنون مشردون وجياع في بلد كان فيه احترام المسنين وتوفير الرعاية لهم تقليداً مرعياً منذ قرون .

وتضم إثيوبيا ، التي تعاني من الفقر ومن المجاعة من حين لآخر ، فئة سكانية صغيرة نسبياً لكنها آخذة في التزايد ، من السكان الذين يبلغون من العمر ٦٠ سنة أو أكثر ، وتمثل هذه الفئة نسبة ٥,٢ في المائة من مجموع السكان البالغ ٨٢,٩ مليون نسمة . ويكاد لا يتعدى متوسط العمر المتوقع عند الولادة ٥٧ سنة . ويقول تيلاهون ، إنه على ضوء هذا الواقع ، غالباً ما يتم تجاهل احتياجات السكان المسنين . وبصفته موظفاً حكومياً متقاعداً في قطاع الصحة ، فإنه في الوقت الراهن نائب رئيس الجمعية الوطنية للمسنين والمتقاعدين ، ويريد أن يجعل من هذه الجمعية جماعة ضغط تدعم المسنين . وقد أدرج في قائمة مطالبه توفير شبكة للأمان المالي في سن الشيخوخة .

وقال إنه "لا يحصل على معاش تقاعدي إلا الموظفون الحكوميون ، والجيش والشرطة والعاملون في قطاع الوظيفة العمومية . ولا وجود للضمان الاجتماعي" . وقال تيلاهون الذي عمل في إطار مشروع أمريكي لمكافحة الملاريا وحصل على شهادة الدراسات العليا في الصحة الوقائية في الولايات المتحدة ثم عاد إلى إثيوبيا حيث أصبح إدارياً في وزارة الصحة ، إن ثمة حاجة أخرى تتمثل في توفير بيوت للمسنين الذين ليس لهم مكان يأوون إليه ، ويحتاجون إلى عناية خاصة .

وقال إنها ليست مجرد مسألة زيادة في عدد دور العجزة ، بل إنها أيضاً مسألة إعادة النظر في الكيفية التي تعمل بها الدور القائمة لضمان اشتغالها بكامل طاقتها وتوفيرها لخدمات أفضل .

وللحملة التي يقودها تيلاهون باسم الجمعية الوطنية للمسنين مقر في العاصمة وفرعان إقليميان ؛ ويجري التخطيط لفتح ثمانية فروع أخرى ، أو لعل هذا هو ما يصبو إليه . وقال إن "علينا أن ندعو لتجديد التفكير وتحسينه" . ويقترح إنشاء المزيد من المراكز الصغيرة في كل أنحاء البلد ، حيث يتأتى للقاطنين فيها والزوار تلقي الرعاية والتدريب على المهن المدرة للدخل ، أو مزاولة أنشطة أخرى لتعزيز صحتهم النفسية .

وخلصت الدراسة الاستقصائية التي يشير إليها تيلاهون والتي أجريت لفائدة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية على الصعيدين الوطني والمحلي بمساعدة من أربع منظمات غير حكومية إثيوبية ، إلى أن ٨٨ في المائة من المسنين العديمي المأوى و ٦٦ في المائة من أولئك الذين يعيشون في العاصمة ليس لديهم ما يكفي من المأكل . ويفتقر ثلاثة وتسعون في المائة من مجموع المسنين إلى

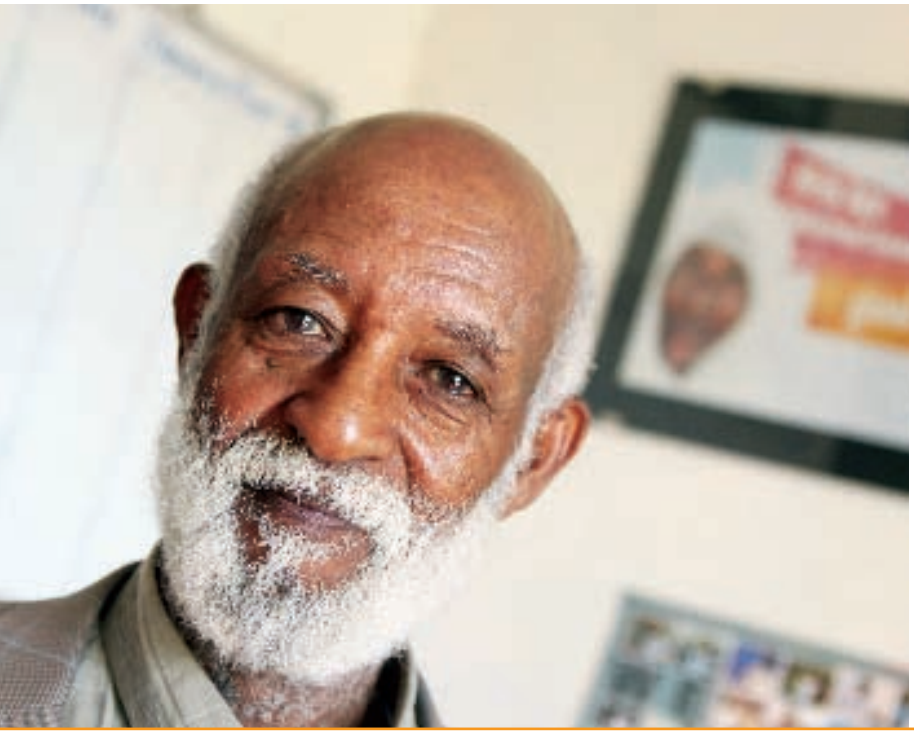

▼ تيلاهون أبيبي ، نائب رئيس الجمعية الوطنية للمسنين والمتقاعدين في إثيوبيا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

▲ مسنون يمارسون فنون الحرب الصينية في مجتمع شيان المحلي الحديث بالصين.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

أماكن الاستحمام ، ويعاني ٧٨ في المائة منهم من مشاكل صحية مزمنة ، وقال ٥١ في المائة منهم إنهم يفتقرون إلى دعم أسري .

جيانغ شيانغكون عالم من علماء الشيخوخة وأستاذ الشؤون السكانية بجامعة رنمين في بيجين . ولقد تبين له ولزملائه أن ٩٨ في المائة من المسنين في الصين يمكثون في بيوتهم ، أو يسعون إلى ذلك . والعديد منهم ـ بنسبة قد تصل إلى ٧٠ في المائة منهم في بيجين ؛ أو تقل عن ذلك بكثير في المناطق الريفية ـ يمكثون في تلك "الأعشاش الفارغة" بعد رحيل أولادهم للعمل أو لإنشاء أسر في بيوت تتألف من جيل واحد . ويقول الديموغرافيون الصينيون إن سياسة الحكومة هي استبقاء الناس في بيوتهم في سن الشيخوخة لأن تلك هي رغبتهم ، وهذا ما سيخفض أيضاً تكاليف بناء أماكن إيواء جديدة وتوفير خدمات إضافية .

وفي ورقة مناقشة أكاديمية حديثة تحت عنوان استعراض وتحليل لشيخوخة السكان وحالة المسنين في الصين ، كتبها الأستاذ جيانغ مع يانغ كينغفانغ ، الذي يحاضر في كلية الدراسات المستمرة في الجامعة ، شدد على فكرة مفادها أن الصين تشيخ في الوقت الراهن قبل أن تغتني ، خلافاً للبلدان العالية النمو التي أتيحت فيها موارد وفيرة ووقت أطول لتلبية احتياجات الانتقال إلى مرحلة شيخوخة السكان . وقال جيانغ إنه عندما دخلت الدول المتقدمة النمو مرحلة من الشيخوخة السكانية الملموسة ، كانت حصة الدخل الفردي فيها أعلى بكثير .

وكتب الباحثان في ورقتهما إنه "في أواسط القرن الحادي والعشرين ، عندما تقترب شيخوخة السكان من ذروتها ، لن تبلغ التنمية الاقتصادية في الصين إلا مستوى بلدان متوسطة النمو" . وإذا اضطر المزيد من المسنين إلى العيش لوحدهم ، وإلى التماس المساعدة خارج نطاق أسرهم ، "فإن هذا الأمر سيطرح مهام أكثر إلحاحاً تتعلق بالأمن والرعاية الطبية والخدمات الاجتماعية في مرحلة الشيخوخة" .

ففي الصين ، تزيد باضطراد وبسرعة نسبة المسنين من السكان على الصعيد الوطني ، إذ تزايدت أعداد المسنين نتيجة لتضافر عوامل انخفاض معدلات الخصوبة الناجم عن سياسة تنظيم الأسرة التي حددت عدد الأطفال في معظم الأسر بطفل واحد وتحسن الصحة ومعدلات طول العمر . وعندما بدأت الصين تعلن عن أرقام من تعدادها لعام ٢٠١٠ في أواخر نيسان/أبريل ٢٠١١ ، قال المسؤولون إن الشريحة السكانية التي تزيد أعمارها عن ٦٠ سنة قد بلغت ١٣,٣ في المائة من السكان ، أي بزيادة ٣ في المائة عما كانت عليه في تعداد عام ٢٠٠٠ .

وفي لقاء غير رسمي لخبراء السكان في جامعة رنمين ببيجين ، المجتمعين للحديث عن التحولات الديمغرافية والتنمية والبيئة في الصين ، قال جيانغ عالم الشيخوخة وآخرون إن تخصصهم أصبح فجأة موضوعاً يحظى بشعبية لدى الطلاب الذين لم يكونوا يعتبرونه موضوعاً جديراً بالاهتمام في وقت سابق . وقال أحدهم إن "علم الشيخوخة حقل جديد . فالناس يولون اهتماماً للشيخوخة حتى في أسرهم . وثمة حاجة إلى معرفة المزيد حول كيفية توفير الرعاية للمسنين ، والحفاظ على صحتهم وتعليمهم عادات أنماط العيش السليمة" .

التحديات الصحية الشائعة والناشئة

في منطقة سكنية هادئة في أديس أبابا، تواجه ساسو نينا تسفاماريام حالة طبية شائعة لدى كبار السن ألا وهي: ضعف البصر بسبب إعتام عدسة العين. فهي تجمع الأموال كلما أمكنها ذلك من أجل إجراء عمليات جراحية، وتوفر ملجأ مؤقتاً للمرشحين للجراحة. وقد قُدمت المساعدة لما يزيد على ١٠٠ امرأة مسنة لتحسين رؤيتهن عن طريق توفير هذا المأوى الصغير، حيث يمكنهن أن يتعافين وهن مستلقيات على أسرة خفيفة بأغطية نظيفة. وقالت ساسو نينا "إنهن عندما يغادرن، نمنحهم السرير".

وتقوم أيضاً بتوعية النساء بمشاكل مرض الزهايمر ومشاكل الإدراك الأخرى التي قد يواجهنها في سن الشيخوخة. ففي المجتمعات التي يتعين فيها على المسنين أن يتدبروا أمورهم بأنفسهم، يكون فقدان القدرة العقلية محفوفاً بالمخاطر بالنسبة للمرأة الضعيفة.

وفي أحد المخيمين اللذين تديرهما المنظمة الخيرية لساسو نينا، ويدعى مخيم آغار التي تعني "مساعد" باللغة الأمهرية، تحدثت امرأة تعاني من نوبات الذعر عن سبب قدومها إلى المخيم. وقالت "لقد ادخرت قليلاً من المال. وضاع كله. ولو لم ألجأ إلى هذا المكان، لتضورت جوعاً. فليس لي أولاد يعتنون بي".

وقالت ساسو نينا، التي تلقت تعليمها في الولايات المتحدة، إنها عندما بدأت دراسة علم الشيخوخة، كانت تعلم أنها ستعود يوماً إلى إثيوبيا. ومنذ عودتها، أنقذت في ملجأين مسنات قالت إن حياتهن قد أصبحت أشبه بالكابوس.

وفي الولايات المتحدة، تحذر الشبكة الوطنية للإعلام الوقائي لمراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها من أن كبار السن في البلدان المتقدمة النمو يواجهون تزايد خطر الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية. فما لا يقل عن خمس المصابين بفيروس نقص المناعة البشرية في الولايات المتحدة تفوق أعمارهم ٥٠ عاماً، وقد تكون هذه النسبة أعلى بكثير لأن المسنين قلما يفكرون في إجراء فحوص. وثمة أيضاً أخبار سارة تفيد بأن الناس الذين يتعايشون مع فيروس نقص المناعة البشرية يعيشون لمدة أطول بفضل العقاقير المضادة للفيروسات العكوسة.

واستناداً إلى مراكز مكافحة الأمراض، ثمة طائفة من العوامل التي تتسبب في زيادة المخاطر التي يواجهها المسنون. ومن هذه العوامل، التي قد تكون عالمية إلى حد ما، عدم الوعي بفيروس نقص المناعة البشرية ومرض الإيدز لأن حملات التوعية لا تستهدف المسنين بقدر استهدافها للشباب. وقد يحجم المسنون عن الحديث عن النشاط الجنسي أو عن استعمال المخدرات أو قد يفترضون أن تدهور صحتهم إنما يعزى إلى تقدم سنهم. وفي إثيوبيا وغيرها من البلدان النامية، تفيد الدراسات بأن المسنين الذين يقومون برعاية الأحفاد اليتامى أو أفراد الأسرة الآخرين الذين يتعايشون مع فيروس نقص المناعة البشرية قد يصبحون مصابين بالعدوى بسبب النقص في المعلومات بشأن اتخاذ الاحتياطات ضد النقل العارض للفيروس.

▼ إحدى قاطنات مأوى أغار للمسنات في إثيوبيا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ أنطونيو فيورنته

الاستثمار في المسنين

في وقت يدور فيه الكثير من النقاش غير الرسمي في الصين حول إعادة النظر في سياسة تنظيم الأسرة المتبعة في البلد ، التي قصرت إمكانية الإنجاب لدى معظم الأزواج على طفل واحد (وإن سمحت ببعض الاستثناءات) ، يذهب جيانغ شينغكون من جامعة رنمين إلى القول إن زيادة الخصوبة ، على غرار ما تدعو إليه بلدان أخرى شتى من قبيل اليابان وروسيا ، لن يكون كافياً لتعويض اتجاه الشيخوخة السريع في الصين في هذا القرن ، والمسؤولون الصينيون يرغبون في الانتقال نحو استقرار في عدد السكان . فهذه قضية معقدة ولكنها ملحة . ويخلص جيانغ في دراسة أكاديمية كتبها مع يانغ كينغفانغ إلى أن "كيفية مواجهة التحدي الملح المتمثل في شيخوخة السكان ستحدد استقرار الصين وازدهارها إلى حد ما" .

وبالنسبة للصين ، باعتبارها أكبر بلد في العالم من حيث عدد السكان (إلى أن تتجاوزها الهند في حدود عام ٢٠٢٥) ، أكدت دراسة قامت به شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة القضايا التي تواجهها وهي تستشرف المستقبل ، وخرجت بأربع استنتاجات عامة رئيسية هي: أن شيخوخة السكان ظاهرة لم يسبق لها مثيل ؛ وأن شيخوخة السكان ظاهرة واسعة الانتشار ؛ وأن شيخوخة السكان ظاهرة عميقة ؛ وأن شيخوخة السكان ظاهرة متواصلة .

وبخصوص هذه النقطة الأخيرة ، خلصت شعبة السكان إلى أن النسبة العالمية للأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم ٦٠ عاماً بلغت ٨ في المائة في عام ١٩٥٠ ، ثم ارتفعت إلى ١١ في المائة في عام ٢٠٠٩ ، ومن المتوقع أن تصل إلى ٢٢ في المائة بحلول عام ٢٠٥٠ . واستناداً إلى تقرير الشيخوخة لعام ٢٠٠٩ ، فإنه "على الصعيد العالمي ، يتزايد السكان المسنون بمعدل ٢,٦ في المائة سنوياً ، أي بوتيرة أسرع بكثير من وتيرة تزايد عدد السكان ككل . . . وسيتطلب هذا النمو السريع تعديلات اقتصادية واجتماعية بعيدة المدى في معظم البلدان" .

وفي مدينة شيان العتيقة في مقاطعة شانشي بالصين ، والواقعة على بعد ١ ٢٢٠ كلم جنوب غرب بيجين ، اقترح مدير لجنة شانشي العاملة المعنية بالشيخوخة ، آي شيانغدونغ ، نوعاً من التعديلات التطلعية للسياسة العامة في معرض وصفه لمزيج من المبادرات الحكومية ومساهمات القطاع الخاص التي أصبحت سياسة وطنية . فبدأ بالديمغرافيا . وقال إن في شانشي ما يزيد على ٥ ملايين شخص تتجاوز أعمارهم ٦٠ سنة ، ونسبة الرجال والنساء ممن تتجاوز أعمارهم ٨٠ سنة أعلى من المتوسط الوطني .

وأضاف قائلاً "إننا لا نعرف السبب الذي يجعل الناس يعمرون طويلاً هنا . ولكن خدماتنا الصحية تحسنت بالنسبة للأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم ٦٥ سنة . فالفحوصات الطبية مجانية ، ويتمتع سكان الحضر بتأمين صحي . ويعيش معظم المسنين مع عائلاتهم ، حيث يتناولون ما يحبون من طعام مألوف لديهم . فالمؤسسات لا تستطيع تلبية الأذواق

نسبة المسنين إلى السكان على الصعيد الوطني

(نسبة مئوية)

	٦٠ سنة أو أكثر	٦٥ سنة أو أكثر	٨٠ سنة أو أكثر
الصين	١٢,٣	٨,٢	١,٤
مصر	٨,٠	٥,٠	٠,٧
إثيوبيا	٥,٢	٣,٣	٠,٤
فنلندا	٢٤,٨	١٧,٢	٤,٧
الهند	٧,٦	٤,٩	٠,٧
المكسيك	٩,٠	٦,٣	١,٣
موزامبيق	٥,١	٣,٣	٠,٤
نيجيريا	٥,٠	٣,٢	١,١
جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة	١٦,٧	١١,٨	٢,١

المصدر: شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة.

الفردية". وفي عام ٢٠١٠ بدأت شانشي تقدم منحاً خاصة للمسنين، إضافة إلى البدلات والمعاشات التقاعدية الأخرى التي قد يكونون يتقاضونها بعد سن الستين. وبالنسبة للأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين ٨٠ و٨٩ سنة، فإنهم يتقاضون ٥٠ يوان شهرياً، أي حوالي ٧,٧٠ دولارات؛ ويتقاضى الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين ٩٠ و٩٩ سنة الضعف حيث يصل المبلغ إلى ١٠٠ يوان، أما المسنون الذين يبلغون من العمر ١٠٠ سنة أو أكثر فيتقاضون ٢٠٠ يوان. وفي شانشي، يسلم موظف في اللجنة المال شخصياً إلى الأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم ٩٠ سنة.

وقد أنشئت في الصين على الصعيد الوطني وصعيد الأقاليم، لجان عاملة معنية بالشيخوخة تضم في عضويتها أعضاء من شتى الوزارات المعنية، وبعض هذه اللجان أكثر فعالية من غيرها. ويقول آي إنها أنشئت: "لتنسيق الخدمات، وحماية حقوق ومصالح المسنين وتنظيم الأنشطة الثقافية والاجتماعية والرياضية لفائدتهم. ويمكن للمسنين أن يحسوا بالفرق إذ يرون ما يجري استثماره لفائدتهم".

وفي مدينة شيان، التي تعيد تعريف نفسها باعتبارها مركزاً للتكنولوجيا، ثمة بيئة ثقافية غنية وعدة مرافق مدنية يقر آي بأنها مكان مناسب للمسنين. "إذ يمكنهم أن يقوموا بتمارين رياضية في الحدائق العامة في الصباح والمساء. وثمة مجموعات موسيقية. ومؤسسة لتعليم المسنين مهارات الحاسوب والرسم والخط". ويقر المسؤولون بأن الخدمات في المناطق الريفية لم تبلغ هذا المستوى، وفي قرية غير بعيدة عن المدينة ثمة من أبدى بعض التذمر بشأن هذه المسألة. لكن آي يؤكد على وجود برامج جديدة حتى في المناطق الريفية.

وفي بيجين، قال وو يوشاو، نائب رئيس اللجنة العاملة الوطنية الصينية المعنية بالشيخوخة والتي تعمل مباشرة على مستوى مجلس الولاية، وفوق مستوى الوزارات، إن الوزارات والإدارات الحكومية قد حشدت جهودها في عام ٢٠٠٦ لوضع لوائح جديدة لحماية المسنين. ووعياً من الحكومة بالفوارق في الدخل بين المدن والقرى، فإنها ستوفر لكافة المسنين في المناطق الريفية، وعددهم حوالي ١٠٠ مليون مسن، معاشات تغطى بالكامل من أموال الدولة، بحلول عام ٢٠١٥. وقال وو إن الأشخاص الذين يحصلون على معاشات تقاعدية في المناطق الريفية أو المدن، يتوقع منهم أن يستخدموها في سداد تكاليف الخدمات المحسنة المخصصة للمسنين. وتمشياً مع الاتجاهات الدولية، سيتم أيضاً تشجيع المسنين على اقتناء التأمين لتغطية نفقات الشيخوخة والنظر في إمكانية الاقتراض برهن ممتلكاتهم.

وفي شيان، قال آي إنه في إطار جهد يرمي إلى تيسير الاستفادة من برامج موسعة ومخصصة للمسنين، تريد الحكومة الوطنية أن تجعل من زيادة أماكن إيواء المسنين في القطاع الخاص، وتحسين المنتجات المتاحة للمسنين لتيسير عيشهم أولوية من الأولويات. وأضاف آي قوله "إن الشيخوخة قطاع يشهد نمواً. إذ تولى عناية متزايدة لشتى جوانب الشيخوخة. وتقوم الجامعات بدراسات بشأنها؛ ويستكشف قطاع الأعمال إمكانيات الاستثمار".

▲ امرأة تعزف آلة تقليدية قرب سور مدينة شيان القديمة في الصين.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

وانعكس في آخر خطة خماسية وطنية هذا الاتجاه البادي للعيان في مقاطعة ويانغ بشيان ، حيث تقارب نسبة الأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم ٦٠ سنة ١٢ في المائة من السكان . وهناك في المجمع السكني جينيوان شينشي ، التابع للقطاع الخاص والذي يضم شققاً مبانيها جيدة التصميم ومحاطة بسور وحدائق ، ومجهزة بممرات مخصصة للراجلين ، يعيش حوالي ١٥٠٠٠ شخص ، تزيد أعمار ٦٠٠ منهم على ٦٠ سنة ، وتتجاوز أعمار ٣٠ شخصاً منهم ٨٠ سنة ، وكلهم يعيشون مع أسرهم . وقد تم بناء مجمعات سكنية مماثلة في الآونة الأخيرة في العديد من المدن الكبيرة في الصين ، وإن لم تكن توفر دائماً طائفة الخدمات التي يوفرها للمسنين المجمع السكني جينوان شينشي ، وهو اسم يجمع بين عبارتي ”الحديقة الغنّاء ، والقرن الجديد“ .

ولم تعتمد الصين نظام بناء المساكن العائلية التي تضم ”شققاً للجدات“ على طراز سنغافورة ، حيث ترتبط الشقق ببعضها عن طريق غرف للجلوس لها مدخل مستقل بحيث يتأتى للمسنين أن يظلوا على مقربة من أسرهم ، في حين يتمتع الجيلان معاً بالخصوصية والاستقلال . لكن الشقق الفسيحة (والغالية الثمن) في المجمع السكني جينوان شينشي ، يمكن أن تؤوي في حيز مريح أسرة متعددة الأجيال ، استناداً إلى قول ياو نايغوب ، رئيس الجمعية الشعبية للمسنين في ذلك المجتمع المحلي ومدير مركز المسنين في المجمع الذي شيد خصيصاً للمسنين .

وفي مركز المسنين ، أشار ياو إلى زاوية للحاسوب ، وقاعة للدراسة تتمرن فيها جماعة المسنين ، وغرفة للفحص الطبي ، ومركز للياقة البدنية ومجموعة من ألعاب ماه جونغ للترفيه بعد الظهر . وثمة أيضاً غرفة مفروشة مجهزة بأسرة للقيلولة . ويتاح كل شيء مجاناً ما عدا وجبة الغداء بالنسبة لأولئك الذين لا يأكلون في البيت . وتعطى للمسنين في المجمع السكني بطاقات خصم لاستخدامها في وسائل النقل العمومي ، وتقدم لهم المساعدة لملء الوثائق الرسمية ، وتخصص لهم أسعار في المحلات التجارية في المجتمع المحلي وتنقل مشترياتهم مجاناً إلى بيوتهم . ويستخدم القاطنون مبيعات الحرف اليدوية لجمع المال لأنشطة المركز .

وقال يو ”إن ما يحتاجه المسنون ليس هو الدعم بمعناه المادي . بل إن الأهم هو الدعم المعنوي . فبعد التقاعد ، يتملك الكثير من الناس إحساس بالضياع . والآن وقد تحسنت أحوال الناس ، فإنهم يرغبون في المزيد ، روحياً وثقافياً“ .

وتقع قرية جينغشي في قضاء تشوتشي ، على بعد حوالى ساعة بالسيارة من مدينة شيان ، ولا يتعدى عدد سكانها ١٣٦٥ شخصاً (١٧٩ منهم تتجاوز أعمارهم ٦٠ سنة في أوائل عام ٢٠١١) ، وبسبب صغر حجمها ، تقل فيها المرافق المخصصة للمسنين . غير أن الجمعية المحلية للمسنين تحاول التعويض عن ذلك .

وقال مسؤولو الجمعية إنها أنشئت في عام ١٩٩٧ ، بعد أن تبين أن بعض الأسر المعيشية قد تخلت عن أقاربها المسنين . وجينغشي التي تقع في منطقة جبلية ، كانت آنذاك عبارة عن مجموعة من القرى الفقيرة جداً التي تحاول العيش على محاصيل زراعية من قبيل الذرة والقمح والفاصوليا . وفي عام ٢٠٠٣ ، شهد وجهها الزراعي تحولاً ، فأصبح السكان المحليون يستمدون

▼ قاطنون مسنون يعزفون مقطوعة محلية قرب سور مدينة شيان القديمة .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

مسنات في انتظار زوار في دار المسنين 'سانت ماري' ، بنيوديلهي ، الهند.
© سانجيت داس/ بانوس

دخلهم من بساتين وأشجار الفاكهة التي يمكن للمسنين أن يتولوا أمرها . وقالوا إن الأرباح السنوية لكل فرد قد ارتفعت ارتفاعاً حاداً في أقل من عقد من الزمن ، من حوالي ١٠٠٠ يوان ، أو ما يعادل ١٥٤ دولار إلى ٦٤٨٠ يوان ، أي ما يقل قليلاً عن ١٠٠٠ دولار .

نحو مزيد من الاستقلال

في الصين وكذا في الهند ، أفضى الاهتمام المتزايد بالسكان الذين تتجاوز أعمارهم ٦٠ سنة إلى القيام بقدر كبير من الأبحاث وأعيد النظر في الرأي القائل بأن الأسر ستتولى بالطبع مسؤولية رعاية المسنين ـ أو ينبغي إكراهها على ذلك بقوة القانون . ويقول ك . ر . ج . ناير ، الأستاذ الباحث الشرفي في مركز أبحاث السياسات العامة في نيودلهي ، إنه من المتعين مواجهة الحقائق الجديدة . فالمسنون المعمرون لا يكونون أحسن حالاً ، أو لا ينهون حياتهم سعداء حسبما كتبه ناير في دراسة استهلالية تلخص كتابات الخبراء التي تم جمعها في كتاب صدر عام ٢٠٠٩ تحت عنوان حالة الشيخوخة في الهند : التحديات والفرص . وقد تولى ناير تحرير هذا المؤلف أيضاً .

ويسوق ناير أمثلة عن سوء المعاملة والإهمال ، وعدم الإدراك الكافي لمشاكل المسنين والضرر الذي يلحقه الفقر المستحكم والواسع النطاق بالأسر الشابة التي يتوقع منها أن ترعى مسنيها . ففي الهند أكبر عدد في العالم من الناس الذين يعيشون على ١,٢٥ دولار أو أقل . وحذر ناير من أن سن القوانين التي توجب على أفراد الأسرة رعاية المسنين ، والتي تجري مناقشتها في الدوائر الحكومية ، قد يفضي إلى الحد من مسؤولية الحكومة عن دعم المسنين . ويشير ناير أيضاً بعدم إغفال إمكانات "المسنين الحديثي العهد بالشيخوخة" الذين هم في الستينات من أعمارهم والذين لا يزالون قادرين على المساهمة في الاقتصاد والمجتمع . فقد لمس ممانعة في استبقائهم في صفوف العاملين .

وكثيراً ما تعاني العيادات التي تديرها الحكومة من نقص في الموظفين في المناطق الريفية ، حيث تعيش نسبة كبيرة من المسنين الهنود ، استناداً إلى ما كتبه الدكتور أومين جورج ، رئيس الدوائر الطبية في منظمة مساعدة المسنين في الهند ، في الكتاب نفسه . فالطب الخصوصي باهظ التكلفة بالنسبة للكثيرين . ويوجه جورج الانتباه إلى دراسة

▲ شيلا هاريسون ماثيو تأخذ إنجيلا من رف في غرفتها في دار المسنين 'سانت ماري' ، بنيوديلهي ، الهند.
© سانجيت داس/ بانوس

استقصائية قامت بها حكومة الهند ومكتب منظمة الصحة العالمية في الهند ، وهي تشير كذلك إلى أن "من الضروري أن تعالج بجدية الصحة العقلية وإعادة التأهيل عند التخطيط للرعاية الصحية للمسنين" .

ويقول ديمغرافيون رائدون قاموا بدراسة الإحصاءات الأخيرة إنه حتى في الولايات الأكثر تقدماً بجنوب الهند ، حيث تضاهي مؤشرات التنمية البشرية نظيراتها في البلدان الأكثر تقدماً ، يشكل ارتفاع عدد المسنين تحديات جديدة . وقال سي . شاندرامولي ، الأمين العام للسجلات ، ومفوض التعداد في الهند ، إن ثمة قضايا جديدة تنشأ في كيرالا ، ومنها النقص في رعاية المسنين .

وفي عام ٢٠١١ ، نشرت الهند مشروع سياسة جديدة بشأن الشيخوخة ، تراعي أحدث الاتجاهات الوطنية ، التي وصفت بأنها "انفجار ديموغرافي لفئة المسنين ، وتغير الاقتصاد والوسط الاجتماعي ، والتقدم في البحوث الطبية والعلوم والتكنولوجيا ، وارتفاع مستويات العوز في صفوف فقراء الريف المسنين" . لكن هذه السياسة الوطنية للمسنين لعام ٢٠١١ ، التي تنتظر موافقة مجلس الوزراء ، وقت كتابة هذا التقرير ، تؤكد من جديد أن "رعاية المسنين تظل مهمة موكولة إلى الأسرة التي ستدخل بهذا الشأن في شراكة مع المجتمع المحلي والحكومة والقطاع الخاص" .

ويؤكد هذا المشروع على أن المسنات في الهند بحاجة إلى عناية خاصة . فالعديد من المسنات ، وبخاصة الأرامل ، يتحملن عيشهن بالكاد . ويقول المشروع إن "مشاكل المسنات تتفاقم بفعل التمييز الجنساني الذي يدوم العمر كله ، وغالباً ما ينبع من التحيز الثقافي والاجتماعي العميق الجذور . ويستفحل بأشكال أخرى من التمييز بسبب الطبقة والطائفة والإعاقة والأمية والبطالة والحالة الزوجية" .

الوصول إلى الفئات المهمشة

كان ماثيو شيريان ، الرئيس التنفيذي لمنظمة مساعدة المسنين في الهند ، عضواً في اللجنة التي صاغت مقترحات لسياسة جديدة بشأن الشيخوخة . فما فتئت منظمته غير الحكومية تعمل في العديد من جوانب حياة المسنين . وتقيم خط اتصال مباشر بالأشخاص الذين يحتاجون إلى المساعدة ، وإن كان شيريان يقول بنبرة من الأسى "إن كل ما نقوم به مجرد قطرة من يمّ" . وقال إن مستحقات الضمان الاجتماعي الزهيدة المدفوعة للمسنين لا تمثل شيئاً يذكر في الاقتصاد الهندي المعاصر ، كما أن شركات التأمين الصحي الخاص لن توفر التأمين للمسنين .

وقال شيريان إن طول العمر في الهند قد يكون في ازدياد ، إلا أنه يتباين بشكل ملحوظ بتباين شرائح المجتمع . "فبالنسبة للفقراء ، والداليت ["المنبوذين"] والقبائل ، إنهم يعيشون عيشة ضنكا فلا يطول بهم العمر" .

وقال شيريان إنه في عام ٢٠١٠ ، قامت الحكومة ، رداً على تزايد الاحتياجات الطبية والاقتصادية للمسنين من الفقراء ، بتخصيص الأموال لمائة مقاطعة إدارية من مقاطعات الهند البالغ عددها ٦٦٢ مقاطعة وذلك لتقديم رعاية خاصة بالمسنين . واختيرت ثمانية مراكز طبية

إقليمية لإجراء البرامج . وتعمل وزارة العلوم والتكنولوجيا الهندية مع منظمة مساعدة المسنين في الهند من أجل تصميم منتجات وخدمات للمسنين ، من قبيل الأجهزة التي تشتغل بالتحكم الصوتي ، ومركبات العلاج الطبيعي المتنقل ووصلات الفيديو بالمشورة الطبية المتخصصة للأطباء المحليين .

وقد ساور منظمة مساعدة المسنين في الهند قلق إزاء إساءة معاملة المسنين ، ففتحت خطوط للمساعدة في ٢٠ بلدة ، وهي تقوم بالوساطة لدى الأسر التي تعيش مشاكل ، وعند الضرورة ، تبلغ الشرطة بحالات سوء المعاملة . وخلصت دراسة أجرتها المنظمة لسوء معاملة المسنين في أربعة مناطق حضرية كبيرة وأربع مدن صغيرة إلى أن العنف يتزايد عموماً ، ولاسيما داخل الأسرة .

وقال شيريان ”إن بيت الأسرة لا يزال هو المكان الذي يعيش فيه معظم المسنين“ . وقال إن ”العيش المدعوم وبيوت العجزة ليست أموراً شائعة في الهند“ وأضاف قوله إنه لا يوجد إلا حوالي ٣٦٠٠ بيت من هذه البيوت في البلد كله ، ومعظمها إما مملوك للقطاع الخاص أو أنشأتها المؤسسات الخيرية أو المنظمات الدينية . وقال إن”العديد منها يؤوي ما بين ٢٠ و ٥٠ مسناً . ولا تزال الطاقة الاستيعابية ضعيفة جداً“ .

الهياكل الأسرية وحالة التحول الدائب

شهدت فنلندا ، على غرار عدد من الدول الأوروبية واليابان وجمهورية كوريا ، تسارع شيخوخة سكانها ــ نتيجة الانخفاض الشديد في معدل الخصوبة وطول الأعمار ــ فأصبحت الشيخوخة أكبر شاغل اجتماعي ــ اقتصادي يقلق واضعي السياسات . وفي جامعة هلسنكي ، قال البروفسور بيكا مارتيكاينن ، وهو ديموغرافي في وحدة البحوث السكانية في قسم علم الاجتماع ، إن الشيخوخة ليست إلا جزءًا من مجموعة معقدة من التحديات . فانخفاض الخصوبة لا يزال قائماً ، على الرغم من أن فنلندا شهدت ارتفاعاً طفيفاً في السنوات الأخيرة ، من حوالي ١,٧ طفل لكل امرأة في الفترة ١٩٩٠-١٩٩٥ إلى حوالي ١,٨ طفل لكل امرأة في الفترة ٢٠٠٥-٢٠١٠ . (وعلى الصعيد العالمي ، يؤدي ”معدل الإحلال“ البالغ ٢,١ إلى استقرار النمو ؛ ودونه يبدأ عدد السكان في الانخفاض) . لكن الأرقام لا تروي القصة بأكملها .

وقال ”لقد شهدت هياكل الأسرة الأوروبية والعلاقات الأسرية تحولاً كبيراً ارتبط جزئياً بانخفاض معدلات الخصوبة وارتفاع معدلات الطلاق ، والأسر المعاد تشكيلها ، وانخفاض سريع في حجم الأسرة . ولقد تزايد انتشار شريحة المسنين ، ولكن تزايد أيضاً انتشار فئة الشبان الذين يعيشون لوحدهم ، بعد مغادرة بيت الأبوين“ . وتبقى المرأة في سوق العمل لفترة أطول ، مما يؤدي إلى تأخير الزواج والإنجاب ، أو اتخاذ قرار بعدم الإنجاب إطلاقاً . وهذا ما أكدته مجموعة من الشابات اجتمعن في هلسنكي لاحتساء الخمر بعد العمل . ولم تكن أي منهن متلهفة لتشكيل أسرة ، رغم ما يجدنه من وظائف مهمة . وقالت إحداهن أن الزواج لا يغريها

▼ الحفل الراقص لبعد ظهر يوم الخميس والمنظم لصالح المتقاعدين في دار المسنين ’مالمي وركرز‘ ، وهي مقر ثقافي شعبي في هلسنكي ، فنلندا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/سامي ساليين

لأنها لا تريد أن تكون "مكبلة" بأغلال الحياة الزوجية .

وقال مارتيكاينن إن الحكومة لا تشجع علناً زيادة الإنجاب ، ولكنها توفر خدمات اجتماعية ممتازة من قبيل الرعاية النهارية التي تسهل الأبوة ، بيد أن الكثير من الشباب يفضلون مع ذلك الانتظار ، معتقدين أن الخدمات ستكون دائماً متاحة . وفي الوقت نفسه ، تنمو شريحة السكان المسنين باستمرار ، وتزداد شيخوخة . ويشكل الأشخاص الذين تبلغ أعمارهم ٦٠ سنة أو أكثر ما يقرب من ربع سكان البلد في الوقت الراهن ، وتتزايد النسب المئوية للأشخاص الذين تتجاوز أعمارهم ٧٠ و ٨٠ سنة .

وقال مارتيكاينن "إن مستويات الوفيات ما فتئت تنخفض بسرعة ، لاسيما لدى السكان الأكبر سناً ، أي أولئك الذين تبلغ أعمارهم ٧٠ أو أكثر . والمسألة المطروحة هي مسألة ما إذا كان عيش هؤلاء الناس يتحسن بمعدل مماثل – أي مسألة ما إذا كانت سنوات العمر الإضافية تقضى أيضاً بصحة جيدة" . وتكتسي الأسئلة طابعاً ملحاً ، لأن جيل "طفرة الإنجاب" بدأ يبلغ سن التقاعد ، مما يزيد من الأعداد الغفيرة من الشيوخ دون أن يقترن ذلك بتزايد ملموس في أعداد الشباب . وعلى غرار ما عليه الأمر في البلدان المتقدمة النمو الأخرى ، فإن السؤال المطروح ، هو من أين سيأتي المال للاستمرار في ضمان العيش الكريم ؟

ويلاحظ مارتيكاينن في فنلندا بعضاً من التفكير نفسه السائد في البلدان النامية التي تعد مواردها الحكومية أصغر بكثير . وقال إنه "يدور حديث متزايد في فنلندا وفي بلدان أخرى عن التزامات الأسرة برعاية المسنين . لكن قد يتعلق الأمر بتوجه نحو نقل عبء رعاية المسنين إلى أفراد وأسرهم ، وهذا ما يرتبط بقضايا التضامن بين الأجيال ودعم الأسرة . وثمة تأكيد شديد في أوروبا على توفير الرعاية للمسنين في المجتمع المحلي ، حتى يتمكن المسنون من العيش في البيت . ولكن كيف يمكن تنظيم ذلك فعلا ؟" ومع تحول هياكل الأسر التقليدية ، تبدو المهمة جسيمة .

وتتولى إدارات الخدمات الاجتماعية البلدية مسؤولية مراكز المسنين في فنلندا كما تتولى مسؤولية مراكز الرعاية النهارية للأطفال وبرامج المجتمع المحلي الأخرى . وتتاح للمسنين الذين تتجاوز أعمارهم ٧٥ سنة فرص الاستفادة من الأنشطة النهارية ، والمساعدة المنزلية ، والرعاية في المستشفيات والإسكان لشتى الاحتياجات الخاصة . ومن أمثلة الخدمات الشاملة التي يمكن أن توفرها تلك المرافق خدمات مركز ريستافوري في هيلسينكي . ففي ريستافوري مأوى جماعي لمرضى العته وآخر للمصابين بمرض عقلي . وثمة وحدات أخرى للرعاية في حالة الأزمة أو إعادة التأهيل ، و ٨٥ شقة من غرفة واحدة للعيش المدعوم (مصممة بكل ميزات السلامة الضرورية) ، ومساكن العزاب وغرف لأفراد الأسرة الزائرين . وثمة سبعة حمامات صونا وصالة رياضية وغرفة تمارين ومطعم ومقهى

▼ متقاعدان فنلنديان ، هانو وأرمي في بيتهما.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/سامي سالين

ومكتبة وصالون لتصفيف الشعر ، وحيز للعمل الحرفي والتدليك ، وخدمات اختصاصي الأقدام وتقويم العظام . ويشغل المركز ثلاثاً وأربعين ممرضة عملية و ٢١ ممرضة عامة ، وله أيضاً طاقم من المدربين في مختلف المجالات ، ووحدة للعلاج وغرفة بيضاء هادئة ورائعة تدعى شانغري لا ، أحدثها مصمم باستخدام أضواء خافتة ، وموسيقى كلاسيكية ، وعلاج بالعطور ، ومشاهد الغابات ، أو مناظر الحياة تحت الماء أو مشاهد هلسنكي المعكوسة بدون صوت على جدار كبير . ويمكن لزوار النهار وللقاطنين أيضاً الاستفادة من هذه الخدمات ــ وتجتمع كل يوم اثنين مجموعة يطلق عليها اسم "مجموعة الترفيه" .

والاستفادة من خدمات المركز ليست مجانية ، ولكن يتم دفع المقابل بالتدريج ، تبعاً للمستويات الاقتصادية لأولئك الذين يستخدمونه أو يعيشون هناك ، حتى حدود ٨٠ في المائة تقريباً من الدخل التقاعدي للشخص . وقال كيرسي سانتاما ، رئيس المستشارين الاجتماعيين في المركز ، إن الأغنياء يدفعون مبالغ قد تصل إلى ٣٥٠٠ يورو في الشهر (حوالي ٥,٠٠٠ دولار) ، في حين أن معظم الناس قد يدفعون ما يقل عن ١٠٠٠ يورو شهرياً (١٤٢٠ دولاراً) مقابل الرعاية على مدار ٢٤ ساعة . ويدفع زبائن المركز ثمن الأدوية الخاصة بهم ، في حدود ٦٠٠ يورو (٨٥٠ دولاراً) سنوياً ، وما يزيد عن ذلك المبلغ يكون بالمجان . وفنلندا بلد مرتفع الدخل ، إذ تتعدى حصة الفرد من الدخل القومي الإجمالي السنوي ٤٦٠٠٠ دولار ، وبها نظم تقاعد للقطاعين العام والخاص من أكثر النظم سخاء في العالم ، استناداً إلى منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي .

وقال سانتاما إن رسالة مركز ريستافوري هي أن "الشيخوخة ليست مرضاً" . ولكن إلى متى سيدوم هذا المستوى من الرعاية في وقت تتزايد فيه أعداد المحتاجين من المسنين ؟ فهل سيصبح هذا النوع من العيش في سن الشيخوخة ، المتميز بأعلى مستوى في أوروبا ، معرضاً للانقراض في عالم يشيخ ، حيث تشعر الدول الغنية فعلاً بضغوط ويجهل الناس في البلدان الفقيرة أصلاً بوجود هذا الترف ؟

متقاعدان فنلنديان ، هانو وأرمي يستمتعان بالتزلج على الجليد في فصل الشتاء.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ سامي سالين

المسنون

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

... وفي معظم المجتمعات ، نظراً لكون المرأة تعمر أكثر من الرجل ، فإنها تشكل الأغلبية من السكان كبار السن . ... وللتزايد المطرد في فئات كبار السن في سكان البلد ، سواء من حيث الأرقام المطلقة أو كنسبة من عدد السكان في سن العمل ، آثار كبيرة على أغلبية السكان ، لاسيما فيما يتعلق بقابلية استمرار الطرائق الرسمية وغير الرسمية لمساعدة كبار السن . فالأثر الاقتصادي والاجتماعي المترتب على" شيخوخة السكان" هذه يشكل في آن واحد فرصة وتحدياً لجميع المجتمعات .

MATERNIDADE

الفصل الرابع

ما هي العوامل التي تؤثر في معدل الخصوبة؟

معدل الخصوبة ـ أي عدد الأطفال الذين تنجبهم المرأة الواحدة ـ ليس مجرد مقياس للتنبؤ بنمو السكان أو تراجع أعدادهم. بل يمكن أن يكون مقياساً لنوعية حياة المرأة، سواء لم يكن لها ولد، أو كان لها أولاد قل عددهم أم كثر. وترتبط بمؤشر حجم الأسر أو الدول أو سكان العالم عوامل أخرى من قبيل الصحة، والتعليم، والفرص الاقتصادية، والمساواة، وحق كل امرأة في اتخاذ قرارات بشأن توقيت الولادات والمباعدة بينها، دون إكراه من شريك أو أسرة أو مجتمع محلي أو سياسة وطنية.

وفي البلدان الأكثر نمواً، يقارب متوسط معدل الخصوبة ١,٧ مولود ـ وهو معدل دون مستوى الإحلال البالغ ٢,١ مولود. وفي أقل البلدان نمواً، يبلغ المعدل حوالي ٤,٢، حيث يصل هذا المعدل في جزء كبير من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى إلى ٥,١. غير أن معدلات الخصوبة ما فتئت تنخفض تدريجياً في جميع أنحاء العالم منذ منتصف القرن الماضي. ولكل منطقة ـ بل ولكل بلد ـ مجموعة فريدة من الظروف التي تؤثر في عدد الأطفال الذين تنجبهم المرأة الواحدة.

وبحسب ما ذكرته هانيا زلوتنيك، مديرة شعبة السكان التابعة لإدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية، في اجتماع لجنة السكان والتنمية في نيويورك في نيسان/أبريل ٢٠١١، فإن الشواهد تشير إلى أن الانخفاض في معدلات الخصوبة قد أدى حتى الآن إلى تسارع وتيرة النمو الاقتصادي وعمل على الحد من الفقر. "وعلاوة على ذلك، تم تحقيق تخفيضات في معدلات الخصوبة عن طريق إدخال تحسينات في مجال الصحة الإنجابية وصحة الطفل والتعليم وتمكين المرأة. وبلداً بعد بلد، كان الأبوان يقرران الحد من عدد ما سينجبانه من أطفال بغرض توفير فرص أفضل لهم".

وقد يعني ارتفاع معدل الخصوبة ارتفاع التكاليف الاقتصادية والصحية والاجتماعية في بعض البلدان. ففي موزامبيق، على سبيل المثال، استناداً إلى قول ليوناردو شافان من وزارة الصحة "يعد ارتفاع معدلات الخصوبة مسألة تتعلق بالصحة العامة"، لاسيما بالنسبة للأمهات اللواتي لا يباعدن بين ولاداتهن بسنتين على الأقل، فيضعفن بالتالي ويصبحن عرضة للمرض. ويقول شافان "إن الحوامل من الأمهات قد لا يكون لديهن من الوقت ما يكفي للاعتناء بصحتهن أو صحة أطفالهن الآخرين".

ويوضح شافان أن المرأة الريفية في موزامبيق، وخصوصاً في الشمال، تقوم عادة بالعمل في الحقول، فإذا حال الحمل أو سوء الصحة دون إنتاجها ما يكفي من الغذاء للأسرة، فإن الأطفال يكونون عرضة للجوع أو لسوء التغذية. ويقول إنه على المستوى الوطني، يعاني ٤٤ في المائة من الأطفال من سوء التغذية المزمن. وفي أحد الأقاليم الشمالية، وهو إقليم كابو ديلغادو، حيث

▶ أنا ماريا سيبياندا، أم لبنتين، تأمل أن يكون طفلها المقبل ولداً.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/بيدرو سا دا باندييرا

▲ ليوناردو شافان، نائب المدير الوطني للصحة العامة، في وزارة الصحة، موازمبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/بيدرو سا دا باندييرا

تتزوج فتاة من كل ثلاث فتيات قبل سن الخامسة عشرة وحيث لا تستخدم وسائل منع الحمل الحديثة إلا ٣ في المائة من السكان الإناث، يعاني حوالي ٥٩ في المائة من الأطفال من سوء التغذية المزمن. ويقول شافان إن الطفل الذي يعاني من سوء التغذية يكون عرضة لخطر توقف نموه المعرفي أو الجسدي، مما يهدد فرص عيشه حياة طويلة وصحية ومنتجة.

أما إيليسيو نهانتومبو، رئيس قسم التحليل والدراسات السكانية بوزارة التنمية والتخطيط في موزامبيق، فيصف ارتفاع معدل الخصوبة في البلد بكونه مسألة "تثير القلق"، لأن النمو السكاني يتجاوز قدرة الدولة على توفير السلع والخدمات والفرص المدرة للدخل، وخاصة بالنسبة للسكان الشباب الذين تتزايد أعدادهم بسرعة. واستناداً إلى إطار عمل الأمم المتحدة للمساعدة الإنمائية لموزامبيق لفترة ٢٠١٢ - ٢٠١٥، فإن الاقتصاد النظامي الصغير للبلد "عاجز إلى حد كبير عن استيعاب ما يبلغ تقديره ٣٠٠٠٠٠ شاب من الشبان الذين يلجون سوق العمل كل عام".

فما هي العقبات التي تمنع الناس في بعض البلدان الواردة في هذا التقرير من أن يقرروا بحرية ومسؤولية عدد ما يرغبون في إنجابه من أطفال؟ وما هي القوى التي تساهم في تخفيض معدل الخصوبة إلى ما دون مستوى الإحلال أو تسهم في استقرار معدل الخصوبة في بلدان أخرى؟

لقد أفضى الاتفاق الذي اعتمده اجتماع ١٧٩ بلداً في القاهرة في المؤتمر الدولي للسكان والتنمية لعام ١٩٩٤ إلى تحريك برنامج عمل على مدى ٢٠ سنة يعكس وعياً جديداً بأن الخصوبة والصحة والفقر وأنماط الإنتاج والاستهلاك والتمكين أمور شديدة الترابط بدرجة لا يمكن تناول أمر منها بمعزل عن الآخر.

فتمكين المرأة باعتباره أمراً حاسماً في مهمة انتقال السكان إلى مستويات الاستقرار بمحض خياراتهم وليس عن طريق المطالبات الحكومية ما فتئ يشكل موضوعاً محورياً لاتخاذ إجراءات لاحقة ومحكاً لوضع السياسات منذ ذلك الحين. وإلى جانب تمكين المرأة والرجل وأسرتهما من اتخاذ خيارات الإنجاب، تعهد المجتمع الدولي بضمان توفير فرص الاستفادة من الرعاية الصحية الإنجابية، بما في ذلك تنظيم الأسرة، بحلول عام ٢٠١٥. وهذا ما سُلم به شرطاً مسبقاً ضرورياً لإتاحة حرية الاختيار في تحديد عدد الولادات والمباعدة بينها. وكان من النتائج المرجوة أنه باتخاذ مجموعة من الإجراءات الرامية إلى تمكين الأفراد، وتعزيز التنمية وتحسين الصحة وزيادة فرص الاستفادة من التعليم، ستبلغ معدلات الخصوبة مستوى الإحلال البالغ ٢,١ مولود لكل امرأة (على أن تكون الأنثى في هؤلاء الأطفال، أُمّا للجيل القادم).

وفي عام ٢٠١١، لم تعد تفصل العالم عن الهدف الذي حدد في القاهرة إلا ثلاث سنوات، وأربع سنوات عن الموعد النهائي المتوخى لتحقيق الأهداف الإنمائية للألفية، التي تتضمن العديد من الغايات المتعلقة بتحسين عيش المرأة والفتاة وحقوقهما. ويجري تحقيق بعض هذه الغايات في بعض الأماكن. لكن توفير فرص الاستفادة من خدمات تنظيم الأسرة غالباً ما يشكل استثناءً صارخاً، إلى جانب ضمان حق المرأة في اتخاذ القرارات في مجال حياتها الإنجابية. فاليوم،

يقدر عدد النساء البالغات سن الإنجاب في البلدان النامية واللواتي سيستخدمن وسائل تنظيم الأسرة لو أتيحت لهن بما يقارب ٢١٥ مليون امرأة . ولا تزال مئات الآلاف من النساء يهلكن سنوياً لأسباب تتعلق بالحمل ، والكثير منها يمكن تفاديه .

وفي بعض البلدان ، يكون عدم توفير فرص الاستفادة نتيجة لضعف شبكات النقل التي تجعل من شبه المستحيل إيصال الإمدادات إلى المناطق النائية . وفي بلدان أخرى ، يتدخل العامل الثقافي وعدم المساواة بين الجنسين فتحول دون تمكين المرأة من ممارسة حقوقها الإنجابية ، حتى عندما تكون خدمات وإمدادات تنظيم الأسرة متاحة . وفي حالات أخرى ، ينخفض الطلب على وسائل منع الحمل نتيجة لأسباب اقتصادية واجتماعية ، بعضها لا يزال غير واضح للديمغرافيين وغيرهم ممن يقومون بدراسة هذه الاتجاهات .

البعض يعزو استقرار معدل الخصوبة في مصر إلى الانخفاض في استخدام وسائل تنظيم الأسرة

في مصر ، البالغ عدد سكانها ٨١ مليون نسمة ، عزا البعض الانخفاض الشديد في معدل الخصوبة إلى عقود من البرامج الرسمية والبرامج غير الحكومية لتنظيم الأسرة . ففي الخمسينات ، كان معدل الخصوبة ٦,٣٧ أطفال للمرأة الواحدة . وانخفض إلى نحو ٣ في الفترة ٢٠٠٥-٢٠١٠ . وكان الهدف منذ عقد مضى أن يبلغ معدل الخصوبة مستوى الإحلال البالغ نحو ٢,١ بحلول عام ٢٠١٧ .

وتفيد التوقعات في الوقت الراهن بأن تاريخ بلوغ مستوى الإحلال أقرب إلى عام ٢٠٣٠ ، بل إن بعض الديمغرافيين وعلماء الاجتماع الذين ما فتئوا يرصدون استقرار حركة الانخفاض ويقومون بدراسات للظاهرة على مدى عدة سنوات يضعون هذا التاريخ موضع التساؤل . ويعزو بعض دعاة تنظيم الأسرة المحليين الاستقرار إلى تراخي تركيز الحكومة ووسائل الإعلام على حجم الأسرة في العقد الماضي .

وقال هشام مخلوف رئيس جمعية الديموغرافيين المصريين ، والأستاذ بمعهد الإحصاء في جامعة القاهرة "إن عدم بلوغ مستوى الإحلال سيكون مشكلة بالنسبة لمصر . فنحن نعاني بالفعل من نقص في مياه الشرب والري" . و نظراً لندرة الأراضي الصالحة للزراعة وكون المصريين لا يعيشون إلا على ٥ في المائة أو ٦ في المائة من التراب الوطني ، فإنه "يتعين أن تكون السياسة السكانية أولوية أي حكومة" ، وأضاف قوله "إنه في مجال تنظيم الأسرة ، نشهد ارتفاعاً في معدل الانقطاع عن استخدام وسائل منع الحمل ، فثلث النساء يتوقفن عن استخدامها قبل نهاية السنة الأولى" .

ومخلوف من أولئك الذين يعتقدون أن استقرار معدل الخصوبة يجد بعض التفسير في انتشار آراء محافظة بشأن المجتمع في مصر ، بعضها متأثر على مدى عقود بمد العمال المهاجرين وغيرهم من المترددين على دول الخليج .

ويقول جمال سرور ، مدير المركز الدولي الإسلامي للدراسات والبحوث السكانية بجامعة الأزهر ، وهو مركز لعلماء الدين الإسلامي ، إن استقرار معدل الخصوبة في مصر لا يمكن أن يعزى إلى الدين . وتشهد على ذلك تجارب البلدان الأخرى ذات الأغلبية المسلمة من قبيل تونس وإندونيسيا اللتين شهدتا انخفاضاً كبيراً في معدلات الخصوبة . وتعد معدلات الخصوبة في شمال أفريقيا ، حيث تتبوأ تونس مركزاً رائداً في مجال الصحة والحقوق الإنجابية ، معدلات أقل من مثيلاتها في بقية أفريقيا .

وقال سرور ، الذي يشغل أيضاً منصب رئيس الاتحاد الدولي لطب النساء والتوليد الذي يوجد مقره في لندن ، إن الأزهر وهي جامعة وصفها بأنها أكثر مؤسسات التعليم العالي محافظة في العالم الإسلامي ، قد أنشأت مركز البحوث

السكانية في عام ١٩٧٤ "لأننا كنا نريد توعية الناس بأن الإسلام ليس ضد تنظيم الأسرة ؛ والإسلام ليس ضد حماية صحة المرأة" . وقال إنه نشر دليلاً عن هذا الموضوع ، وساق مقتطفات من النصوص الدينية ، وأنه ينقل رسالته إلى مناطق نائية من قبيل أفغانستان عبر الأئمة الذين يقوم بتدريبهم .

ويشير سرور إلى ضرورة تحسين معلومات وخدمات الصحة الإنجابية الموجهة للشباب . ويقول إن البلد لا يمكن أن يسمح بما أسماه "الانفجار السكاني" أو بفشل في معالجة مشكلة الوفيات النفاسية ، والإجهاض غير المأمون وغير ذلك من المسائل الصحية الضارة بالفتاة والمرأة في مصر ، وكلها مسائل ترتبط بالرعاية الصحية الإنجابية . وقال "إننا لا نستورد أفكاراً غربية . ولا نستورد سياسة غربية . بل إننا نتحدث عن مشاكلنا" .

وبعد أن أجريت دراسة استقصائية للطلاب بشأن معرفتهم بالمسائل الجنسية والإنجابية وخلصت إلى نتائج "مروعة" ، قال إنه أدرج هذه المواضيع في البرامج الدراسية في الأزهر بدعم من إدارة الجامعة .

فرص استفادة المرأة المصرية الشابة من معلومات وخدمات تنظيم الأسرة

في منطقة شبه ريفية بالقرب من مدينة الإسماعيلية المصرية ، على الضفة الغربية لقناة السويس ، تقدم داليا شمس خدمات من مكتبها الضيق الذي يستخدم أيضاً كغرفة فحص في مركز للجمعية المصرية لتنظيم الأسرة يدعمه صندوق الأمم المتحدة للسكان عن طريق برنامج العيادات الصديقة للشباب . وتقضي شمس وقتاً طويلاً في الاستماع ، لاسيما للمراهقات . وتقول "نبدأ بدردشة حتى أكسب ثقتهن . فيتحدثن دون إخفاء أي شيء" .

"فالفتيات لا يعرفن عن الجنس إلا القليل بل إنهن خائفات . إذ يأتين للسؤال عن فقدان بكارتهن في الحمام أو بسبب ركوب حمار . ويسألن عن مشاكل الدورة الشهرية ، أو عن الالتهابات . وأحياناً تأتي الأم مع بنتها ، وهي خائفة أيضاً" . فتتحدث شمس إليهن بصراحة عن التربية الجنسية وكذلك عن التغذية والنظافة والحياة الصحية عموماً . وعندما تسألها الأم عما إذا كان ينبغي ختان ابنتها ، تقول شمس "يتعين علي أن أتناول المسألة بكياسة حتى لا أنفرها" . فجمعية تنظيم الأسرة تعارض هذه الممارسة ، التي لا تزال متفشية في مصر رغم أنها حُرمت قانوناً ويعتقد أنها في تقلص .

وتسدي شمس المشورة أيضاً للشابات والشبان المقبلين على الزواج . وقالت إن معظم الشابات اللواتي يترددن عليها يتزوجن بين سني الثامنة عشر والخامسة والعشرين ، وإن كان من غير الشائع أن تجد عرائس في سن السادسة عشرة ، في انتهاك للقانون ، في المنطقة الحضرية من الإسماعيلية ، حيث ترعرعت شمس . والشابات وأزواجهن من جميع الأعمار لا يعرفون سوى النزر القليل عما يمكن توقعه جنسياً ، حيث يتم التقيد بشدة بالعفة السابقة للزواج .

وعندما يحين وقت تنظيم الأسرة ، تعرض شمس وسائل منع الحمل الرحمية ، والرفالات ، ووسائل منع الحمل المحقونة والمزروعة والفموية . ويتعين عليها أن تنتظر إلى ما بعد الزواج لتقديمها لأن بكارة العروس يجب أن تكون سليمة يوم زفافها . وعندها تكون المرأة قد اطلعت على الخيارات المتاحة .

وقالت شمس "إن العديد من الرجال يحاولون منع تنظيم الأسرة . فأحاول التحدث إليهم حول صحة الأم وضرورة المباعدة بين الولادات . وأنصحهم بأن يتريثوا سنتين بين الولادات" .

داليا شمس ، طبيبة في العيادة الصديقة للشباب بالجمعية المصرية لتنظيم الأسرة في أبو عطوة ، قرب الإسماعيلية. © صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ماثيو كاسل

وقال سرور إن التخفيضات الحادة في المساعدات الدولية لتنظيم الأسرة على مدى العقدين الماضيين قد ساهمت في تباطؤ انخفاض الخصوبة في مصر. وانتقد من يعتبرون معونة تنظيم الأسرة تدخلاً ثقافياً أو أداة للسيطرة السكانية المتجاوزة وغير المقبولة. وقال إنه عندما تحرم المرأة المقهورة في البلدان الفقيرة من وسائل منع الحمل لأسباب أيديولوجية، فإن "هذا انتهاك لحقوق الإنسان".

وقال سرور "إن تنظيم الأسرة يمكن أن يمنع وفاة مليون طفل كل عام. ففي أفريقيا، تموت ٦٨٠٠٠ امرأة سنوياً بسبب الإجهاض غير المأمون لأن لديهن احتياجات [لتنظيم الأسرة] لم تلب. وبالتالي، لماذا لا توفر وسائل منع الحمل ؟" وفي مصر لا تلبى احتياجات ما تقديره ٩,٢ في المائة من المتزوجات أو من هن في حكم المتزوجات البالغات سن الإنجاب.

تفاعل القوى المؤيدة للخصوبة والمقيدة لاستخدام وسائل تنظيم الأسرة

تعمل التقاليد، وعدم المساواة بين الجنسين، والاعتقاد بأن الأسر الكبيرة هي علامة على الثروة والمفاهيم الخاطئة حول وسائل منع الحمل الحديثة على ثني العديد من النساء والرجال عن الاستفادة من خدمات تنظيم الأسرة في موزمبيق، حيث لا يعتمد على الأساليب الحديثة لمنع الحمل، من قبيل حبوب منع الحمل أو الرفالات إلا ١١,٨ في المائة من النساء البالغات سن الإنجاب.

وفي بعض المناطق من البلد، تكون إمدادات وسائل منع الحمل محدودة، وذلك أساساً بسبب صعوبة نقلها إلى مراكز التوزيع في المناطق النائية. ولكن انتشار وسائل منع الحمل ضعيف أيضاً لأن الطلب عليها قد يكون منخفضاً في بعض المناطق.

وتقول باتريشيا غوزمان، ممثلة صندوق الأمم المتحدة للسكان في مابوتو، إنه بالنسبة لفقراء

كارلوس أرنالدو، أستاذ الديموغرافيا بجامعة إدواردو موندلين، مابوتو، موزامبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ بيدرو سا دا باندييرا

الريف في موزامبيق، قد يكون مفهوم تنظيم الأسرة برمته غير وارد. "فكيف'تنظم' أسرتك عندما يتعذر عليك أن تنظم أي جانب آخر من جوانب حياتك ؟ فمسألة عدد الأطفال الذين ترغب في إنجابهم تخرج عن إطار معظم الناس".

غير أنه يستفاد عموماً، من الصورة التي وضعها البنك الدولي للصحة الإنجابية في نيسان/أبريل ٢٠١١ في موزامبيق أن للبلد طلباً "عالياً" لم يلب في مجال خدمات تنظيم الأسرة، مما يعني أن "المرأة ربما لا تحقق حجم الأسرة المرغوب فيه".

واستناداً إلى المديرية الوطنية للدراسات وتحليل السياسات في وزارة التخطيط والتنمية في موزامبيق، ارتفعت الاحتياجات غير الملباة لتنظيم الأسرة فعلاً، مما يدل على أن المزيد من النساء والأزواج يعلمون بصورة متزايدة بوجود وسائل منع الحمل، وأن النظام الصحي غير قادر على تلبية الطلب على هذه المواد.

ويقول كارلوس أرنالدو، أخصائي الديموغرافيا في جامعة إدواردو موندلين في مابوتو إن وسائل تنظيم الأسرة متاحة بصورة متزايدة في المناطق الحضرية، ولكن "الوضع الثقافي" يمنع الكثيرين من الاستفادة منها. ويقول "إنه يجري تنفيذ تنظيم الأسرة، ولكن النساء لسن هن صانعات القرار. فالرجال يناهضون تنظيم الأسرة لأنهم يريدون المزيد من الأطفال".

ويقول ليوناردو شافان من وزارة الصحة إن على موزامبيق أن تعجل بتوفير فرص حصول المرأة على معلومات بشأن الوسائل الحديثة لتنظيم الأسرة وتوسيع نطاق تلك الفرص ، حتى يفهم المزيد من الناس أنها مأمونة وأن بإمكانها أن تحسن عيشهم . كما يلزم أن تغير موزامبيق النهج المتبع تجاه تنظيم الأسرة لتجعله نهجاً شاملاً للرجال . وأضاف قائلاً "يركز تنظيم الأسرة في موزامبيق على النساء حتى الآن . ونبذل في الوقت الراهن المزيد من الجهد للتواصل مع الأسرة بأكملها ، وتشجيع النقاش وزيادة الطلب على خدمات تنظيم الأسرة" . والرغبة في إنشاء أسرة كبيرة لا تقتصر على الرجال . فاستناداً إلى استطلاع أجري عام ٢٠٠٣ ، ترغب المرأة عموماً في موزامبيق في إنجاب عدد من الأطفال يبلغ في المتوسط ٥,٣ أطفال .

وتقول غوزمان ممثلة الصندوق ، إنه في موزامبيق ، على غرار ما عليه الأمر في العديد من البلدان الأخرى ، تدرج خدمات تنظيم الأسرة بصورة متزايدة في برامج الصحة الجنسية والإنجابية ، بما في ذلك الوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية . والهدف هو بناء التآزر الذي من شأنه أن يخفض من حالات الحمل غير المخطط له ويقلص معدلات الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية . ولذلك فإن خدمات تنظيم الأسرة في الوقت الراهن تقدم أيضاً فحوصاً لفيروس نقص المناعة البشرية ، مستكملة الفحوص التي يوفرها القائمون بالرعاية السابقة للولادة . وتشجع خدمات الوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية وعلاجه استخدام الرفالات وتوفر العقاقير المضادة للفيروسات العكوسة للأمهات الحوامل لمنع انتقال الفيروس إلى مواليدهن . وتشكل الخدمات المتكاملة القاعدة فعلاً ، من خلال مبادرة جيرشاو بيز ، وهي جهد مشترك بين ثلاث وزارات لمنع الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية والحمل غير المخطط له في صفوف سكان البلد الشباب الذين تتزايد أعدادهم بسرعة .

واستناداً إلى صموئيل ميلز ، كبير أخصائيي الصحة في البنك الدولي ، فإن بإمكان موزامبيق ، والعديد من البلدان الأخرى ، أن تقوم بالمزيد لتوضيح فوائد استخدام وسائل منع الحمل ، والمباعدة بين الولادات وتشكيل أسر أصغر حجماً .

"ويلزمنا أن نقول للرجال ، إن من المجدي اقتصادياً المباعدة بين الولادات أو الإقلال من إنجاب الأطفال: فإذا كان لديك عدد أقل من الأطفال ، فإنك ستكون أقدر على تحمل تكاليف تعليمهم ، وستنفق قدراً أقل من المال على إطعامهم . أما بالنسبة للنساء ، فينبغي إبلاغهن بأن المباعدة بين الولادات تعني أطفالاً أصحاء وأمّا تنعم بالصحة" .

ويقول شافان من وزارة الصحة في موزامبيق إن استخدام وسائل منع الحمل كان سيرتفع في

▼ أمهات وأطفالهن ينتظرن عرض أنفسهن على طبيب في الجمعية المصرية لتنظيم الأسرة في أبو عطوة، قرب الإسماعيلية .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ماثيو كاسل

ذلك البلد لو أتيحت للمزيد من النساء فرص الحصول على معلومات . ويقول شافان "إننا لا نسعى إلى إقناع الناس بأن يشكلوا أسراً صغيرة . بل إننا نشجع النساء على الانتظار قبل أن يحبلن للمرة الأولى . ونقول لهن إن عليهن المباعدة بين الولادات لكي ينجبن أطفالاً أصحاء وتكون صحة الأمهات سليمة" . ويقول شافان إن الحكومة قد بدأت حملة للتوعية بفوائد المباعدة بين الولادات وتوظف لهذا الغرض شخصيات معروفة ، مثل السيدة الأولى ماريا دا لوز غيبوزا ، لنصرة قضية تنظيم الأسرة .

الحد من حالات الحمل عن طريق التعقيم في الهند

يعد التعقيم أسلوباً أكثر شيوعاً من بين أساليب منع الحمل الحديثة القليلة والمتاحة مجاناً من خلال الخدمات التي تديرها الحكومة في الهند . فقد عُقم في الهند ما يزيد على ٣٧ في المائة من النساء اللواتي يستخدمن وسائل حديثة لمنع الحمل ، و ١ في المائة من الرجال ، وفقاً لشعبة السكان التابعة لإدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية . وعلى المستوى العالمي ، يستأثر التعقيم بمعدل ١٨,٩ في المائة من وسائل منع الحمل الحديثة التي تستخدمها المرأة و ٢,٤ في المائة من وسائل منع الحمل التي يستخدمها الرجل . وتمثل الرفالات في الهند ، على سبيل المثال ، نسبة ضئيلة تكاد لا تتعدى ٥ في المائة من مجموع وسائل منع الحمل . أما حبوب منع الحمل فلا تستخدمها إلا ٣,١ في المائة من النساء . ولا توفر الحكومة وسائل منع الحمل عن طريق الحقن .

وقال أ . ر . ناندا ، مفوض سابق للتعداد ، ووزير الصحة ورعاية الأسرة في الحكومة المركزية ثم المدير التنفيذي للمؤسسة السكانية المستقلة للهند لاحقاً ، إنه ما فتئ "يرفع عقيرته بالمطالبة" بإجراء دراسة لتحديد الأسباب التي تجعل استخدام التعقيم يفوق بصورة غير متناسبة وسائل منع الحمل الأخرى ، ولمعرفة ما إذا كان يستوفي جميع المعايير الوطنية للجودة والسلامة والاختيار . فبالنسبة للجودة والسلامة ، قال ناندا إن مجموعة من محامي المصلحة العامة رفعت دعوى قضائية ضد الحكومة بشأن الطريقة التي تم بها تنفيذ عمليات التعقيم الطبي في مواقع مؤقتة يشار إليها عادة باسم "المخيمات" ، مما أدى إلى صدور حكم للمحكمة العليا يستوجب على جميع الأطباء ومسؤولي المخيم على الصعيد الوطني الالتزام بالمعايير الوطنية للجودة والسلامة والمعايير الإجرائية . وقال ناندا إنه بموجب هذه المعايير ، لا يسمح للطبيب بإجراء أكثر من ٣٠ عملية تعقيم في اليوم . "ففي الماضي ، كان بعضهم يجري ٥٠ أو ٦٠ عملية تعقيم في اليوم" ، مضيفاً قوله إنه يتوقع أن يفضي تطبيق معايير الجودة إلى الحد من المضاعفات . وما فتئ ضمان حرية الاختيار في اتخاذ الأفراد لقرار بالخضوع لعمليات تعقيم لا رجعة فيها يشكل أولوية لدى دعاة الصحة الإنجابية ومناصري حقوق الإنسان منذ السبعينات عندما كانت الحكومة تسعى إلى كبح جماح النمو السكاني ، وذلك باستخدام التعقيم القسري جزئياً .

وقال "إن هاجس بلوغ غايات محددة سلفاً تشكل أكبر آفة في الهند" ، إشارة إلى عدد عمليات التعقيم التي يتوقع من أطباء التعقيم أن يجروها يومياً أو شهرياً في بعض بقاع البلد . وقال إنه يعتقد أنه ينبغي التخلي عن نزعة الإفراط في تحديد الغايات والقيام بدلاً من ذلك بتقديم خدمات تنظيم الأسرة ، بما في ذلك وسائل منع الحمل ، لا بمعزل عن البرنامج الحكومي للصحة الإنجابية المتكاملة بل في إطاره . وقال إن "نهج الصحة الإنجابية هي فكرة أفضل بكثير . وهي أكثر فعالية ونفعاً للمرأة" .

وقد أوردت وسائط الإعلام تقارير عن غايات حُددت وحوافز قُدمت لإجراء عمليات تعقيم في بعض مناطق البلاد ، وهذا ما ينافي السياسة الوطنية ، استناداً إلى مكتب دلهي لصندوق الأمم

المتحدة للسكان ، الذي يقول إنها تعرض هذه التقارير على أنظار الحكومة بغرض اتخاذ إجراء .

وتولت بونام موتريجا منصب المدير التنفيذي للمؤسسة السكانية للهند خلفاً لناندا ، وهي منظمة غير حكومية قوية ونافذة تقوم بأبحاث وبأعمال الدعوة بشأن طائفة واسعة من القضايا السكانية والصحية والجنسانية . وقالت إن محدودية خيارات وسائل منع الحمل ــ المائلة نحو التعقيم ــ والتي يتيحها موردون حكوميون مجاناً في الهند ، تشكل في الوقت ذاته رادعاً وخطراً محدقاً بالمرأة . وأضافت قائلة "إن [الحاجة] غير الملباة إلى وسائل منع الحمل ليست قصوراً في الطلب ، بل إن الطلب موجود ، لكن العرض ليس كذلك" .

وقالت موتريجا إن بالإمكان تخفيض معدل الوفيات النفاسية في الهند البالغ ٢٣٠ وفاة في كل ١٠٠٠٠٠ حالة حمل ، بتوفير خدمات أحسن وأشمل لتنظيم الأسرة ، مما سيفضي إلى إنقاذ العديد من الأرواح . وأضافت قولها "إن ثمة ما يزيد على ١٠ ملايين حالة إجهاض في الهند ، معظمها لدى النساء المتزوجات . وهذا وضع مأساوي" . وقالت إن الوفيات الناجمة عن مضاعفات الإجهاض تمثل ٨ في المائة من الوفيات النفاسية .

وقد أظهرت الدراسات أن معدلات الخصوبة قد انخفضت بحدة في بلدان من قبيل البرازيل والمكسيك ، حيث يتبع نهج "الكافيتريا" في اختيار وسائل منع الحمل ــ بعرض طائفة كاملة منها . ولقد عملت نهج مماثلة على استقرار النمو السكاني في العديد من بلدان شرق آسيا وجنوب شرقها . ولكن عندما يكون التعقيم هو الخيار الأكثر شيوعاً أو الخيار الوحيد ، فإن معدلات الخصوبة قد ترتفع فعلاً: إذ قد تنتظر المرأة حتى يكون لها من الأطفال ما يفوق العدد الذي كانت ستنجبه لو أنها كانت تباعد بين الولادات ، قبل أن تنظر في إمكانية الخضوع لهذا الإجراء الذي لا رجعة فيه ، وهذا ما توحي به أبحاث قامت بها زوي ماثيوز وآخرون في معهد ماكس بلانك للبحوث الديمغرافية .

عدم المساواة بين الجنسين وارتفاع معدلات الخصوبة

في المركز الصحي لبوان الواقع على مبعدة حوالي ساعة خارج العاصمة الموزامبيقية مابوتو ، تقول آنا ماريا ، الأم الحامل: "أريد ثلاثة أطفال" ، وتشير إلى بطنها بينما كانت تنتظر الفحص في إطار الرعاية السابقة للولادة . وتقول "لدي بالفعل طفلان ــ صبي وبنت ــ وأريد أن يكون هذا آخر مولود لي" ، مشيرة إلى أن تربية الأطفال مكلفة وأنها تفضل توظيف المال في بناء بيت جديد ، بيت من أربع غرف .

وفي الوقت نفسه ، في سوق عشوائي في ضواحي مابوتو ، تقول أسوسينا ، بائعة الطماطم البالغة من العمر ٢٢ عاماً ، إنها لا تريد إنجاب سوى ثلاثة أطفال . وتقول النساء العاملات في الأكشاك المجاورة إنهن جميعاً لا يرغبن إلا في إنجاب طفلين أو ثلاثة .

غير أنه رغم ما تقوله هؤلاء النسوة وغيرهن ، فإن النساء الموزامبيقيات ينجبن في المتوسط نحو خمسة أطفال في حياتهن ، ومن يعشن في بعض المناطق الريفية ينجبن في المتوسط ما يقرب من سبعة أطفال .

فلماذا هذا الانفصام بين عدد ما ترغب فيه النساء من أطفال وعدد ما ينجبنه فعلاً ؟

استناداً إلى عدد من خبراء السكان والتنمية ووكالات المعونة في موزامبيق ، فإن ارتفاع معدلات الخصوبة يعزى جزئياً إلى الوضع المتدني للمرأة وما يقترن به من ندرة في الفرص الاقتصادية والاجتماعية .

فموزامبيق تحتل المرتبة ١١١ في ترتيب ١٦٩ بلداً وفقاً لشدة عدم المساواة بين الجنسين . ويقيس "مؤشر عدم المساواة بين الجنسين" الذي استحدث في طبعة عام ٢٠١٠ من تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ،

عدم المساواة بين المرأة والرجل في مجال الصحة الإنجابية والمشاركة السياسية وفرص كسب الدخل والتعليم. ويتبين من هذا المؤشر ضياع ما يقارب ثلاثة أرباع التنمية البشرية في موزامبيق بسبب هذه الفوارق، ولا سيما في مجال الصحة الإنجابية.

وورد في إطار عمل الأمم المتحدة للمساعدة الإنمائية لموزامبيق لفترة ٢٠١٢ - ٢٠١٥ أن "استمرار عدم المساواة بين الجنسين يعني أن النساء والأطفال يعانون معاناة غير متناسبة من الفقر وانعدام الأمن الغذائي والمرض".

ويقول الخبير الديمغرافي كارلوس أرنالدو، "إن المرأة ليست من صناع القرار" في موزامبيق، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بالخيارات المتعلقة بعدد الأطفال الذين ترغب في إنجابهم وتوقيت ذلك الإنجاب.

ومن الأعراض التي تدل على وضع لا تكون فيه للمرأة حرية في اتخاذ قرارات رئيسية في الحياة، بما فيها تلك القرارات المتعلقة بالإنجاب، تفشي العنف المنزلي على نطاق واسع رغم أن القانون جرمه في عام ٢٠٠٩. وتقول بيرتا شيلاندو، نائبة رئيس مجلس منظمة المرأة والقانون والتنمية، وهي منظمة غير حكومية تقدم المساعدة القانونية والدعم النفسي للنساء ضحايا العنف "إن العنف ضد المرأة في موزامبيق يرتبط ارتباطاً مباشراً بالوضع الاجتماعي للمرأة مقارنة بالرجل".

لقد لجأت ماريا فاطمة (٤٣ عاماً) إلى تلك المنظمة العام الماضي للحصول على دعم عندما تبين لها أنها لم تعد تطيق العيش مع شريك حياتها الذي بدأ يضربها بعد أن مضت سنتان على علاقتهما. وقالت "عندما التقيت به في عام ١٩٩٥، كنت أشتغل في هيئة السكك الحديدية، وأدرس الاقتصاد في الجامعة. لكن في تلك السنة أصبحت حاملاً، فأجبرني شريكي على ترك وظيفتي والانقطاع عن الدراسة. وهذا ما جعلني أعتمد عليه اعتماداً كلياً".

بيرتا شيلوندو، محامية ونائبة رئيسة منظمة المرأة والقانون والتنمية، وهي منظمة غير حكومية ترمي إلى تحسين وضع المرأة في موزامبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ بيدرو سا دا باندييرا

وبعد سنوات من العنف العائلي المتواصل، رحلت فاطمة وأبلغت الشرطة بآخر حادث فلاحقوا شريكها بموجب قانون سُن قبل ذلك بسنتين وجعل من العنف العائلي "جريمة عامة"، مما يعني أنه عندما توجه التهم، لا يمكن إسقاطها، ولو بناء على طلب الضحية.

وتقول شيلوندو من منظمة المرأة والقانون والتنمية إن العنف العائلي في موزامبيق ينشب أحياناً نتيجة إصرار المرأة على رغبتها في استخدام وسائل تنظيم الأسرة أو التماسها إلى شريكها استخدام الرفال عند ممارسة الجنس.

والعديد من النساء أنفسهن يعتقدن أنهن تستأهلن الضرب. وقد خلص استطلاع ديمغرافي وصحي أجري عام ٢٠٠٣ إلى أن ما يزيد على امرأة واحدة من كل ثلاث نسوة على الصعيد الوطني يعتقدن أن الضرب مبرر لأسباب تتراوح بين احتراق وجبة العشاء عند الطهي أو عدم التحية لدى توديع شريكها عند خروجه. وقبول العنف المنزلي أكثر شيوعاً في المناطق الريفية، إذ ترتبط مستويات قبوله ارتباطاً عكسياً بمستوى التعليم الذي تلقته المرأة.

الاحتياجات غير الملباة لتنظيم الأسرة ما تزال مرتفعة

في عام ٢٠٠٥ ، تعهد مؤتمر القمة العالمي للأمم المتحدة بتعميم فرص الاستفادة من خدمات الصحة الإنجابية بحلول عام ٢٠١٥ ، على نحو ما وعد به في الغاية باء من الهدف ٥ من الأهداف الإنمائية للألفية ، وقرر أن يكون قدر من الاحتياجات غير الملباة إلى وسائل منع الحمل مؤشراً على التقدم المحرز نحو تحقيق هذا الهدف . وفي عام ٢٠١١ ، نشرت شعبة السكان التابعة لإدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية أحدث البيانات عن وسائل منع الحمل في جميع أنحاء العالم ، ويتبين منها أنه إذا كان استخدام وسائل منع الحمل في ارتفاع مستمر ، فإنه لا يزال ثمة ٤٦ بلداً لا تلبى فيها حاجة ٢٠ في المائة أو أكثر من النساء المتزوجات أو اللواتي يعشن في إطار عشرة إلى وسائل منع الحمل . وظلت الحاجة غير الملباة إلى تنظيم الأسرة في نفس المستوى المتراوح بين المستوى المتوسط والمستوى العالي في معظم المناطق منذ عام ٢٠٠٠ ، ولكن أعلى المعدلات هي تلك التي سجلت في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ومنطقة البحر الكاريبي .

نسبة النساء ذوات الاحتياجات غير الملباة إلى تنظيم الأسرة من بين النساء اللواتي تتراوح أعمارهن بين ١٥ و ٤٩ سنة ، المتزوجات أو المقترنات ، في الأعوام ١٩٩٠ و ٢٠٠٠ و ٢٠٠٨ (النسبة المئوية)

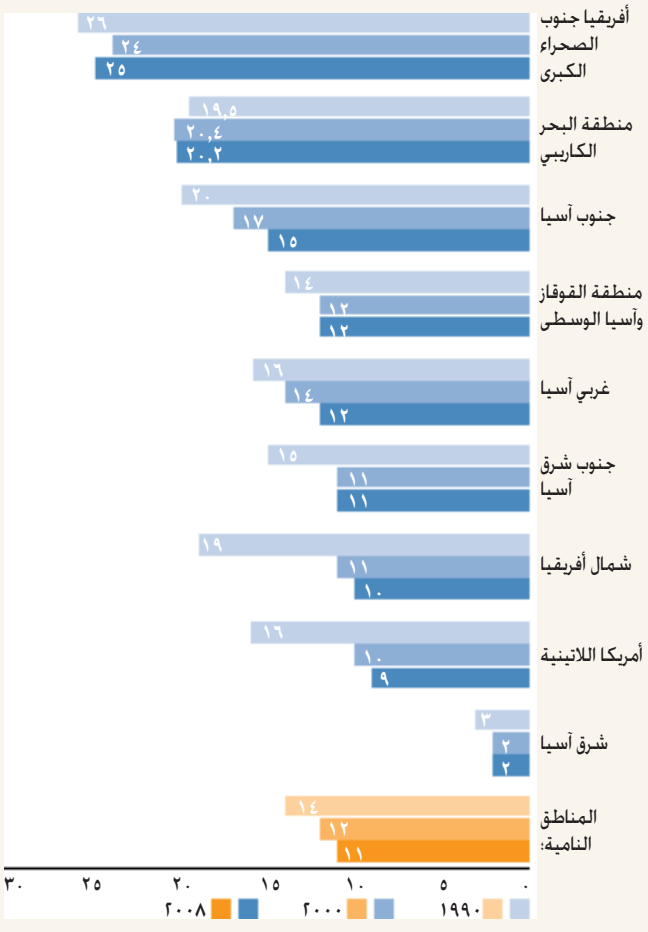

المصدر : تقرير الأهداف الإنمائية للألفية لعام ٢٠١١ . الأمم المتحدة

وتقول غراسا سامو ، المديرة التنفيذية لمنتدى مولر ، وهي مجموعة تدافع عن حقوق المرأة والنهوض بها ، إن تعليم المرأة أمر حاسم لتصحيح أوجه التفاوت بين الجنسين في موزامبيق ولكن لا يمكن حلها دون القيام أيضاً بتغيير الطريقة التي تتم بها تنشئة الفتيات والتي تؤدي إلى تدني ما يتوقعنه لأنفسهن . فالمرأة تلقن بأن "الرجل هو سبيلها للخلاص . ووضع المرأة رهين بوضع الرجل – زوجاً كان أم أباً أم أخاً" .

وتذهب سامو إلى القول بأن تسوية قواعد اللعبة بين المرأة والرجل لا تتطلب تدخلات من جانب الدولة والمؤسسات غير الربحية فحسب ، بل تتطلب أيضاً تدخلاً من الأسر التي يمكن أن يكون لها تأثير هائل على الكيفية التي تستوعب بها الفتيات والفتيان أنفسهم وعلاقة بعضهم ببعض في المجتمع . ولئن كان من المهم تنشئة الفتيات بطريقة تشجعهن على إدراك مواطن قوتهن وإمكانياتهن ، فإن من المهم أيضاً تغيير الطريقة التي يتم بها تنشئة الفتيان حتى يفهموا في وقت مبكر من الحياة أن المساواة بين الجنسين بالنسبة للرجل والمرأة تعود بالنفع على الجميع .

تفضيل الفتيان

في الهند ، تقلق الآثار المترتبة على تفضيل الأطفال الذكور الديموغرافيين ووسائط الإعلام وصانعي السياسات وغيرهم بسبب إخلالها بالنسبة بين الجنسين وبسبب الرسالة التي توجهها والتي تظهر إلى أي حد يقوم المجتمع بتبخيس قيمة الفتيات . وقد أبرزت هذه المسألة نتائج التعداد الوطني للسكان لعام ٢٠١١ ، والتي أظهرت أنه في الفئة العمرية من الولادة إلى ٦ سنوات من العمر انخفض عدد الفتيات إلى ٩١٤ لكل ١٠٠٠ فتى مما أدى إلى اتساع نسبة عام ٢٠٠١ المتمثلة في ٩٢٧ فتاة لكل ١٠٠٠ فتى . والنسبة الجديدة بين الجنسين لدى الأطفال هي أكبر فجوة منذ الاستقلال في عام ١٩٤٧ . ويفترض على نطاق واسع أن من الأسباب

الرئيسية لهذا الوضع الشاذ الإجهاض بسبب نوع الجنين ، رغم أنه غير مشروع ، والإهمال الفادح في بعض الأحيان للفتيات بعد ولادتهن . وقد أصبح استخدام الموجات فوق الصوتية لتحديد نوع الوليد أقل تكلفة وهو متاح على نطاق واسع في جميع أنحاء البلد ، رغم أن هذا الإجراء غير قانوني .

ويصف سي ـ شاندراموليِ ، الأمين العام للسجلات ، ومفوض التعداد في الهند ، والذي قاد تعداد ٢٠١١ ، هذا الاتجاه بأنه مصدر قلق بالغ . وقال إنه يرى في ذلك مشكلة اجتماعية ، لا مشكلة ديمغرافية ، وقد تفاقمت بسبب فشل السلطات في تنفيذ القوانين المناهضة لاختيار نوع الجنس وذلك عن طريق مراقبة العيادات التي تروج لتكنولوجيا الموجات فوق الصوتية . وأضاف قوله إن "التكنولوجيا هي المتهم الرئيسي" . وقال إن السبيل الوحيد للخروج مما أسماه بعض النقاد "بوأد البنات" هو القيام بحملة اجتماعية معززة بالمزيد من الحوافز الحكومية الفعالة ، لتحسين وضع الطفلة .

وتؤيد وجهة نظره منظمات دولية . ففي منشور لعام ٢٠١١ مشترك بين الوكالات تحت عنوان منع اختيار نوع الجنين على أساس متحيز جنسانياً، الصادر عن منظمة الصحة العالمية ، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) ، وهيئة الأمم المتحدة للمرأة ومفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان ، لوحظ أن صحة المرأة في أي مكان تقوض عندما تمارس الأسرة ضغوطاً حملاً بعد حمل سعياً إلى مولود ذكر . ويشير خبير الشؤون الجنسانية في صندوق الأمم المتحدة للسكان ، غايل نيلسون ، إلى أنه في بعض الحالات ، تُكره النساء على الإجهاض غير المأمون ، بل ويتعرضن للعنف إن هن وضعن أنثى .

وقال البيان المشترك بين الوكالات "إن اختلال النسب بين الجنسين مظهر غير مقبول من مظاهر التمييز الجنساني ضد الفتاة والمرأة ، ويشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان الواجبة لهما" . لكنه قال أيضاً إن تقنيات مثل التصوير بالموجات فوق الصوتية وبزل السائل الأمنيوني ليست السبب الجذري للمشكلة . وقالت الوكالات إنه عندما تسعى الحكومات إلى تقييد أو منع إساءة استخدام التكنولوجيات ، "تشير التجربة إلى أن القيود القانونية بمعزل عن السياسات الاجتماعية الأوسع نطاقاً وغيرها من التدابير الرامية إلى معالجة

▼ غراشا سامو ، المديرة التنفيذية لمنتدى مولر ، مابوتو ، موزامبيق.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ بيدرو سا دا باندييرا

المساواة بين الجنسين

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

... تحسين مركز المرأة يعزز أيضاً قدرتها على صنع القرار على جميع المستويات في مجالات الحياة كلها ، وبخاصة في مجال الجنس والإنجاب . وهذا ، بدوره ، أمر أساسي لنجاح البرامج السكانية على المدى الطويل . ... ويضطلع الرجل بدور رئيسي في تحقيق المساواة لأن الرجل ، في معظم المجتمعات يمارس سلطة راجحة في جميع جوانب الحياة تقريباً ، ابتداء من اتخاذ القرارات الشخصية بشأن حجم أسرته وانتهاء بالقرارات التي تُتخذ على جميع مستويات الحكومة فيما يتعلق بالسياسة العامة والقرارات البرنامجية .

الأعراف الاجتماعية العميقة الجذور وإحداث تغيير في السلوك قد لا تكون فعالة ، بل ربما تؤثر تأثيراً ضاراً على حقوق الإنسان والحقوق الإنجابية الواجبة للمرأة" .

ويرى شاندراموليي بصيصاً من الأمل ، في معرض إشارته إلى نتائج التعداد السكاني الهندي لعام ٢٠١١ التي تفيد بأنه في عدد قليل من الولايات التي كانت لها فيما مضى أكبر الفجوات في النسب بين الجنسين لدى الأطفال بدأت الفجوة تضيق قليلاً ، على الرغم من أن عدة ولايات أخرى تسير في الاتجاه المعاكس ، إذ تنحدر نسبة الإناث إلى الذكور إلى مستوى ٨٠٠ ، أي إلى مستوى يقل كثيراً عن المتوسط الوطني البالغ ٩١٤ إلى ١٠٠٠ .

وفي الهند ، تساق حجج اقتصادية تقليدية ضد إنجاب الإناث ، اللواتي غالباً ما يُعتبرن أعباء مالية بسبب غلاء المهور التي يتعين على الآباء دفعها لضمان زوج صالح أو لأن المرأة لا يمكنها أن تضيف الكثير لدخل الأسرة . واستناداً إلى بونام موتريجا ، المديرة التنفيذية للمؤسسة السكانية للهند ، يمكن دحض هذه الحجج . "إذ يمكننا جمع الأدلة التي تثبت بأن الفتيان والفتيات معاً يمكنهم دعم الأسر . فالهند لم تستثمر في المرأة وفي قضايا الناس عامة" .

ويقول ناندا ، الوزير السابق للصحة ورعاية الأسرة في الهند ، إن تفاقم النسبة بين الجنسين لدى الأطفال "مشكلة خطيرة للغاية" ويجب النظر إليها في سياق انخفاض معدلات الخصوبة . ويشير ناندا وآخرون إلى العديد من البيانات التي تفيد بأن العديد من عمليات الإجهاض بسبب نوع الجنين إن لم يكن معظمها يرتب لها أناس موسرون في الأحياء الراقية بالمناطق الحضرية بسبب رغبتهم في تشكيل أسر صغيرة . وعندما يلبي تفضيل الأسر الصغيرة الطلب على الأبناء ، فإن إجهاض الأجنة الإناث قد يكون هو النتيجة . ويقول ناندا إن الحوافز النقدية البالغ قدرها بضعة آلاف روبية لا تغري الآباء الموسرين .

وأضاف "إنهم يقدمون تحويلات نقدية لتربية وتعليم الفتيات ، ثم لا ينفذون قوانين المهر أو الملكية . فيصبح الأمر مجرد عمل رمزي" . وبوصفه مسؤولاً بارزاً غير سياسي في وزارة الصحة ، كان ينصب شراكاً في عيادات الأطباء لضبط الأطباء المستعدين للقيام بعمليات غير قانونية لتحديد نوع الجنين باستخدام الموجات فوق الصوتية ، على سبيل المثال ، وتمكن من إلقاء القبض على البعض منهم . واستدرك قائلاً "لكن تتعين ملاحقتهم قضائياً على النحو الواجب" . غير أن هذا لم يحدث لحد الآن .

الأسر الكبيرة كضمان اجتماعي

في موزامبيق ، وخصوصاً في الشمال الريفي ، يرمز الأطفال إلى الثروة . فالمزيد من الأطفال يعني المزيد من العون على القيام بالأعمال المنزلية والمزيد من اليد العاملة في مزرعة الأسرة . كما أن المزيد من الأطفال يعني المزيد من الضمان للوالدين عندما يتقدم بهما السن .

وتقول غراسا سامو ، المديرة التنفيذية لمنتدى مولر MULHER ، "إن الأطفال يمثلون رأس

الصحة والحقوق الإنجابية

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

... الصحة الإنجابية ... تعني ... قدرة الناس ... على الإنجاب وحريتهم في تقرير الإنجاب وموعده وتواتره . ويشتمل هذا الشرط الأخير ، ضمناً ، على حق الرجل والمرأة في معرفة واستخدام أساليب تنظيم الأسرة المأمونة والفعالة والميسورة والمقبولة في نظرهما ، وأساليب تنظيم الخصوبة التي يختارانها والتي لا تتعارض مع القانون ، وعلى الحق في الحصول على خدمات الرعاية الصحية المناسبة التي تمكن المرأة من أن تجتاز بأمان فترة الحمل والولادة ، وتهيئ للزوجين أفضل الفرص لإنجاب وليد متمتع بالصحة . ... [و] تشمل الحقوق الإنجابية بعض حقوق الإنسان . ... وتستند هذه الحقوق إلى الاعتراف بالحق الأساسي لجميع الأزواج والأفراد في أن يقرروا بأنفسهم بحرية ومسؤولية عدد أولادهم وفترة التباعد فيما بينهم وتوقيت إنجابهم ، وأن تكون لديهم المعلومات والوسائل اللازمة للقيام بذلك .

مال الأسرة . فما فتئ إنجاب الأطفال يعد طريقة لاكتساب السلطة" .

واعتبار الأطفال ثروة منطقي في بلد تقل فيه الثروة المالية . فموزامبيق التي تبلغ فيها حصة الفرد من الدخل المحلي الإجمالي ٤٤٠ دولاراً ، تحتل المرتبة الرابعة عشرة بين أفقر الدول ، حيث يعيش ثلاثة أرباع السكان على ١,٢٥ دولار في اليوم .

ويعيش حوالي ٧٠ في المائة من السكان في المناطق الريفية ، ويعتمد معظمهم على زراعة الكفاف ، استناداً إلى إطار عمل الأمم المتحدة للمساعدة الإنمائية لموزامبيق للفترة ٢٠١٢-٢٠١٥ : "فالانخفاض الشديد للإنتاجية الزراعية ، إلى جانب شدة الضعف أمام الصدمات المناخية يعني أن أعداداً غفيرة من السكان تعاني من انعدام الأمن الغذائي المزمن ، وأن الدخل المتأتي من المنتجات الزراعية منخفض ولا يمكن التعويل عليه" .

ففي هذه المناطق الريفية ذاتها تبلغ معدلات الخصوبة أعلى مستوى ، وتنخفض مستويات التعليم إلى أدنى مستوى ، ويكون الزواج المبكر أكثر شيوعاً ، وتقل نسبياً أعداد مستخدمي وسائل تنظيم الأسرة .

ويقترن بالفقر قصر العمر المتوقع وارتفاع معدلات وفيات الأمهات وأطفالهن . واستناداً إلى صموئيل ميلز ، كبير أخصائيي الصحة في البنك الدولي "ينجب الناس المزيد من الأطفال عندما يكون معدل وفيات الأطفال مرتفعاً . وحيثما تنخفض وفيات الأطفال ، تقل حاجة الناس إلى تشكيل أسر كبيرة" .

ويقول أنطونيو فرانسيسكو ، وروسيمينا علي وياسفير إبرايمو من معهد الدراسات الاجتماعية والاقتصادية في مابوتو إن "إنجاب الكثير من الأطفال كان لفترة طويلة ، ولا يزال حتى اليوم ، الشكل الرئيسي للحماية الاجتماعية في موزامبيق" . ويقولون إنه لما كانوا في معظمهم لا يستطيعون أن يعولوا على الحكومة في توفير دخل لهم عندما يتقدم بهم العمر ويعجزون عن العمل ، فإنهم ينشئون شبكات للضمان الاجتماعي خاصة بهم عن طريق إنجاب الأطفال . ويحاججون بالقول "إن انجاب الأطفال هو الشكل الرئيسي للحماية الاجتماعية لمعظم السكان" في موزامبيق .

▲ دار حضانة لطائفة الروما في جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة.
© VII/أنطونين كراتوشفيل

عندما تكون زيادة عدد المواليد أمراً مرغوباً فيه

إن ما يثير الجزع في أوروبا ، من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها ، هو انخفاض معدلات الخصوبة ، وليس النمو السكاني ، وقد اعتمدت بعض الدول برامج الحوافز لتشجيع إنجاب المزيد من الأطفال . وهذه السياسات ، المسماة بالسياسات المشجعة للإنجاب ، كثيراً ما تقترن بحوافز مغرية للأسر تشجعها على إنجاب المزيد من الأطفال من أجل الحفاظ على النمو الاقتصادي الوطني . والعديد من النساء اللواتي سئلن عن هذا الأمر في أوروبا المنخفضة الخصوبة يرين فيما يبدو أن هذا السبب استثنائي إن لم يكن سبباً غير مقبول لإضافة طفل أو طفلين

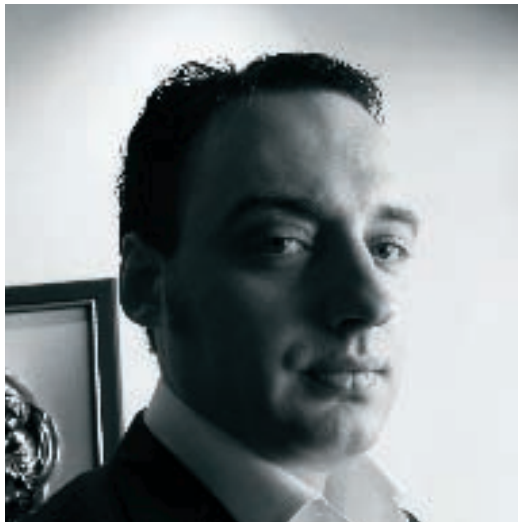

سبير ريتوفسكي ، نائب وزير العمل والسياسة الاجتماعية في جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة .
© VII/أنطونين كراتوشفيل

آخرين للأسرة ، حتى ولو تعلق الأمر بمال أو حوافز أخرى .

ففي عاصمة جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة ، سكوبيه ، سرعان ما تساق في حديث مع سبيرو ريستوفسكي ، نائب وزير العمل والسياسة الاجتماعية ، بعض الأرقام لتبرير سياسة جديدة مشجعة للإنجاب . فيقول ، مثلاً ، أن بعض أرباب العمل يقضون فترة تتراوح بين ستة أشهر وتسعة أشهر في البحث عن شخص لشغل وظيفة في الوقت الذي يسعى فيه البلد إلى تعزيز اقتصاده ودمجه في أوروبا والعالم بأسره . ولقد نشأ البلد فقيراً نسبياً بعد تفكك يوغوسلافيا في التسعينات .

وانخفض معدل الخصوبة في البلد إلى حوالي ١,٥ طفل لكل امرأة وفقاً لحسابات الأمم المتحدة (تستخدم الحكومة رقم ١,٣ في بعض التقارير) ويضاف إلى ذلك هجرة الشباب إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية بحثاً عن فرص عمل ومستويات معيشة أفضل ، مما أدى إلى نقص في العمالة الماهرة . ويعم انخفاض الخصوبة جميع أنحاء جنوب أوروبا وشرقها ، بما فيها روسيا ، حيث تبلغ معدلات الخصوبة ١,٥ أو أقل في المنطقة كلها . (والاستثناء هو الجبل الأسود بمعدل ١,٦) . ومعدلات الخصوبة منخفضة أيضاً في أوروبا الغربية ، حيث يبلغ متوسطها ١,٦ إقليمياً ، وترتفع في فرنسا وآيرلندا لتصل إلى نحو ٢,٠ .

وقال ريستوفسكي أن الأمر سيستغرق خمس إلى سبع سنوات لمعرفة ما إذا كان للحافز النقدي لإنجاب طفل ثالث تأثير في زيادة أعداد السكان . فالنساء اللواتي سئلن في شتى أنحاء البلد أبدين آراء متباينة بشأن الخطة ، حيث تساءلن عما إذا كان الدخل الإضافي سيغطي تكاليف تربية طفل ثالث . (ويشير معدل الخصوبة الكلي إلى أن العديد من العائلات لم تنجب بعد طفلين) .

وفي العامين الماضيين ، استفادت ٥٠٠٠ أسرة من برنامج الحوافز النقدية . وأغلبها في سكوبيه ، استناداً إلى أرقام الحكومة . وأكثر من نصف عدد المستفيدين من هذه المستحقات ، أي ٥٤ في المائة ، هم من أصل ألباني ، ممن ينزعون عادة إلى تشكيل أسر أكبر ؛ و٣١ في المائة من أصل مقدوني ؛ و ١٠ في المائة من غجر الروما .

وقالت أنيتشا دراغوفيتش ، الخبيرة في الديموغرافيا بمعهد علم الاجتماع ، جامعة القديسين سيريل وميثوديوس ، في سكوبيه ، إنها تساورها شكوك حول خطة الحوافز النقدية ، متسائلة عما إذا كانت الأموال توجه إلى أناس قرروا أصلاً أن تكون لهم أسر أكبر . وقد لا ترى النساء العاملات اللواتي يقررن أن ينجبن أطفالاً أقل أن تلك الحوافز المالية مفيدة في حياتهن . وقالت دراغوفيتش أيضاً إن الخطة المشجعة للإنجاب لم يكن لها تأثير كبير ، أو لم يكن لها تأثير أصلاً على تمكين المرأة .

وقالت امرأة من قرية بوغوفيني في الشمال وهي تنضم إلى نسوة أكبر سناً بحي غالبيته من الألبان المسلمين للحديث عن عيشهن "إن الشباب يعتقد أن من الأفضل إنجاب عدد أقل من الأطفال . فالاقتصاد ساءت أحواله . ولكن مع ذلك ، نود أن نقضي بعض الوقت للاعتناء بأنفسنا" .

ففي منطقة بوغوفيني ، حيث بدأت تظهر علامات النمو الاقتصادي وانخفض معدل الخصوبة فعلاً إلى ما دون مستوى الإحلال ،

قالت النساء إنه إلى أن تتغير مواقف الرجال ، فإنه لا يزال يتوقع من المرأة أن تقوم بالعمل كله في البيت وأن ترعى المسنين ، ولن يعمل إنجاب المزيد من الأطفال إلا على إضافة أعباء أخرى على عاتقها . وحتى في الحالة التي لا يصرف الزوج زوجته عن العمل خارج البيت أو يمنعها من ذلك ، وتجد عملاً ، فإنه لا توجد مراكز للرعاية النهارية أو مدارس لمرحلة ما قبل المدرسة بالمجان أو بأسعار مدعومة لأطفالها ، وهي حالة شائعة في معظم أنحاء البلد .

والنساء اللواتي هن في منتصف العمر في بوغوفيني ، وبعضهن له مستوى تعليم متدن للغاية ، يبحثن عن فرص لكسب المال . وقلن إن تعليم الكبار سيكون موضع ترحيب كما يرحبن بإيلاء المزيد من الاهتمام لخلق فرص عمل للنساء وتقديم دعم اقتصادي لأولئك اللواتي يردن تأسيس مشروعات تجارية .

وقريناتهن الأصغر سناً ، اللواتي لا زلن عازبات ، شققن طريقهن إلى طائفة من المهن ، تتراوح بين التدريس وممارسة المهن الحرة ــ فإحداهن مساعدة تقويم أسنان ، وأخريات التحقن بالعمل في شركات ــ ويسعين إلى الحصول على تدريب في المؤسسات التعليمية الخاصة لاكتساب المهارات التقنية وتعلم اللغات للتحضير لمستقبل التنمية الاقتصادية عن طريق الاستثمار الأجنبي . وفي هذه المنطقة الجبلية ، فإن للتصنيع والسياحة كلاهما قدرة على النمو .

وفي الجزء الجنوبي من البلد تدعم السياحة ، حول بحيرة أوهريد والمواقع التاريخية الفريدة في المنطقة الاقتصادات المحلية في بلدتي ستروغا أوهريد ، وفي القرى والمزارع بالمنطقة المجاورة . وعلى الرغم من أن البطالة لا تزال تشكل مشكلة وأن أجور العاملات أقل من أجور الرجال ، تجد الشابات فرص عمل في قطاع الضيافة .

أما ممثلات شتى الجماعات النسائية النشطة والنساء الممارسات لمهن حرة اللواتي تجمعن في ستروغا للحديث عن حياتهن ومخاوفهن فلم يتفقن على قيمة خطة الحكومة للتشجيع على إنجاب طفل ثالث ، حيث يقول بعضهن إن تلك الخطة أضافت مبلغاً ''لا يستهان به'' إلى دخل الأسر ، بينما ذهب البعض الآخر إلى القول إنه في بلدات ترجئ فيها النساء الزواج وترتفع فيها معدلات الطلاق ، ثمة حاجة أكبر إلى التدريب على المهارات ودعم روح المبادرة الحرة لدى المرأة .

وقال ريستوفسكي من وزارة العمل والسياسة الاجتماعية إن التمكين الاقتصادي للمرأة قد أدرج في الخطط والبرامج الإنمائية للحكومة المركزية .

وقالت بلاجيتشا نوفكوفسكا ، مديرة مكتب الإحصاءات الحكومي في سكوبيه ، إن مزيداً من النساء يجدن فرص عمل في القطاع الخاص ، مما أدى إلى تغيير النمط التقليدي لعمالة الإناث الذي كان سائداً ، عندما كانت ٨٠ في المائة من النساء العاملات يشتغلن في وظائف حكومية . وقالت نوفكوفسكا إن الطالبات يخرجن على التقاليد بالتسجيل في الدراسات الجامعية التكنولوجية والعلمية بدلاً من العلوم الإنسانية ، ويتابعن دراستهن في مدارس إدارة الأعمال التجارية الخاصة . ويقوم مكتبها بدراسة هذا الاتجاه ، وتتوقع نشر المزيد من البيانات في السنوات

▼ في قرية بوغوفيني ، جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة ، مجموعة من النساء يتحدثن عن ضرورة الدعم الاقتصادي لإنشاء مشروعات تجارية.

© VII/أنطونين كراتوشفيل

المقبلة . وتظل الأسئلة المطرحة هي ما إذا كان منح المرأة المزيد من الفرص الوظيفية سيتعارض مع الجهود المبذولة لإقناع النساء بإنجاب المزيد من الأطفال ، أو ما إذا كانت النسوة اللواتي حظين بالتمكين سيملأن الوظائف الشاغرة ، عاجلاً قبل الأطفال الذين سيولدون بفضل حافز الإنجاب .

تسهيل مهمة تكوين أسرة

في فنلندا ، سَهُل على العاملات والأزواج العاملين اتخاذ قرار بالإنجاب بفضل توفير الرعاية النهارية للأطفال في جميع البلديات . فما فتئ معدل الخصوبة في فنلندا يقل عن مستوى الإحلال البالغ ٢,١ ولادة لكل امرأة منذ السبعينات . وبحلول نهاية القرن الماضي تزايدت المخاوف من أن يواجه البلد نقصاً شديداً في اليد العاملة نتيجة لانخفاض مستويات الهجرة .

ويقول بيكا مارتيكاينن من جامعة هلسنكي إن سياسات الرعاية الاجتماعية السخية لم تصمم مع ذلك لزيادة الخصوبة وإنما لدعم الأسر بطرق شتى حتى يكون بإمكانها أن تختار دون أن تخشى عواقب اقتصادية وخيمة . وقال "إن المرأة الفنلندية تبقى ، إلى حد كبير ، في سوق العمل . بل تكاد تكون مشاركة المرأة مماثلة في ارتفاعها لمشاركة الرجل . وليس ثمة إلا تراجع ضئيل في مشاركة الإناث في سن معينة ، وهذا ما يتعلق عادة بالنساء اللواتي يبقين في البيت مع الأطفال الصغار . ففي فنلندا ، تبقى المرأة عادة في البيت حتى نهاية فترة الرضاعة الطبيعية" .

وبالنسبة للمرأة العاملة في فنلندا ، وخصوصاً في المناطق الحضرية ، تكون الاستحقاقات المتعلقة بالطفل سخية ، وتعتبر حقوقاً قانونية . وفي هلسنكي ، على سبيل المثال ، تشمل هذه الحقوق الحق غير المشروط في الرعاية النهارية لجميع الأطفال لمدة خمس ساعات يومياً وتوفير الرعاية لمدة نهار كامل ، وفي المساء ، ونهاية الأسبوع وعلى مدار الساعة مقابل مبلغ يحدد على أساس دخل الزبون ، على ألا يتعدى ٢٥٤ يورو (حوالي ٣٦٦ دولاراً) شهرياً . ويتم توفير وجبات الطعام في جميع النظم التي يختارها الوالدان . ويتلقى آباء وأمهات الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ٣ سنوات والذين ليسوا في مراكز الرعاية النهارية البلدية بدل الأسرة الذي يتراوح في هلسنكي ما بين ٤٤٨ يورو (٦٤٥ دولاراً) و ٧٤٦ يورو (١٠٧٥ دولاراً) شهرياً . وتقدم معونة أيضاً للرعاية النهارية الخاصة التي يقدمها شخص من غير الأقارب .

ويوفَّر الموظفون لمراكز الرعاية النهارية البلدية بسخاء ، ويراعى في ذلك أعمار الأطفال المعهود بهم إلى كل موظف ، حيث يخصص موظف رعاية لكل طفلين يقل عمراهما عن سنة واحدة ويخصص موظف واحد لعدد من الأطفال قد يصل إلى ١٣ طفلاً في مرحلة الحضانة . وبما أن أعداد أطفال المهاجرين غير الفنلنديين آخذة في الارتفاع ببطء ، فإن هلسنكي تدرب المعلمين على مسائل تعدد الثقافات ، وتتحسب لتعليم اللغة الفنلندية كلغة ثانية في مستوى الرعاية النهارية . وتُحجز فصول خاصة للأطفال الذين يعانون من إعاقات جسدية أو صعوبات في التعلم .

وتحق لجميع الأمهات إجازة أمومة مدفوعة الأجر قد تصل إلى ١٠٥ أيام في فنلندا ، وتحق لهن العودة إلى وظائفهن أو إلى وظائف مماثلة في نفس المستوى . أما الأمهات الحوامل فيحصلن على إعانة نقدية قدرها ١٤٠ يورو (٢٠١ دولار) أو مجموعة مواد لرعاية الأمومة للتحضير للولادة وتلبية احتياجات الوليد فيما بعد . وعندما تنتهي إجازة الأمومة ، تدفع الحكومة بدل الوالدية لمدة ١٥٨ يوماً لأحد الوالدين ، ويحسب على أساس الاحتياجات والموارد الفردية . ويحصل الآباء على إجازة الأبوة مدتها ١٨ يوماً ، وإذا أضيفت إلى إجازة الوالدية البالغة ١٢ يوماً فإنها تغطي ما يسميه الفنلنديون "شهر الأب" .

ولعل كل هذه الأمور كان لها دور في ارتفاع معدلات الخصوبة في الآونة الأخيرة بسبب مناخ داعم يمكن أن يعول عليه كل من يتردد في الإقبال

على الأبوة ، غير أنها لم تؤد بالضرورة إلى تزايد حجم الأسر ، وهي حالة شائعة في معظم البلدان الأوروبية .

وأنيلي ميينتن ، الباحثة في شؤون الخصوبة والعقم في فاسيستوليتو ، اتحاد الأسرة في فنلندا ، ليست قلقة لانخفاض معدلات الخصوبة بقدر قلقها لتأخير الإنجاب . وقالت "إننا بحاجة إلى استقرار في عدد السكان . فنحن بحاجة إلى طفلين لكل أسرة ، ونوشك أن نحقق هذا الهدف ببلوغ معدل خصوبة يصل إلى ١,٨٥" .

وأضافت "لكن ثمة العديد من المشاكل . أولها أن متوسط عمر المرأة الذي تنجب فيه طفلها الأول ما فتئ يرتفع . فهو في الوقت الحالي نحو ٢٨- ٢٩ سنة ـ واذا نظرتم إلى منطقة العاصمة ، فهو حوالي ٣٠ سنة . فالمرأة لا تكون شابة عندما تبدأ في تشكيل أسرة أو تفكر فيه . ولا أعتقد أننا ندرك أن هذا يعني في النهاية أن العديد من هؤلاء الشباب البالغين الذين اختاروا تأجيل الإنجاب يواجهون في نهاية المطاف مشاكل العقم" .

وقالت ميينتن "إنك ببلوغك سن الخامسة والثلاثين من العمر البيولوجي تشيخ خصوبتك شيئاً ما . وأحياناً يقولون ، حسناً ، لدي كل الوقت ، ولا يتعين علي حقاً أن أفكر في هذه الأمور . بل علي أن أكمل دراستي ، وأن أعثر على وظيفة دائمة وأب صالح قبل أن أفكر في إنشاء أسرة" .

وقد خلصت دراسة استقصائية للمرأة الفنلندية في السبعينات إلى أنها تعتقد أن سن السابعة والثلاثين هي آخر سن ينبغي الإنجاب فيها . والآن لا ترغب المرأة في تعيين الحد الأقصى للسن . وأضافت ميينتن "الآن يبدأ الناس في الإنجاب في سن السابعة والثلاثين . فلقد تغيرت الصورة تماماً" .

وقالت إن العقم قد يزداد مستقبلاً بسبب هذه القرارات . فالنساء اللواتي يتجاوزن ٣٥ سنة يجدن صعوبة أكبر في أن يَحبُلن . والمزيد من النساء يلجأن إلى الإخصاب الأنبوبي .

وقالت ميينتن إنه ليس لدينا أي حد أقصى للسن منصوص عليه قانوناً . والأمر متروك للأطباء ليقرروا ما إذا كانت المرأة قادرة على الإنجاب وما إذا كانت ثمة مشاكل صحية ستواجه الأم أو الطفل . وأعتقد أن هذا يرجح كثيراً الاعتبارات الأخلاقية لدى الأطباء . فعندما يتعين على طبيب أن يقرر ما إذا كانت امرأة بالغة من العمر ٤٥ سنة قد شاخت عن سن الإخصاب الأنبوبي ، فإن عبئاً ثقيلاً يلقى على عاتق الطبيب" .

وكاتارينا سورسا راعية أبرشية في السادسة والثلاثين من عمرها كانت قد استفادت من الخدمات الصحية الحكومية في تجاربها الناجحة مع الإخصاب الأنبوبي . فقد وضعت طفلها الأول ، وهو صبي ، يسمى مارتي ، في عام ٢٠٠٨ ، عندما كان عمرها ٣٤ سنة ؛ وأنجبت وليدها الثاني ، وهي بنت تدعى يان ، في حزيران/يونيه ٢٠١١ . وكانت سورسا وزوجها متزوجين مذ كانا طالبين في الجامعة ولكن لم يكتشفا أنهما غير قادرين على الإنجاب إلى أن بلغا الثلاثين من عمريهما .

ونظرا في إمكانية التبني ورفضا الفكرة . وجربا التلقيح الاصطناعي ولم ينجح . فطلبا المساعدة من طبيبهما في قطاع الصحة العامة بالمنطقة التي يعيشان فيها ، شمال هلسنكي .

▲ كاتارينا سورسا، راعية أبرشية في كنيسة لوثرية، حامل بطفلها الثاني بفضل الإخصاب الأنبوبي.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/سامي سالين

وأجريت عمليتا زرع ناجحين في مستشفى عام محلي ، وبتكلفة زهيدة . وقالت سورسا أنهما لم ينفقا إلا بضع مئات من اليورو من مالهما الخاص لتغطية النفقات المتنوعة والأدوية المقترنة بهذه الإجراءات وبعمليتي الوضع ؛ ولو تم ذلك في مستشفى خاص لكلف الآلاف باليورو . وقالت إنه "بالنسبة لي ولزوجي ، كل شيء مر على ما يرام" .

وسورسا ، بصفتها راعية الأبرشية ، ترى المزيد من الرضع يتم إحضارهم إلى الكنيسة للتعميد ، وتصادف عموماً المزيد من الأطفال الذين ولدوا منذ عام ٢٠٠٦ أو ٢٠٠٧ لأزواج بل حتى لشركاء غير متزوجين أو لأمهات عازبات . فلا توجد حواجز اجتماعية لعلاج الخصوبة في فنلندا .

العقم في صفوف الفقراء

في العالم النامي ، كثيراً ما يعتبر العقم مأساة تقابل بالتجاهل ، ويهمل العقم عندما تعطى أولوية قصوى لمسائل تنظيم الأسرة ومنع الحمل ، أو كثيراً ما تعتبر المرأة العاقر تجسيداً لحالة إخفاق . وقد لا تدرج مشاكلها في نطاق الرعاية الصحية الإنجابية المتاحة . وفي كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠ ، نشرت منظمة الصحة العالمية ورقة تحت عنوان : أُمٌ أو لا شيء: محنة العقم ، وورد فيه أن عدم القدرة على الإنجاب قد تكون له أسباب عديدة ، من بينها حالات الحمل خارج الرحم ، وسل الأعضاء التناسلية ، وانسداد البوق بسبب التهابات المسالك التناسلية ، والإجهاض غير المأمون والعدوى المنقولة جنسياً .

ويقول خبراء منظمة الصحة العالمية إنه على الرغم من أن عقم الذكور يعد سبب عدم إنجاب الأزواج في ما يزيد على نصف الحالات ، فإنه كثيراً ما يلقى باللوم على المرأة بشكل غير متناسب . فقد تطلق المرأة ضد إرادتها ، أو توصم بالعار أو تنبذ في المجتمع . وقالت الورقة إنه على الرغم من أن العقم مشكل عالمي ، فإن في أفريقيا "حزام عقم" مسلم به يمتد من الشرق إلى الغرب من تنزانيا إلى الغابون . وغالباً ما يساعد التدخل الجراحي المرأة ، ولكن الإخصاب الأنبوبي من قبيل ما يمارس في فنلندا مكلف للغاية في كثير من الأحيان بحيث يتعذر على الأسر وعلى مقدمي الخدمة تحمل تكاليفه .

واستناداً إلى ورقة منظمة الصحة العالمية ، وضعت مصر والهند برامج رائدة لعلاج العقم ، وإيجاد سبل لخفض التكاليف . ففي القاهرة ، يقول جمال سرور من جامعة الأزهر إن النساء الفقيرات ينبغي أن يكون لهن الحق أيضاً في علاج العقم . وأضاف قائلاً إن "الدراسات الديمغرافية التي أجرتها منظمة الصحة العالمية تشير إلى أن هناك أكثر من ١٨٦ مليون امرأة عاقر في سن الإنجاب في البلدان ذات الموارد المنخفضة (باستثناء الصين) . فالعقم مرض يساهم في عبء الأمراض

الخصوبة في الفترة ١٩٥٠ - ٢٠١٠ (عدد أطفال المرأة الواحدة)

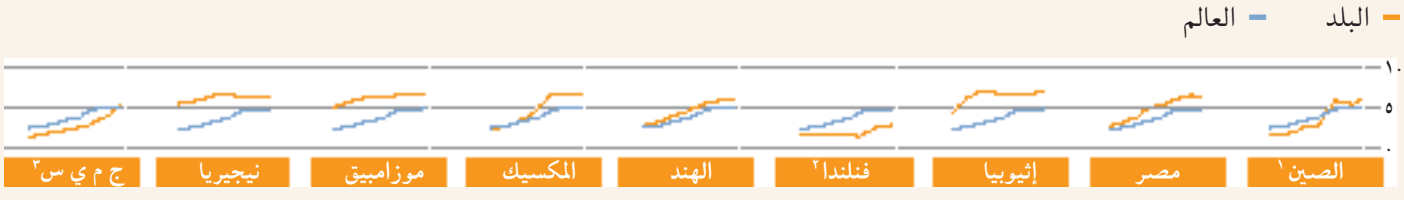

١ لأغراض إحصائية ، لا تشمل بيانات الصين منطقتي هونغ كونغ وماكاو ، وهما منطقتان إداريتان خاصتان في الصين .
٢ بما فيها جزر آلاند .
٣ جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة .
المصدر: الأمم المتحدة ، إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، شعبة السكان ، التوقعات السكانية في العالم: تنقيح ٢٠١٠ .

آثار ارتفاع معدل الخصوبة على النمو السكاني في أفريقيا على المدى الطويل

إن بلدان القارة الأفريقية ، من المنطقة الشمالية المتاخمة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط مروراً بالصحراء ودول جنوب الصحراء إلى الطرف الجنوبي من رأس الرجاء الصالح ، هي مجموعة متنوعة جداً ، ولا يشملها أي تعميم . وتمثل أفريقيا كلها ١٥ في المائة تقريباً من سكان العالم في الوقت الراهن .

وعندما بدأ الديمغرافيون يحللون الإحصاءات التي تم جمعها في منشور التوقعات السكانية في العالم: تنقيح عام ٢٠١٠ ، الصادر في نيسان /أبريل ٢٠١١ ، قال توماس بوتنر ، مساعد مدير شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، ما يلي في اجتماع للجنة السكان والتنمية:

"ماذا سيحدث على المدى الطويل لو ظلت مستويات الخصوبة والوفيات القائمة حالياً دون تغيير على المستوى القطري؟ إن هذا السيناريو سيجعل عدد سكان العالم يبلغ ٣٫٥ تريليون في عام ٢٣٠٠ ، وهو رقم أكبر من أن يدرج في رسم بياني يظهر سيناريوهات أخرى ، ورقم لا تتصوره الأذهان مما يدل على المستويات الحالية للخصوبة والوفيات غير قابلة للاستمرار . ولو نظرنا إلى النتائج بتفصيل ، لوجدنا أن ارتفاع معدل خصوبة بلدان في أفريقيا ، إذا ظل قائماً على مدى ٣٠٠ سنة ، سيفضي إلى جعل عدد سكان القارة وحدها ٣٫١ تريليون عام ٢٣٠٠" .

وسنة ٢٣٠٠ أبعد من أن يتصورها معظم الناس ، ولكن سنة ٢٠٥٠ أو سنة ٢١٠٠ تندرج ضمن نطاق أحفاد أو أبناء أحفاد كثير من الناس الذين هم على قيد الحياة اليوم . وقام مؤخراً جوزيف شامي ، المدير السابق لشعبة السكان التابعة لإدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، والمدير الحالي للأبحاث في مركز دراسات الهجرة في نيويورك ، بتحليل آخر التوقعات ، وكتب عن الكيفية التي يبدو من المرجح أن تحرف بها أفريقيا ، ونيجيريا على وجه الخصوص ، النمو العالمي في المستقبل . (ويلاحظ أيضاً أن الهند ، التي تهدف إلى تحقيق استقرار عدد سكانها بحلول عام ٢٠٤٥ ، قد يرتفع عدد سكانها الحالي البالغ ١٫٢ بليون إلى ٢ بليون بحلول عام ٢٠٥٠ ، إذا لم تخفض معدلات الخصوبة) .

وكتب شامي في حزيران/يونيه ٢٠١١ في مجلة The Globalist ، وهي مجلة على الإنترنت يصدرها مركز بحوث العولمة الذي يوجد مقره في واشنطن ، ما يلي: "إذا ظلت معدلات الخصوبة في أفريقيا على حالها على مدى العقود المقبلة ، فإن عدد سكان القارة سيشهد نمواً سريعاً للغاية ، ليصل إلى ٣ بلايين نسمة بحلول عام ٢٠٥٠ ، و١٥ بليون نسمة (وهو رقم لا يصدق) بحلول عام ٢١٠٠ ، أو حوالي ١٥ مرة العدد الحالي لسكان أفريقيا . وعلى الصعيد العالمي ، يبدو من المرجح الآن أن أفريقيا ستكون آخر قارة تشهد انتقالاً ديمغرافياً - أي التحول التدريجي من معدلات ولادات ووفيات مرتفعة إلى معدلات ولادات ووفيات منخفضة" .

عالمياً ، وينطوي على معاناة جنسانية وينبغي تخفيف وطأته بكل الوسائل ، لأن الوقاية منه وعلاجه حق من حقوق الإنجاب" . وقال إنه علاوة على ذلك ، فإن برامج تنظيم الأسرة التي تشجع الأزواج على تأجيل الحمل أو تأخيره أو المباعدة بين الولادات مباعدة واسعة "ينبغي أن تطمئن الأزواج بأنها ستساعدهم على تحقيق الحمل في وقت لاحق إن قرروا ذلك . فتنظيم الأسرة ليس مجرد منع الحمل . بل إنه أيضاً تنظيم للأسرة" .

سلطة الاختيار عن علم

يتبين من تجارب مصر والهند وموزامبيق أنه ليس هناك تفسير سهل لارتفاع معدلات الخصوبة ولا توجد طريقة واحدة لضمان حصول النساء على المعلومات والأدوات والحريات التي يحتجنها لاتخاذ القرارات بحرية بشأن توقيت ولادتهن والمباعدة بينها .

ويتبين من تجارب فنلندا وجمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة أن السبيل إلى رفع معدلات الخصوبة معقد أيضاً .

وسواء أكانت الغاية هي تيسير إنجاب الأزواج لأطفال أقل أو أكثر ، فإن على الحكومات أن ترسي إجراءاتها على مبادئ حرية الاختيار والتمكين ، على نحو ما أقرته أمم العالم في المؤتمر الدولي للسكان والتنمية .

وقد أثبتت مراراً وتكراراً البحوث التي أجريت على مدى العقدين الماضيين أن المرأة عندما تتمتع بصحة جيدة ، وتتلقى تعليماً وتتاح لها فرص

▲ في مستشفى بلدي في شيالينغ، بالصين، أم تحضر طفلها للتلقيح.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

الاستفادة من خدمات متكاملة في مجال الصحة الجنسية والإنجابية، بما في ذلك تنظيم الأسرة، تنخفض معدلات الخصوبة ــ ومتوسط عدد أفراد الأسرة .

وعلى سبيل المثال، تبين من "مسح عنقودي متعدد المؤشرات" أجراه عام ٢٠٠٨ المعهد الوطني للإحصاء في موزامبيق أن استخدام وسائل منع الحمل في هذا البلد يرتبط ارتباطاً قوياً بمستوى المرأة من حيث التعليم والثروة. إذ لا يستخدم وسائل منع الحمل إلا حوالي ١٢ في المائة من النساء اللواتي لم يسبق لهن أن التحقن بالمدارس، في حين يستخدمها ٣٧ في المائة من النساء اللواتي بلغن في تعليمهن مستوى التعليم الثانوي. والنساء اللواتي يستفدن من خدمات تنظيم الأسرة يتحكمن بقدر أكبر في عدد الولادات وتوقيتها والمباعدة بينها.

ويقول أ. ر. ناندا، الوزير السابق للصحة ورعاية الأسرة في الهند، إنه في أماكن من البلد شدد فيها على تمكين الفتاة والمرأة، حدث أيضاً انخفاض في معدلات الخصوبة. فولاية كيرالا بجنوب الهند مكان من تلك الأماكن التي بلغت مستويات من الخصوبة والتنمية مماثلة لمستويات البلدان الغنية وذلك بفضل سياسات تراعي الفوارق بين الجنسين وتشمل الإقرار القديم العهد لتعليم الفتيات وتعميمه تقريباً وتوفير فرص استفادتهن من الرعاية الصحية. ويذهب ناندا إلى القول إن تجربة ولاية كيرالا تثبت إمكانية إحداث تخفيض كبير في الخصوبة دون أن تمارس الحكومة ضغطاً على النساء للحد من الإنجاب. ويعتبر أيضاً تعليم الفتيات عنصراً أساسياً في جهود موزامبيق الرامية إلى خفض معدلات الخصوبة في المستقبل: ويقول ليوناردو شافان من وزارة الصحة إن أول شيء ينبغي القيام به هو تعليم المرأة. ويقول إن "المرأة بحاجة إلى التعليم لكي تتحكم في وضعها".

وفي الصين، يقول بعض الديمغرافيين بأن انخفاض معدلات الخصوبة هناك ليست بالضرورة نتيجة لسياسة تنظيم الأسرة المتبعة حالياً في البلد والتي تحد إمكانية الإنجاب لدى معظم الأزواج في طفل واحد. بل إنهم يعزون معظم الانخفاض في معدلات الخصوبة إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي خفضت، في نظرهم، الخصوبة حتى قبل وضع السياسة الحالية لتنظيم الأسرة موضع التنفيذ. ولو خففت حدة هذه السياسة فجأة أو تم التخلي عنها، فإنهم يرون بأن معظم الأسر لن تهرع إلى زيادة عدد الأطفال بما يتجاوز قدرة تحملها لأنها تعلمت قيمة وفوائد قلة الأطفال بالنسبة لاقتصاد الأسرة وللأطفال أنفسهم. وقد حققت بعض دول شرق آسيا وجنوبها المجاورة للصين مستويات خصوبة منخفضة دون أن تسن سياسات للحد من عدد أطفال الأسرة الواحدة. ومن المعروف أيضاً أن معدل الخصوبة في مقاطعة تايوان الصينية قد انخفض إلى ما دون مثيله في الصين القارية دون فرض قيود على حجم الأسرة. واستناداً إلى مكتب المراجع السكانية في نيويورك، يعتقد أن معدل الخصوبة في مقاطعة تايوان الصينية البالغ ٠,٩ طفل هو أدنى مستوى

خصوبة في العالم ، على الرغم من أن الأرقام الجديدة المستمدة من تعداد الصين لعام ٢٠١٠ تفيد بأن معدل الخصوبة في منطقة شنغهاي الحضرية قد انخفض الآن إلى ٠,٨ .

كما تعتبر جمهورية كوريا ، التي خفضت النمو السكاني إلى حد كبير دون سن سياسات تقييدية ، قصة نجاح في الحد من اختيار جنس الجنين والفجوات بين الجنسين في صفوف الشباب .

فاقتصاد متوسع يوفر المزيد من فرص العمل للمرأة ، وحركة من المناطق الريفية إلى المدن ، وأنظمة فعالة ضد اختيار نوع الجنس ، وقوانين تعزز حقوق المرأة في إطار الزواج وحملة وسائط متعددة تحت شعار "أحبب ابنتك!" كلها عوامل تضافرت لتحسين النسب بين الجنسين في غضون فترة تزيد قليلاً على عقد من الزمان .

المؤتمر الدولي للسكان والتنمية والأهداف الإنمائية للألفية

بعد مضي ست سنوات على نجاح المؤتمر الدولي للسكان والتنمية في القاهرة ، اعتمدت الدول الأعضاء في اجتماع للأمم المتحدة في نيويورك إعلان الألفية وثمانية مبادئ توجيهية طموحة وشاملة للحد من الفقر والمرض والدمار البيئي والتفاوت الاجتماعي والاقتصادي بحلول عام ٢٠١٥ . وهذه الأهداف الإنمائية للألفية ، والغايات والمؤشرات المحددة لقياسها التي أضيفت لاحقاً ، خولت الأمم المتحدة بطاقة تسجيل لرصد التقدم المحرز .

وكان عقد التسعينات حافلاً بالنسبة للأمم المتحدة التي عقدت مؤتمرات دولية هامة بشأن البيئة في ريو دي جانيرو في عام ١٩٩٢ ؛ وحقوق الإنسان في فيينا عام ١٩٩٣ ، والسكان والتنمية في القاهرة ، والنهوض بالمرأة في بكين في عام ١٩٩٥ . وقد وُظفت الإعلانات وخطط العمل الصادرة عن كل هذه المؤتمرات في كتابة إعلان الألفية والأهداف الإنمائية للألفية . ولكن بما أن العالم قد أصبح على وعي متزايد بالدور المحوري الذي تقوم به المرأة في جميع جوانب التنمية إذا أريد التغلب على الفقر في العديد من أبعاده ، فإن المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ربما وفر أفضل أمل لإحراز تقدم . فحياة وحقوق المرأة ـ وهي نصف سكان العالم ـ تتخلل كافة الأهداف وهي: القضاء على الفقر ، وتحقيق تعميم التعليم الابتدائي ، وتعزيز المساواة بين الجنسين ، وخفض وفيات الأطفال ، وتحسين الصحة النفاسية ، ومكافحة فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز والملاريا وغيرهما من الأمراض ، وضمان الاستدامة البيئية ، وإنشاء شراكات عالمية لأغراض التنمية .

ولا يمكن أن يتحقق أي من هذه الأهداف دون إحراز المزيد من التقدم في تعزيز الصحة الإنجابية للمرأة وحماية صحة الأمهات والأطفال حديثي الولادة . ولكن من بين كل الأهداف الإنمائية للألفية ، أحرز أقل تقدم نحو تحقيق الهدف الخامس الذي هو هدف تحسين الصحة النفاسية . فهو الهدف الأقل تمويلاً من بين الأهداف ذات الصلة بالصحة . وفي عام ٢٠٠٧ ، أضاف قادة العالم غاية ثانية تحت الهدف الخامس من الأهداف الإنمائية للألفية ألا وهي: تعميم الاستفادة من خدمات الصحة الإنجابية .

وفي إطار قمة عالمية بشأن الأهداف الإنمائية للألفية في أيلول/سبتمبر ٢٠١٠ ، أعلن الأمين العام للأمم المتحدة بان كي ـ مون ورؤساء الدول والحكومات ، إلى جانب القطاع الخاص والمؤسسات والمنظمات الدولية والمجتمع المدني ومؤسسات البحوث ، عن جهد عالمي متضافر لإنقاذ أرواح ما يزيد على ١٦ مليون امرأة وطفل . وفي مناسبة خاصة للأمم المتحدة للإعلان عن انطلاق الاستراتيجية العالمية لصحة المرأة والطفل ، أعلنت الأطراف ذات المصلحة عن تبرعات بمبلغ ٤٠ بليون دولار للموارد المخصصة لصحة المرأة والطفل . وقال الأمين العام "نحن نعلم ما يصلح لإنقاذ حياة المرأة والطفل ، ونعلم أن المرأة والطفل حاسمان في تحقيق جميع الأهداف الإنمائية للألفية" .

وقال صمويل كيسي ، وهو ناشط شاب من غانا في معرض حديثه في مناسبة للشباب خلال مؤتمر قمة الألفية لاستعراض التنمية المعقود في عام ٢٠١٠ إنه على الرغم من عدم إدراج قضايا الشباب في الأهداف الإنمائية الثمانية للألفية ، فإن لديهم القدرة على تحقيقها ، وبخاصة الهدف ١ ، ألا وهو الحد من الفقر . وأضاف قوله "إن عددنا ١,٨ بليون شاب ونحن مستعدون للمشاركة . ولسنا مجرد موارد ، بل نحن شركاء ونحن مستعدون لتقديم مساهمة جوهرية من أجل تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية" .

الفصل الخامس

قرار الرحيل: قوة الهجرة وأثرها

في قرية روستوشي الجبلية الخلابة بجمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة ، انعكست قتامة يوم شتوي رمادي على وجوه نسوة كن يتحدثن عن الهجرة التي سلبت مجتمعهن قلبه وروحه . فقلن إن الهجرة ليست ظاهرة جديدة في هذه القرية . إذ دأب الشبان على الذهاب إلى الخارج للعمل منذ الستينات ، فكانوا يتوجهون إلى تركيا ، ثم في وقت لاحق إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية . وكانوا يذهبون ويعودون من حين لآخر لقضاء بعض الوقت مع عائلاتهم .

وقالت قاطنات روستوشي إن ما حدث في الآونة الأخيرة هو أن النساء الشابات والأطفال رحلوا هم أيضاً . فالنساء وأسرهن عندما يلتحقن بالرجال أو يبحثن عن عمل لهن يبدأن حياة جديدة في بلدان جديدة . وتظل البيوت الكبيرة والشاليهات التي بنوها مقفرة طيلة السنة عدا بضعة أسابيع لا تتعدى شهراً في السنة ، عند عودة الأسر لقضاء العطل الصيفية .

وقالت سانيدا إسماعيلي ، وهي مُعلمة في مدرسة القرية ، إنه لم يعد هناك تقريباً أي طفل الآن في روستوشي ــ فثمة ثلاثة أطفال فقط في أحد فصولها ، ولا أحد في بعض الفصول الأخرى . وقالت النسوة إن أعمار سكان البلدة البالغ عددهم نحو ٨٥٠٠ شخص تتراوح ما بين ٤٥ سنة و ٩٠ سنة تقريباً . ولم يعد النظام الصحي يوفر قدراً من الرعاية في مجال طب النساء ؛ إذ لم تعد ثمة حاجة كبيرة إلى طبيب مُولد . ولا توجد مرافق خاصة بكبار السن . وقال أحد المقيمين ”إننا نعيش إما وحدنا أو برفقة الأصدقاء“ .

ولقد تسارعت وتيرة إفراغ البلدة من شبابها نتيجة الانهيار الاقتصادي الذي أعقب تفكك يوغوسلافيا في التسعينات إلى بلدان جديدة ، انبثقت عنها جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة كأفقر دولة . فأغلقت المصانع ، بما فيها مصنع الغزل والنسيج التي يشكل أحد معالم البلدة والذي كان فيما مضى يُشغل النساء . وفشلت الجهود الرامية إلى إيجاد مصادر بديلة للدخل للبلدة . فثمة بعض الإمكانات المحدودة للسياحة الجبلية في روستوشي بصومعتها البراقة بنحاسها والتي تطل على البيوت القديمة في أزقة على التلال المكسوة بالغابات . لكن ليس هناك استثمار لتنميتها . ووضع بضعة مقيمين خطة لتسويق مياه الينابيع المعبأة في زجاجات ، ولكن الحكومة لم تقدم أي معونة وتعذر العثور على استثمار من القطاع الخاص لهذا الغرض .

وقال أحدهم ”شبح الاشتراكية لا يزال مخيماً . فإنهاء مؤسسات الدولة ، وإغلاق المصانع ، لم يعقبهما خلق لفرص العمل في القطاع الخاص“ .

▶ نقطة الوصول والمغادرة في محطة للسكك الحديدية في هلسينكي ، فنلندا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/سامي سالين

وتذهب تقديرات شعبة السكان التابعة لإدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية إلى أنه في عالم اليوم البالغ تعداده ٧ بلايين نسمة ، يعيش ٢١٤ مليون شخص على الأقل خارج البلدان التي ولدوا فيها ؛ وتنقل عدد غير معروف من النازحين داخل دولهم . وقال ما جيانتانغ ، مدير المكتب الوطني للإحصاءات في الصين ، في ندوة صحفية عقدت في نيسان/أبريل ٢٠١١ ، إن أرقام تعداد عام ٢٠١٠ المعلن عنها مؤخراً في الصين تفيد بأن ما يزيد على ٢٦٠ مليون شخص ، معظمهم من سكان الريف ، يعيشون بعيداً عن عنوان أسرهم المعيشية المسجل ، وهذا ما يمثل زيادة قدرها ٨١ في المائة خلال عقد من الزمان .

وتصف المنظمة الدولية للهجرة ، وهي هيئة حكومية دولية تتألف من ١٣٢ دولة و١٧ بلداً مراقباً ، الهجرة الدولية بكونها "من القضايا العالمية التي تحدد معالم بدايات القرن الحادي والعشرين" . فقد أدت الرغبة الجامحة في التنقل ، والمعززة بتوفر وسائل النقل عبر القارات وتزايد معرفة العالم من خلال وسائط الإعلام والشبكات الاجتماعية ، إلى تحسين عيش العديد من الناس .

وتُعرِّف الأمم المتحدة المهاجر بكون شخصاً أقام في بلد أجنبي لفترة تزيد على السنة بصرف النظر عن أسباب الهجرة ــ الطوعية منها أو القسرية ــ أو الوسائل المستخدمة فيها ، المشروعة منها أو غير المشروعة . ويعتبر الأشخاص الذين يعيشون في بلد آخر دون إذن أو وثائق "مهاجرين غير نظاميين" ، في حين يعتبر أولئك الذين تم تهريبهم أو الاتجار بهم من بلد إلى آخر "مهاجرين غير شرعيين" .

وتشهد الصين والهند ــ وهما البلدان الأكثر سكاناً في العالم ــ موجات من النزوح والهجرة . ومعظم المهاجرين القادمين إلى الهند هم من بنغلاديش ونيبال المجاورتين . إذ يعمل في الهند ما يبلغ تقديره ٥ ملايين نيبالي . ولكن المهاجرين إلى الهند من أي بلد من البلدان الأخرى لا يمثلون في مجموعهم سوى ٠,٤ في المائة من مجموع السكان . وتتسم الهجرة إلى الخارج بأهمية أكبر ، حيث تذهب تقديرات مسؤول هندي إلى أن ما يزيد على ٢٤ مليون شخص هم من "الهنود غير المقيمين" و "المنحدرين من أصل هندي" وهما مصطلحان تستخدمهما الحكومة للإشارة تباعاً إلى أناس الشتات الذين احتفظوا بجنسيتهم أو الذين أصبحوا من مواطني بلدان أخرى . وعلى غرار الهند ، فإن شتات الصين هو نتيجة قرون من الهجرة ، ويقدر بما يتراوح ٣٥ مليون شخص .

ترجيح الفرص

قد يتوقف قرار الرحيل عن البلد على ما إذا كان ثمة أصدقاء أو أسر أو أبناء من البلد في الانتظار في بلد المقصد . وأحياناً يتوقف القرار على فرص العمل أو السكن أو التعليم العالي التي قد تكون متاحة عند القدوم إلى بلد المقصد . ويعتمد العديد من لمهاجرين المحتملين على شبكات دولية

▼ زعيمات مدنيات وناشطات في روستوشي ، جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة.

© VII/أنطونين كراتوشفيل

تقدم المعلومات التي ينبني عليها قرار الرحيل أو البقاء.

ففي المكسيك، لاحظ المسؤولون أن حسابات المجازفة بالرحيل أو عدم الرحيل إلى الولايات المتحدة تستند في جزء منها إلى المعلومات التي يتلقاها المهاجرون المحتملون من الأصدقاء والأقارب بشأن الوظائف والفرص الأخرى على الجانب الآخر من الحدود.

وقال فيليكس فيليس، الأمين العام للمجلس الوطني للسكان، وهو هيئة حكومية إنه "عندما تتباطأ الحصة الحقيقية للفرد من الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة، يكون ثمة رد فعل سريع في تدفقات الهجرة، ويتعلق الأمر في جزء منه بالروابط القائمة بين المكسيكيين الذين يعيشون في المكسيك والمكسيكيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة. وثمة الكثير من المعلومات بهذا الشأن. ولذلك عندما تكون إمكانية العثور على عمل في الولايات المتحدة شبه منعدمة، يقرر الناس عدم الهجرة".

لكن ثمة أيضاً عوامل أخرى أثرت على الهجرة المكسيكية إلى الولايات المتحدة، حيث يقدر مسؤولو ومناصرو المهاجرين عدد المهاجرين غير الموثقين الذين يعيشون في الولايات المتحدة بما يتراوح بين ١١ مليون شخص و ١٢ مليون شخص، ومعظمهم من المكسيك. وقال فيليس "ولما لم يعد الناس في المكسيك في الوقت الراهن شباباً كما كانوا في الماضي، فإن ذلك يؤدي إلى تخفيض احتمالات الهجرة لأن الجزء الأكبر من هذه الظاهرة يحدث بين سني الخامسة عشرة والتاسعة والعشرين. ولذلك فإنه حتى لو تعافى الاقتصاد الأمريكي وخفت مراقبة الحدود، فإن توقعاتي للمستقبل في ظل هذا السيناريو ستكون أقل".

وعلاوة على ذلك، "فإن المكسيكيين يزدادون ثراء. وترى في التعداد أن عدد المكسيكيين الموسرين ــ الممتلكين لسيارات وأجهزة حاسوب وآلات غسيل ــ زاد بشكل كبير، ويعزى ذلك

فيليكس فيلاس، الأمين العام للمجلس الوطني للسكان، مكسيكو.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو رامبريز آريولا

إلى انخفاض معدلات التضخم وأسعار الفائدة. وللمرة الأولى منذ الستينات، أصبحت لنا فترة استقرار أطول في الاقتصاد الكلي. وسهل الحصول على الائتمان أكثر من أي وقت مضى".

وتضاف إلى كل ذلك، على حد قول فيليس، مخاطر عبور الحدود الشمالية للمكسيك مع الولايات المتحدة، حيث أدى ارتفاع معدلات الجريمة المرتبطة بتهريب المخدرات وحملة الحكومة المكسيكية ضد المهربين إلى سقوط العديد من القتلى. ويؤكد فيليس أن "العهد الذهبي للهجرة إلى الولايات المتحدة" قد ولى.

وفي فنلندا، حيث استقر المهاجرون من روسيا ودول بحر البلطيق منذ سنوات، يحل المهاجرون الأفارقة بأعداد أكبر، وإن كانت أعدادهم لا تزال صغيرة للغاية. ونظراً لشعورهم بعزلة بالمقارنة مع المهاجرين الأوروبيين، فإنهم يقيمون شبكات خاصة بهم بمساعدة المنظمات غير الحكومية، وأحياناً بمساعدة دوائر الخدمات الاجتماعية الحكومية. أما المركز المتعدد الثقافات التابع لاتحاد الأسرة في فنلندا، والذي يقيم خط اتصال مباشر بعدة لغات، فيذهب في تقديراته إلى أن ما يقارب ١١٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ صومالي

▲ شيمن سونامو (على اليمين) وأبراهام تامات (على اليسار) يناقشان شؤون الحياة في مركز عبور تابع للمنظمة الدولية للهجرة في أديس أبابا، إثيوبيا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

قد استقروا في البلد على مدى ٢٠ عاماً . وكان الكثير منهم قد جاؤوا طالبين للجوء ثم جلبوا أفراد أسرهم .

الرحيل رغم المخاطر

في أفريقيا ، يشكل مركز عبور في أديس أبابا ، عاصمة إثيوبيا ، ملجأ مؤقتاً للشبان والشابات ــ والكثير منهم صبيان وفتيات في سن المراهقة ــ ممن حاولوا وأخفقوا في التخلص من الفقر بالقيام برحلة منهكة وخطيرة براً وبحراً إلى المملكة العربية السعودية ، وهي صورتهم عن أرض الفرص . ومعظم من في المأوى ممن يتلقون المأكل والرعاية الصحية في انتظار أن تربطهم منظمة اليونيسيف بأسرهم الإثيوبية ، عثر عليهم في اليمن وأعيدوا إلى بلدهم بمساعدة المنظمة الدولية للهجرة . ويتقاسمون مركز العبور مع الصوماليين الذين فروا من بلدهم المدمر .

وحكى شيمن سونامو ، المراهق الإثيوبي ، وهو يطهو وجبة غداء من المعكرونة ، ما قاساه للوصول إلى المملكة العربية السعودية ، حيث سمع بأن ثمة فرص عمل في الرعي أو في ري المزروعات بالحقول . فقد بدأ رحلته مشياً إلى سواحل جيبوتي المطلة على خليج عدن لما يزيد على أسبوع ، حيث كان يعيش طيلة رحلته على خليط من دقيق الذرة والماء ، وينام في العراء ليلاً دون حماية . ومن هناك أُركب على متن قارب إلى اليمن ، وتسلل براً إلى المملكة العربية السعودية . وبعد مضي ثلاثة أشهر ، ألقت الشرطة السعودية القبض عليه وأرغم على العودة إلى اليمن . وهناك وجد مكتباً للمنظمة الدولية للهجرة ، فطلب للمساعدة .

وإلى حد ما فإن مأساته الكبرى هي ما تكبدته أسرته من جراء محاولته الهجرة . فشيمن ، القادم من سيلتيا ، في جنوب إثيوبيا ، كان بحاجة إلى ٥٥٠٠ بر (حوالي ٣٢٦ دولاراً) ليدفعها إلى مهرب مقابل مرافقته في هذه الرحلة الشاقة . ولما كان أبواه ضد المشروع من البداية ، فإنهما رفضا مساعدته ، أو لم تكن لديهما الوسائل لمساعدته . ولكن أخاه الأكبر ، الذي كان يعلم ما يعلقه شيمن من أمل على هذا الحلم ، باع ثيرانه ليجمع له المال .

وعند هذه النقطة من روايته لقصته ، وضع شيمن رأسه بين يديه ، وصعب عليه الاستمرار في الحديث . فالثور استثمار رئيسي بالنسبة للمزارع الإثيوبي ، وشعر شيمن بالألم والعار لما تسببت فيه حماقته من خسارة لشقيقه . وعندما سئل عما اذا كان سيحاول مرة أخرى مغادرة إثيوبيا ، رفع رأسه وقال بتحد : "أبداً!"

وكان جالساً بجانبه صبي آخر ، يدعى أبراهام تامرات ، كان قد عاد من محاولة فاشلة للوصول إلى المملكة العربية السعودية ، أو أي مكان آخر يوفر عيشة كريمة ، وقد يحاول مرة أخرى . وقال في خيلاء : "أنا لا أريد أن أعمل في إثيوبيا ؛ أريد أن أقضي حياتي فيما هو أهم" . وقد سمع عن فتيان وشبان آخرين أنهم يجمعون مبلغ ١٥٠٠٠ بر (حوالي ٨٩٠ دولار) لدفعها لمن سيهربهم إلى جنوب أفريقيا . وأفادت مجموعات مساعدة المهاجرين العاملة على الحدود بين الولايات المتحدة والمكسيك ، بأنه يتم تهريب البعض منهم إلى المكسيك وأمريكا الوسطى ويوعدون بإيصالهم إلى الولايات المتحدة .

وفي إثيوبيا ، تغامر بعض الفتيات والشابات بالإقدام على الهجرة الدولية ، للعثور على عمل في أماكن بعيدة . ويغامر بعضهن بالرحيل عن بلدتهن إلى أماكن أخرى من البلد ، وأحياناً يتفادين الزواج الذي رتبه لهن الوالدان . ويقوم مركز تديره الحكومة في أديس أبابا بدعم من صندوق الأمم المتحدة للسكان بتوفير التعليم غير النظامي في الرياضيات ، واللغة الإنكليزية ، والصحة الإنجابية والمهارات الحياتية للمئات من الفتيات اللواتي هربن من بيوتهن تجنباً للزواج المبكر . وإحداهن ، واسمها مولو ، لم يكن عمرها يتعدى ١٢سنة عندما فرت بعد ما أخبرها أحد الجيران بأن والديها قد وجدا لها زوجاً وأنهما يخططان لتزويجها .

واشتغلت مولو خادمة لمدة ثلاث سنوات ، ولم تكن تشتكي لحالها لأن مشغلها كان يسمح لها بقضاء بعض الوقت في هذا المركز الواقع على مقربة من محطة الحافلات الرئيسية بالمدينة ، حيث يصل العديد من الفتيات ولا يعرفن ما سيعملنه فيما يعد . وأجور خدم البيوت مثل مولو هي أجور زهيدة بجميع المعايير . فإحداهن ، واسمها وودي البالغة من العمر ٢٣ سنة ، تكسب ما يعادل ٣ دولارات في الشهر .

وحكت شابة أخرى كيف أنها سرقت شاة من قطيع الأسرة لدفع أجرة دليل اصطحبها إلى أديس أبابا من بيتها في الجنوب ، وكان عليها أن تقاوم مراودته لها عن نفسه طيلة الرحلة . وعُثر عليها في الشارع بالقرب من محطة للحافلات في العاصمة وهي تبكي لأنها لم تكن قادرة على تحديد موقع أقارب لها كانت تعرفهم يقطنون في مكان ما من هذه المدينة المترامية الأطراف . وعندما وجدتهم ، أجبروها على العمل في بيتهم

الهجـرة الـدوليـة

السكان المهاجرون الدوليون ، ٢٠١٠

أوروبـا	٦٩,٨ مليون
آسيـا	٦١,٣ مليون
أمريكا الشمالية	٥٠,٠ مليون
أفريقيـا	١٩,٣ مليون
أمريكا اللاتينية	٧,٥ ملايين
أوقيانوسيا	٦,٠ ملايين

البلدان المضيفة لأكبر عدد من المهاجرين الدوليين في عام ٢٠١٠

الولايات المتحدة	٤٢,٨ مليون
الاتحاد الروسي	١٢,٣ مليون
ألمانيـا	١٠,٨ ملايين
المملكة العربية السعودية	٧,٣ ملايين
كنـدا	٧,٢ ملايين

البلدان الثلاثة الأكثر إيفاداً للمهاجرين وتقديرات الشتات بالملايين

الصـين	٣٥,٠ مليون
الهنـد	٢٠,٠ مليون
الفلبين	٧,٠ ملايين

المصدر: شعبة السكان في إدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية.

دون أجر لساعات طوال طيلة سنتين. ولم تتحسن حياتها هامشياً إلا بصدفة جمعتها بامرأة في كنيسة فعرضت عليها عملاً أفضل.

الضعف في مواجهة المهربين والمتاجرين

في جامعة أديس أبابا، قال الديمغرافي أسيفا هايلي ماريام، الذي شارك في تحرير كتاب جديد تحت عنوان التحول الديموغرافي والتنمية في أفريقيا: الحالة الفريدة لإثيوبيا، إن قلة الأرض الخاضعة للقسمة بين الأبناء قد تدفع بالذكور إلى الهجرة. وثمة مسألة أخرى ذات صلة تمارس ضغطاً على الأسر يحملها على العثور على أزواج ذوي سعة لبناتها. ويقول مسؤولو الهجرة إنه عندما يُنظر إلى الهجرة باعتبارها الخيار الوحيد، فإن أفراد الأسرة قد يلجأون إلى المهربين طلباً للمساعدة أو يغريهم المتاجرون بالبشر.

وساسو نينا تسفاماريام التي تدير مأوى للمسنات في أديس أبابا، توفر أيضاً ملجأ للفتيات اللاتي تم تهريبهن إلى خارج البلد فعُدن مُعدمات، إلى إثيوبيا. وتقول ساسو نينا إن الشابات يسعين إلى العمل خادمات بيوت، في المملكة العربية السعودية بالدرجة الأولى، ولكن أيضاً في اليمن ودبي والكويت وسوريا. ويلقى القبض على العديد منهن فيُرحلن من البلدان التي يعملن فيها، وقد لا تكون لديهن وجهة أخرى غير العودة إلى إثيوبيا.

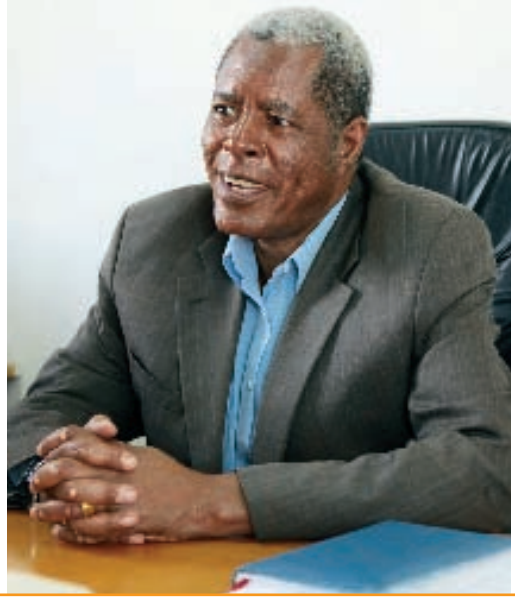

◀ الديموغرافي أسيفا هيلامريم، من جامعة أديس أبابا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

وقامت ساسو نينا بتقديم حليمة التي تعيش في كنفها، وهي فتاة خجولة جداً تبلغ من العمر ١٩ عاماً. وخلافاً للعديد من الشابات اللواتي تم تهريبهن إلى دول أخرى، رتب الأقارب انتقال حليمة إلى دبي بصورة قانونية؛ فسافرت بجواز سفر صالح. ولكنها، حسب قولها، كانت تتعرض لسوء المعاملة بصفتها خادمة بيت في دبي، ولم يكن يدفع لها أجر وكانت في حقيقة الأمر أسيرة في بيت مشغلها. فكان يمنع عليها استخدام الهاتف، ولم يكن بإمكانها أن تتصل بأسرتها أو بأي أحد لتخبره بوضعها المؤلم.

وقالت إنه بعد ما يقرب من ثلاث سنوات، وبينما كانت تخطط للمغادرة، دفعها رب عملها من شرفة في الطابق الثالث. فأصيبت بكسور متعددة في الفك، وتشوه وجهها بشدة (كانت تخفي الأجزاء المشوهة وهي تتحدث). وأمرت محكمة في دبي بترحيلها إلى إثيوبيا، حيث أخذها ابن عم لها إلى مستشفى يديره الكوريون الجنوبيون في أديس أبابا. وهناك بدأ جراحو التجميل يعالجون جروحها. وأعطيت لها أولوية قصوى بعد أن التقت صدفة في المستشفى بسون تايك يو، حرم الأمين العام للأمم المتحدة بان كي-مون، عندما كان الزوجان في زيارة رسمية لإثيوبيا.

ويقول مناصرو المهاجرين إنه من الصعب تحديد عدد الإثيوبيين الذين يغادرون البلد للعمل في الخارج تحديداً دقيقاً، لأن العديد منهم يهاجر دون وثائق ودون علم المسؤولين. وذكرت التقارير الإخبارية الإثيوبية، نقلاً عن المتحدث باسم وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في أوائل عام ٢٠١١، أن هناك ٧٨ وكالة توظيف مرخص لها بإرسال العمال المهاجرين إلى جيبوتي والكويت والمملكة العربية السعودية، وأنه منذ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩،

غادر أكثر من ٢٦٠٠٠ شخص إثيوبيا بصفة قانونية للعمل في الخارج.

ويقوم المهربون والمتاجرون بنقل المهاجرين عبر الحدود على نطاق واسع، وهي صورة مؤسفة تبين إلى أي حد أصبح هذا العمل الإجرامي مربحاً. ويحدث هذا في جميع أنحاء العالم. واستناداً إلى مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، فإن المهربين يقومون، مثلاً، باستغلال آلاف النساء من نيجيريا وغيرها من بلدان غرب أفريقيا، ويفرضون عليهن دفع ما يزيد على ٥٠٠٠٠ دولار أحياناً لتمريرهن بطريقة غير شرعية الى دول من قبيل إيطاليا وهولندا.

بالإضافة إلى ذلك، يستفاد من دراسة أكاديمية جديدة قام بها أديرانتي أديبوجو وأرييفان دير فايل حول موضوع البحث عن مراع أكثر اخضراراً في الخارج: صورة الهجرة في نيجيريا، أن دراسة استقصائية لمنظمة العمل الدولية في نيجيريا قد خلصت إلى أن ما يقارب ٨ ملايين طفل معرضون لخطر الاتجار بهم في العمل القسري كخدم منازل، وباعة في السوق، أو عمال مزارع أو عمال في قوارب صيد الأسماك، داخل البلد أو في منطقة غرب أفريقيا.

التحويلات المالية شريان الحياة للباقين في الوطن

انخفضت انخفاضاً حاداً لفترة وجيزة خلال الأزمة المالية للفترة ٢٠٠٨ - ٢٠١٠ المبالغ المالية التي يرسلها المهاجرون الدوليون إلى بلدانهم الأصلية في جميع أنحاء العالم، لكنها سرعان ما انتعشت، استناداً إلى تقرير صدر في أيار/مايو ٢٠١١ عن البنك الدولي، تحت عنوان توقعات تدفقات التحويلات المالية للفترة ٢٠١١ – ٢٠١٣. وقال التقرير الذي لا يغطي إلا التحويلات المسجلة رسمياً إلى البلدان النامية، أن تدفق الأموال إلى أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي قد سجل أفضل انتعاش

ساسو نينا تسفاماريام، (على اليمين) وصحفية في دار أغار للمسنات

بسبب استقرار اقتصاد الولايات المتحدة. أما التحويلات المالية من المهاجرين في أوروبا فتضررت من ارتفاع معدلات البطالة الأوروبية، والتخفيضات في الإنفاق العام، والأزمات المالية في العديد من بلدان الاتحاد الأوروبي، وتشديد الرقابة على الهجرة، والمواقف السلبية تجاه المهاجرين.

ويقول التقرير إن "تدفقات التحويلات من روسيا وبلدان مجلس التعاون الخليجي كانت قوية نظراً لارتفاع أسعار النفط. غير أن ضعف أسواق العمل في أوروبا الغربية يحدث ضغوطاً تدفع إلى الحد من الهجرة". وعلى الصعيد العالمي، من المتوقع أن تستمر التحويلات المالية في النمو، ولو بوتيرة أبطأ، لتصل إلى ٤٠٤ بلايين دولار بحلول عام ٢٠١٣، حسب تكهنات البنك الدولي. وقد بلغ مجموع التحويلات المسجلة رسمياً ٣٢٥ بليون دولار في عام ٢٠١٠.

ويلاحظ التقرير أن بعض الدول قد بدأت تُصْدر "سندات الشتات" المدعومة بتحويلات مالية وذلك لجمع الأموال للمشاريع الإنمائية. ومن الدول التي بدأت في إقرار هذا الابتكار أو التي تفكر في إقراره إثيوبيا واليونان والهند. فشتات المهاجرين ضخم ومساهماتهم المحتملة مهمة. وتذهب تقديرات تقرير البنك الدولي إلى أن مجموع الشتات من البلدان النامية يبلغ ١٦١,٥ مليون شخص، وتأتي في مقدمة المناطق التي لها أكبر عدد من المهاجرين في الخارج أمريكا اللاتينية

ومنطقة البحر الكاريبي وجنوب آسيا ، وأفريقيا جنوب الصحراء وشرق آسيا والمحيط الهادئ .

ولنيجيريا ، البلد الأكثر سكاناً في أفريقيا ، تاريخ طويل من الهجرة الدولية يعود إلى عصور ما قبل الاستعمار . ويقول أديبوجو ودير فايل في مؤلفهما البحث عن مراع أكثر اخضراراً إنه "في السنوات التي أعقبت استقلال نيجيريا في عام ١٩٦٠ ، ظل النيجيريون يسافرون إلى الخارج ، أي إلى البلدان الأفريقية المجاورة أولاً ، ولكن أيضاً وبصورة متزايدة إلى أوروبا والولايات المتحدة ، لأغراض التعليم والبحث عن فرص عمل" .

وقد زاد عدد النيجيريات المهاجرات في السنوات الأخيرة ، للبحث عن فرص عمل في الغالب وليس للالتحاق بالأزواج أو بأفراد الأسرة الآخرين . ويعد هذا الاتجاه إلى حد ما مقياساً لقابلية النيجيريين للتأقلم وقدرتهم على التكيف حيث يشكلون أكبر مجموعة من المهاجرين الأفارقة في المملكة المتحدة ، وهي القوة الاستعمارية السابقة ، ولهم أيضاً حضور في البلدان الأخرى الأعضاء في منظمة التعاون والتنمية في الميدان الاقتصادي .

الهجرة داخل البلد

لئن كانت المنظمة الدولية للهجرة تصف الهجرة الدولية بكونها من القضايا العالمية المميزة للقرن الحادي والعشرين ، فإن العديد من فرادى البلدان يركز كثيراً على أنماط النزوح الداخلي ، والآثار الاجتماعية والاقتصادية التي تترتب على تنقل مئات الآلاف من الناس بحثاً عن سبل العيش ، دون أن يسلكوا دائماً مسلك الهجرة من الريف إلى المدن .

ففي الهند ، مثلاً ، يذهب رام ب . بهاغات ، أستاذ ورئيس قسم دراسات الهجرة والدراسات الحضرية في معهد علوم السكان في مومباي ، إلى القول منذ سنوات إن على الديمغرافيين أن ينكبوا على بحث التحولات الداخلية للسكان ، التي وصفها بأنها "ظاهرة مهمة من الزاوية الاقتصادية والسياسية وزاوية الصحة العامة" . ويرى أن ثمة تحولين هامين في الآونة الأخيرة .

ويقول "إن الهجرة الداخلية في الهند تشهد تحولاً كبيراً مع زيادة التنقل فيما بين المناطق الحضرية نفسها . كما تقوم بالهجرة من الريف إلى المدن باطراد مجموعات أكثر تعلماً وأعلى دخلاً بسبب ما لها من تطلعات عالية ولانعدام فرص أفضل في المناطق الريفية" . وما فتئ بهاغات يوجه الانتباه إلى أن أفقر الهنود لم يكونوا المستفيدين الرئيسيين من الهجرة .

ويبرز بهاغات هذا التوجه ، من خلال رصد بيانات تعداد عام ٢٠١١ ، التي بدأت تصدر وقت كتابة هذا التقرير . وقد كتب في رسالة بالبريد الإلكتروني "إن النتائج الأولية المتوفرة لتعداد عام ٢٠١١ تظهر انخفاضاً هائلاً في معدلات النمو في بعض المدن الكبرى من قبيل مومباي ودلهي وشانديغار . ففي مومباي على سبيل المثال ، انخفض معدل النمو خلال عشر سنوات من ٢٠ في المائة في الفترة ١٩٩١-٢٠٠١ إلى ٤,٧ في المائة في الفترة ٢٠٠١-٢٠١١" .

ولم يقتنع بأن هذه الأرقام تشير بالضرورة إلى أن معدل الهجرة من الريف إلى المدن قد انخفض . وكتب قائلاً "إن من الممكن ألا يكون العدد المطلق للمهاجرين من الريف إلى المناطق الحضرية قد انخفض" ، وأشار إلى أنه سيتأتى فهم هذه المسألة على نحو أفضل عندما يصدر المزيد من بيانات التعداد ، مما سيتيح للديمغرافيين استخراج أنماط التنقل في المناطق الحضرية والآثار المترتبة على نظام المهاتما غاندي لضمان العمل في الريف الذي وضعته الحكومة المركزية لتوفير الدخل لمدة ١١٠ أيام في السنة للأسر الريفية بغية مساعدتها على البقاء في أرضها .

وفي الصين ، تشكل الهجرة الداخلية في الوقت الراهن موضوع تحليل ونقاش مكثفين بسبب النمو السريع والقضايا الاجتماعية الناشئة عن تصاعد الأرقام . ففي عام ١٩٨٢ ،

استناداً إلى إحصاءات الحكومة الصينية ، بلغ عدد المهاجرين الداخليين ٦,٦ ملايين مهاجر من "السكان المتنقلين" في البلد . وبحلول عام ٢٠١٠ بلغ هذا العدد ٢٦٠ مليوناً استناداً إلى آخر تعداد للسكان . ومن المتوقع أن يصل إلى ٣٥٠ مليوناً عام ٢٠٥٠ ، استناداً إلى مركز الصين للأبحاث السكانية والإنمائية .

وما فتئت أغلبية المهاجرين تتجه صوب مدن المناطق الساحلية من الجنوب الشرقي – بما في ذلك مقاطعات غوانغدونغ وجيانغسو وتشجيانغ وشاندونغ وفوجيان ، ومدينتا بيجين وشانغهاي . ويأمل المخططون الحكوميون أن يصبح تطوير المدن في شمال الصين والمناطق الوسطى الغربية بديلاً يستقطب العمال ، وبخاصة السكان المحليون الذين قد يفضلون العمل قريباً من بلداتهم .

وتطرح تحديات جديدة آخرُ موجة من المهاجرين الداخليين ، أو ما تسميه الصين "بمهاجري الجيل الثاني" . ففي تقرير إخباري رئيسي مسهب نشر في أسبوعية China Weekly في آب/أغسطس ٢٠١٠ ، وصف الكاتب يوان يي "مجموعة متباينة مؤلفة من ١٠٠ مليون شاب تقريباً" بدأت تفرض نفسها بطرق جديدة تماماً .

وكتب المؤلف "أن هذه المجموعة من المهاجرين الشباب الذين ولدوا في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات ، وهي فترة تزامنت مع النمو الهائل في الاقتصاد الصيني ، تعوض الآن مئات الملايين من الجيل الأول للعمال المهاجرين الذين هرعوا إلى المدن لكسب العيش في الصناعات التحويلية والخدمات والبناء" .

وخلافاً لذلك الجيل الأول ، لم يعد العمال المهاجرون الجدد فلاحين ريفيين غير متعودين على الحياة الحضرية . بل إنهم أفضل علماً وأكثر اطلاعاً بفضل وسائط الإعلام الجديدة والتقليدية وأكثر مشاركة من الناحية السياسية .

وترسم التغطية المنشورة في China Weekly صورة بشرية لهؤلاء المهاجرين من الجيل الثاني في سلسلة من المقالات تتناول حياة شبان وشابات وهم يقضون الوقت في مقاهي الإنترنت أو صالات البلياردو ، أو يحاولون إيجاد مكان لهم في المهاجع المكتظة بالمصانع ويسعون إلى أن يحظوا بالقبول بصفتهم من سكان الحضر حسبما يأملون . ويقول الكثير منهم إنهم لا ينوون العودة للاستقرار في المناطق الريفية ، ولو بعد التقاعد في مستقبل بعيد ، على غرار ما يفعله في الغالب المهاجرون الأكبر سناً .

ويرتبط النقاش الواسع الدائر حول مصير المهاجرين الداخليين الشباب بالمناقشات الدائرة في الصين حول نظام تسجيل الأسر المعيشية ، المسمى الهوكو ، والذي يربط المواطن بمكان إقامته الأصلية ، حتى وإن انتقل الشخص أو انتقلت الأسرة إلى أماكن أخرى من البلد واستقرت فيها بصفة دائمة . وضمن المهاجرين في الصين ، تصنف فئات مختلفة استناداً إلى مكان التسجيل و/أو الإقامة ، وهو نظام يقتلع الكثيرين من جذورهم .

الزبائن ينتظرون طعامهم في مطعم يديره مزارعون محليون في قرية جينغ شي ، مقاطعة شامشي ، الصين.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

وفى نيسان/أبريل ، قال مدير المكتب الوطني الصيني للإحصاءات ، ما جيانتانغ ، إن الحجم الهائل "للسكان غير المستقرين" يشكل تحدياً للتنمية والاستقرار الاجتماعي ، وقد سلم الرئيس هو جينتاو بضرورة إدخال تحسينات على الخدمات الاجتماعية المقدمة للمهاجرين ، وذلك استناداً إلى تقرير نشر في صحيفة China Daily .

وفي ظل النظام الحالي ، مثلاً ، لا يمكن أن يتوقع شخص عادة تغيير مكان تسجيل أسرته المعيشية حتى لو كان من ذوي المهارات العالية من محافظة بعيدة ويعمل عملاً لائقاً في بيجين أو في مدينة أخرى كبيرة ، ويظل هذا الشخص غريبـاً من الناحية الإدارية ، ومحروماً من الخدمات والمنافع الاجتماعية في مكان الإقامة الجديد . وعادة ما يُحرم أطفال هؤلاء المقيمين من الاستفادة من التعليم العام والرعاية الصحية . ولا يمكن للشخص المسن الذي يعيش بعيداً عن مكان تسجيل أسرته المعيشية الاستفادة من الاستحقاقات دون العودة إلى الموطن الأصلي . وثمة العشرات من القصص المشابهة .

وتبين من لقاءات أجريت مع المهاجرين الشباب في مقاطعة شانشي أن بعضهم على الأقل ينجح في التحايل على النظام باعتبار الهجرة من أجل العمل وضعاً مؤقتاً أو طقس عبور يستغل لجمع الأموال لاستثمارها في مكان قريب من موطنهم الأصلي أو اعتبار الهجرة تجربة تعليمية لاكتساب مهارات جديدة ودراية بالمناطق الحضرية . وينتقل البعض إلى مدينة داخلية مجاورة لأسباب مماثلة ، ولا يسلك المسلك المؤدي إلى الساحل . وفي بلدة شياليانغ ، التي تقع على مبعدة بضع ساعات عن طريق البر شرقي شيان ، والتي تشغل منطقة ريفية تحيطها الغابات وتحظى بأهمية إيكولوجية ويجري تطويرها باعتبارها محمية طبيعية ، تحدثت مجموعة من المهاجرين العائدين في العشرينات من أعمارهم عن اكتسابهم خبرات في العمل في المصانع والمهن المختلفة .

هوا غونغمي ، البالغة من العمر ٢٤ سنة ، وخريجة مدرسة ثانوية على غرار الآخرين ، بدأت حياتها العملية في تعبئة البضائع في شركة محلية ، ولكن سرعان ما قررت الانتقال إلى مقاطعة شاندونغ بحثاً عن وظيفة في مصنع . وقالت لقد انتحر ١٠ شبان في المصنع الذي استقرت فيه ، لكنها لم تحس بأن وظيفتها مجهِدة . وتخلت عن عملها بعد عام حينما جمعت ما يكفي من المال للعودة إلى شيالنيغ وفتح متجر صغير بالقرب من مدخل المحمية الطبيعية . وكانت تشانغ لي البالغة من العمر ٢٩ سنة تعمل في مصنع لتجميع السلع الإلكترونية في مقاطعة فوجيان ، ثم في مصنع لتجهيز الأغذية في شاندونغ ، حيث التقت زوجها . وقالت "إن تجربتي جعلتني أكون على قدر أكبر من النضج والحرية" . فهي أم لطفل في السادسة من عمره ، وراضية على عودتها إلى بلدتها للعمل في مصنع للتوفو . وقال دانغ منغ البالغ من العمر ٢١ سنة ، إنه هاجر في العام الماضي للعمل لدى حلاق محترف ليتمكن من العودة إلى شياليانغ وفتح صالون حلاقة خاص به .

▼ سيدة تدير متجر بقالة صغير مع خطيبها في شياليغ ، مقاطعة شامشي ، الصين.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/اغيو تيليو

ولكل هؤلاء المهاجرين الشباب الذين تمت مقابلتهم لأغراض هذا التقرير نصيحة يريدون إسداءها. فلهم معرفة بمخاطر السطو الشائعة عندما يعيش شبان ضعاف في ظروف من الاكتظاظ وبعيداً عن بيئة مألوفة، ولهم معرفة بحوادث المصانع وغيرها من المخاطر. ولهم معرفة بما يواجهه الشباب المهاجر من حنين إلى الموطن وشعور بالوحدة والاكتئاب.

وفي هذا السياق يقول زانغ "إذا كنت تحن إلى موطنك، اتصل بأهلك بالهاتف". ويقول تشو كيبو، البالغ من العمر ٢١ سنة، "حافظ على سلامتك في العمل". فقد كان لتشو صديق تعرض للتخدير والسرقة، فتعلم من الحادث درساً لا يُنسى ألا وهو: "لا تقبل أي طعام أو شراب من الغرباء".

مقيمون يتجولون في شواع سكوبيه، جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة.
© VII/أنطونين كراتوشفيل

تعظيم فوائد الهجرة

للهجرة الدولية قدرة على أن تصبح قوة إنمائية مهمة، لا سيما وأن ٢١٤ مليون شخص يعيشون الآن خارج بلدانهم الأصلية. وقد يعمل المهاجرون على تلبية الطلب المتزايد على العمالة في البلدان الصناعية التي شهدت انخفاضاً في معدلات الخصوبة وفي حجم سكانها من المواطنين البالغين سن العمل. لذا يتعين على واضعي السياسات أن يعتبروا الهجرة أداة إنمائية ومصدراً مهماً لرأس المال، وليس مظهراً من مظاهر قصور التنمية.

واستناداً إلى المنظمة الدولية للهجرة، فإن تنقل الناس في القرن الحادي والعشرين سيتزايد أهمية نتيجة لاستمرار العولمة وتحرير الاقتصاد. وتقول المنظمة "إن مناخ التجارة والاستثمار قد أبقى على تدفق المهاجرين. وأدت زيادة الطلب على العمالة في الاقتصادات المتقدمة النمو وتوافر اليد العاملة في الاقتصادات المتخلفة إلى تنقل اليد العاملة على نطاق عالمي".

وتقول المنظمة إن ثمة اعترافاً متزايداً بأن الهجرة عنصر أساسي لا مناص منه في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لكل دولة، وأضافت قولها "إن من شأن الهجرة المنظمة والتي تخضع للإدارة السليمة أن تعود بالنفع على الأفراد والمجتمعات".

الفصل السادس

التخطيط مسبقاً لنمو المدن

في هذا العالم ذي السبعة بلايين نسمة ، مال التوازن العالمي بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية دون رجعة لصالح المدن . ولكن ما هي "المدينة" على وجه التحديد في عام ٢٠١١ ؟ تحذر هانيا زلوتنيك ، مديرة شعبة السكان التابعة لإدارة الأمم المتحدة للشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، من استسهال مهمة التعريف لأن الحكومات والمناطق الحضرية ذاتها تُعرِّف "المدينة" بطرق عديدة وحدودها تتحول ، أحياناً لأسباب سياسية أو ديمغرافية أو اقتصادية . فالمناطق الحضرية الممتدة على مساحات واسعة تستوعب أو تضم مدناً كثيفة ، وتندمج أحياناً مع مناطق حضرية أخرى عبر أروقة مكتظة بالسكان . وقد يُحسب أيضاً سكان المدن بطرق مختلفة من بلد إلى بلد أو من مدينة إلى مدينة .

وفي المنشور الصادر عن شعبة السكان تحت عنوان توقعات التحضر في العالم: تنقيح ٢٠٠٩ توصف هذه المراكز السكانية الضخمة بأنها "تجمعات حضرية" . وتبرز طوكيو بصفتها أكبر منطقة حضرية في العالم بمقتضى هذا التعريف ، حيث يبلغ عدد سكانها ٣٦,٧ مليون نسمة ، وهو ما يزيد على ربع سكان البلد . وتلي طوكيو دلهي ، بما مجموعه ٢٢ مليون نسمة ؛ وساو باولو بما مجموعه ، ٢٠ مليون نسمة ؛ ومومباي ، بما مجموعه ٢٠ مليون نسمة ؛ ومكسيكو ، بما مجموعه ١٩,٥ مليون نسمة ؛ ونيويورك ـ نيوارك ، بما مجموعه ١٩,٤ مليون نسمة ؛ وشنغهاي ، بما مجموعه ١٦,٦ مليون نسمة ؛ وكولكاتا (كلكتا) ، بما مجموعه ١٥,٥ مليون نسمة ؛ ودكا ، بما مجموعه ١٤,٧ مليون نسمة ؛ وكراتشي ، بما مجموعه ١٣ مليون نسمة . وكل مدينة من هذه المدن تعكس نمطاً أو مساراً مختلفاً من أنماط أو مسارات التخطيط والإدارة ، وتشكيلة مختلفة من الثراء والفقر .

وبدون تخطيط ، قد تنمو المدن في غفلة ، وتزحف على كل مساحة شاغرة متاحة فتتجاوز طاقة الخدمات العامة ، حيثما وجدت ، على تلبية الطلبات أو التصدي لنمو الأحياء الفقيرة . ويقوم بدور في نمو المدن وإعادة تشكيلها ، أو حتى تقليصها كما حدث مؤخراً في عدد من البلدان ، المنعشون العقاريون ، والشركات ، والعمال المهاجرون ، والإدارات الحكومية ، والمؤسسات العامة التي تسعى إلى التوسع . ولئن كان العديد من المدن يواجه تحديات هائلة ، فإن مدناً أخرى تملك القدرة على تحقيق استفادة قاطنيها بمنافع الحياة الحضرية .

وهناك مطالب من منظمات للدعوة وجمعيات مدنية وقاطنين أكثر جرأة وأحسن اطلاعاً بأن تُسمع آراؤهم . وقال مسؤول في الأمم المتحدة يعمل في القضايا البيئية إنه في الصين ، حيث لم يكن من السهل الطعن في القرارات الحكومية المتعلقة بمشاريع التنمية الحضرية في السابق ، بدأت تظهر روح من المشاركة ، تجلت في الآونة الأخيرة في مسائل تتعلق بأماكن بناء منشآت حرق النفايات .

شبان مصريون محتشدون على كوبري قصر النيل المطل على نهر النيل في وسط القاهرة.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ماثيو كاسل

والكيفية التي يتعامل بها المخططون والسياسيون مع التحضر في بلدان ثلاثة أُخذت على سبيل العينة ، وهي الهند ونيجيريا والمكسيك ، توضح بعض التباين في سياسات وبرامج التصدي للنمو الحضري السريع ، أو في كيفية تصحيح الأخطاء التي سمحت بحدوثها دون تخطيط أو إعداد جيد . ولكن رغم اختلاف ما قد يكون للمدن من تاريخ وما قد تواجهه من تحديات ، فإن الغايات التي يتوخاها مسؤولو المدن تكاد تتشابه في كل مكان . فهم يقولون إنهم يريدون خلق بيئات أفضل وأكثر أمناً ، مجهزة بمستويات مقبولة من الخدمات العامة والهياكل الأساسية ، كما يسعون إلى التصدي للزيادة العارمة في حركة السيارات والمشاة .

منظورات بشأن التوسع الحضري

دار في السنوات الأخيرة جدل بشأن ما إذا كان تزايد العيش في المناطق الحضرية أمر مؤسف لما يترتب عليه من تكاثر للأحياء الفقيرة حيث ينعدم الصرف الصحي ، وتتفشى الأمراض الوبائية ، ويعم الاستغلال وتسري المخاطر البدنية ويغيب القانون فيُترك أمر حفظ النظام لعصابات إجرامية ، أم أنه أمر ينبغي الترحيب به لما تتيحه الحياة في المدينة من فرص عمل وفرص استفادة من الخدمات الصحية ، وخدمات تنظيم الأسرة والمدارس وما تقدمه للمرأة من فرص اقتصادية إضافية . فتعظيم الفرص والتقليل من المخاطر والصعوبات هي التحديات الإنمائية الرئيسية في التحولات الحضرية الراهنة .

غير أن الاتجاهات الحضرية ليست موحدة . ففي الهند ، على سبيل المثال ، تتقلص التجمعات السكانية في مراكز المدن التقليدية في الوقت الذي تنمو فيه الضواحي ، حسبما يتبين من الإحصاءات . وكثيراً ما يستشهد بمومباي كمثال رئيسي . وتفيد الأرقام الجديدة المستمدة من تعداد عام ٢٠١١ أن مدينة ثين الواقعة في ولاية ماهاراشترا على بعد ٤٣ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من مدينة مومباي والتي يعود تاريخها إلى عدة قرون حيث كانت في السابق ضاحية تقطنها الطبقة الوسطى ، قد تضخمت وتزايد عدد سكان الأحياء الفقيرة فيها . وتشكل ثين الآن ٩,٨٤ في المائة من سكان الولاية ــ حيث يبلغ عدد سكانها ١١ مليون نسمة . وهذه قفزة في النمو تقارب ٣٦ في المائة على مدى عقد من الزمن . أما سكان مدينة مومباي نفسها ، البالغ عددهم ٣,٤ ملايين نسمة ، فكان معدل نموهم سلبياً إذ تناقص بما مقداره ٥,٧٥ في المائة خلال الفترة نفسها .

ويقول أميتاب كوندو ، أستاذ الاقتصاد في مركز دراسات التنمية الإقليمية وعميد كلية العلوم الاجتماعية في جامعة جواهر لال نهرو في نيودلهي ، إن بعض المدن الكبرى في الهند تواجه ما أسماه ظاهرة "التوسع المتردي لأطراف المدن" ، حيث يضطر الناس إلى الانتقال إلى الضواحي بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة وندرة فرص العمل المجزي فيعيشون في مستوطنات مخصصة على هامش المناطق الحضرية . وفي تلك المستوطنات الهامشية ، يفقد الناس مزايا الحياة الحضرية والحياة الريفية على حد سواء . ويقول كوندو إن الجهود المبذولة مؤخراً لتنظيف وتجميل المدن في الهند ، والتي أطرى عليها الكثيرون ، تغير طابع المدن ، لكن ليس نحو الأفضل بالضرورة .

ويرى كوندو أن الاعتبارات الاقتصادية الدولية هي التي تحرك هذا التحول . ويضيف قائلاً "إن البلدان السريعة النمو ، وخصوصاً في آسيا ، تحاول الوصول إلى أسواق رأس المال العالمية ، والسبيل الوحيد إلى ذلك هو مدنها الكبيرة . ومع تزايد الاستثمارات ورؤوس الأموال الأجنبية ، ترتفع الأسعار ، وتصبح الحياة في المدينة أكثر تكلفة ، كما أن العديد من التحسينات التي تشهدها المدن الهندية لا تستفيد منها أساساً إلا الطبقة الوسطى" .

وقال كوندو "إن المدن الكبيرة تفقد فقراءها لأنهم لا يستطيعون العيش فيها . وفي وقت سابق ، كان الناس يأتون إلى دلهي وفي حوزتهم

قرابة ١٠٠٠ روبية [نحو ٢٢ دولاراً] ويبحثون عن عمل لمدة شهر . أما الآن فإن ١٠٠٠ روبية لا تمكنك من المكوث لمدة أسبوع واحد . ولذلك ، انخفضت نسبة الفقراء في دلهي من نحو ٥٥ في المائة على مدى ثلاثة عقود إلى ٧ في المائة" .

والنتيجة ؟ يقول كوندو "إننا نطهر مدننا . والتطهير يعني تنظيف البيئة ، . . . وإزالة الأحياء الفقيرة ، وإزاحة مستوطنات ذوي الدخل المنخفض" . وخلال هذه العملية ، تهدر المدن كل فرصة لتحويل الفقراء في المناطق الحضرية إلى محرك للنمو والتنمية ، وبدلاً من ذلك لا ترى في الأميين ، والعمال غير المهرة إلا عبئاً من حيث النظافة والصحة وإقامة القانون والنظام .

وتغيير التوازن الاجتماعي للمدن في الهند موضوع هام يمكن أن ينكب على دراسته الديمغرافيون والاقتصاديون لأن ٤١٠ ملايين شخص من سكان البلد البالغ عددهم ١,٢ بليون شخص يعيشون بالفعل تحت عتبة الفقر . وهذا ما يمثل ثلث فقراء العالم بأسره ، وفقاً لتقديرات البنك الدولي ، الذي يشير أيضاً إلى أن الفجوات في الدخل الهندي آخذة في الاتساع .

وقال كوندو "إن النمو ـ في المقاطعة المركزية من مومباي ـ قد انخفض بشكل كبير . وحدث نفس الشيء في تشيناي وحيدر أباد وكولكاتا ـ وفي كل المدن الكبرى وجميع المقاطعات الحضرية المركزية . وفي وقت سابق ، كان المرء يأتي من المناطق الريفية ويعمل في تلميع الأحذية أو يعمل نقالاً يدفع عربة . بيد أن تلك الوظائف آخذة في التناقص بتراجع الهجرة من الريف إلى المدن . ويقول كوندو وديمغرافيون آخرون إن الهند بحاجة إلى تشييد مدن صغيرة ومتوسطة ، تكون في متناول الفقراء وتوفر فرص عمل .

وقال فوجدار رام ، مدير المعهد الهندي لعلوم السكان ، وهي مؤسسة جامعية تمنح شهادات علمية ، إنه على الرغم من إزاحة الفئات المهمشة بل وحتى فئات الطبقة الوسطى من مدينة مومباي ، فإنهم لا يزالون يرغبون بالعمل فيها . وقال إن ثمة متنقلون يأتون إلى المدينة من مناطق نائية عديدة ، بما فيها بيون ، الواقعة على بعد ١٦٣ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مدينة مومباي ، والتي شهدت نمواً سكانياً سريعاً . وقد اتصلت الآن بيون بمومباي عبر طريق سداسي سريع خفض الوقت الذي يستغرقه سفر من يملكون سيارات أو مالاً للتنقل بالحافلات بين المدن . ويتساءل رام "لماذا يأتي الناس من بيون ؟ لأن بيون بحاجة إلى فرص عمل هناك" . وفي الوقت نفسه ، يلزم تحسين وسائل النقل العمومي التي تقدم خدمات لأعداد غفيرة من الركاب . فقطارات الركاب في مومباي مشهورة باكتظاظها وبطء خدماتها وتفشي التحرش الجنسي بالراكبات فيها .

فرص جديدة للمرأة

تقول ساجانا جيراج ، التي تكتب لفائدة "منظمة شؤون وسائط الإعلام" وهي منظمة غير حكومية تعمل في مجال تطوير الاتصالات ودراسات المرأة في المناطق الحضرية ، إن العديد من النساء يرين جانباً إيجابياً في تطور وسط مومباي . فتوسع مهن الخدمات وقطاع التكنولوجيا يجلب مزيداً من النساء للعمل في المدينة والنهوض بتعليمهن ومهاراتهن . وما تصفه بأنه "قبيلة متنامية من الشابات العاملات والدارسات في نفس الوقت" يقمن برحلة يومياً لمدة ساعتين أو أكثر من الضواحي الداخلية والخارجية لمدينة مومباي . ويشكلن نوعاً مختلفاً من المهاجرات في المناطق الحضرية ، اللواتي يتميزن بمستوى تعليمي جيد ويعشن عيشة الطبقة الوسطى ، ويوازنّ في كثير من الأحيان بين الحياة الوظيفية والحياة الأسرية . وتقول جيراج "إن مشهد المرأة التي تقوم بتقشير الخضار في قطار عودتها إلى البيت مشهد مألوف" .

ونمط نمو سكان الأحياء الهامشية ذوي الدخل المنخفض واضح في ثين ، حيث يعيش حوالي ٣٠ في المائة من السكان الآن في أحياء فقيرة .

ففي بهيم نغار ، إحدى المستوطنات ، يعيش ١٠ أشخاص إلى ١٥ شخصاً في بيت صغير (يتألف غالباً من غرفة واحدة) ، حسب أقوال القاطنين . والعديد منهم إن لم يكن معظمهم رجال عاطلون عن العمل أو لا يجدون إلا عملاً عرضياً على تلك المسافة من مدينة مومباي . أما النساء فحظهن أفضل لأنهن قادرات على العمل كخادمات بيوت ، لكن تلك الوظائف أيضاً لا توفر أي ضمانات أو فوائد على المدى البعيد . ومجرد استمرار الحياة من يوم إلى يوم هو مبتغى معظم الأسر . ولا أحد يضمن ألا يطرد من بيته المكتظ في تلك الأزقة المزدحمة والموحلة .

ويقول رام من المعهد الهندي لعلوم السكان في مومباي "إن الأحياء الفقيرة ظاهرة معقدة . إذ أن معظم الناس مستأجرون والملاك ساسة منتخبون من الأعيان المحليين" . ففي المدن الهندية ، يستخدم الساسة المحليون الأحياء الفقيرة ومدن الصفيح "كمصارف أصوات انتخابية" في دوائرهم الانتخابية . ومن مصلحتهم أن يظل الفقراء هناك بأعداد غفيرة . لكن مالكي الأحياء الفقيرة ، يتنافسون مع المنعشين العقاريين الذين يجعلون من المناطق غير المدمجة ذات الملكية الغامضة هدفاً رئيسياً لتنمية القطاع الخاص ، على حد قول رام . وعندما يكون للمنعشين العقاريين مساندون أقوياء ، فإن الأحياء الفقيرة يمكن أن تُجرف دون سابق إنذار ، وتشتت أسرها . ويقول رام إنه نادراً ما يطلب من المنعشين العقاريين أن يخصصوا جزءًا من المشروع السكني لذوي الدخل المنخفض .

وقال رام إنه رغم انخفاض الهجرة من الريف إلى الحضر ، فإن ولاية مهاراشترا ستظل تستقطب المهاجرين غير المهرة الباحثين عن عمل لأن الحواجز اللغوية ليست عصية على التخطي في منطقة مومباي المتعددة اللغات . لكن قد تكون اللغة حاجزاً أمام المتحدثين بالهندية من سكان الشمال ، مثلاً ، ممن يسعون لملء وظائف في المدن بمناطق أخرى تشهد نقصاً في اليد العاملة ، من قبيل كيرالا وتاميل نادو ، وكارناتاكا .

جاذبية فرص العمل

تعد مدينة بيواندي ، الواقعة في اتجاه الشمال الشرقي ، على مسافة حوالي ٦٠ كيلومتراً من مومباي والتي تظل ، مع ذلك ، جزءًا من منطقتها الحضرية ، حالة إفرادية تجسد التقاء التصنيع والتحضر في الهند . وقد ظلت بيواندي لسنوات عديدة بلدة صغيرة تشتهر بنساجيها اليدويين . ومع الكهربة وإدخال النساجات الكهربائية ، أصبحت بيواندي "مانشستر الهند" ، إذ ضمت أكبر عدد من مصانع النسيج في البلد ، فتقهقر إلى مرتبة ثانوية العمل التقليدي للمزارعين ، وصيادي الأسماك ، والتجار وتجار التوابل .

وتشغل مناسج بيواندي جزءًا رئيسياً من القوى العاملة في المدينة ، ولكن مصانع الغزل والنسيج التي تعمل على مدار الساعة ، تحتاج دائماً إلى المزيد من العمالة فأصبحت الأعداد الغفيرة من المهاجرين القادمين من ولايات هندية أخرى سمة رئيسية للسكان . ولا يزال الشبان يأتون إلى بيواندي من الولايات الفقيرة في شمال الهند ، ولا سيما ولاية أوتار براديش ، للعمل في المصانع التي تبدو وكأنها صور من صور إنجلترا في القرن التاسع عشر .

سكان محليون يقومون بأعباء يومية في الأحياء الفقيرة بينغالي كولوني بمنطقة شرق كيدواي ناغار في دلهي ، الهند.
© سانجيت داس/ بانوس

وكان بالإمكان أن تشكل بيواندي مثالاً جيداً لمدينة صغيرة مستدامة اقتصادياً ومكتفية ذاتياً لو تم تحديث العيش لجعل البيئة أكثر ملاءمة ومراعاة للاعتبارات الصحية . بيد أن الوظائف قذرة ، ومتقلبة ومحفوفة بالمخاطر . فالسقائف الضخمة والقذرة والخانقة والمكتظة بالأنوال كثيراً ما لا تكون مجهزة بمياه جارية أو بمراحيض . لكن المهاجرين ، وكلهم تقريباً من الرجال والفتيان ، يظلون فيها لسنوات أو عقود ، ويصبحون عملياً قاطنين ، لأن الحياة هناك أفضل من الحياة في قراهم وما يحصلون عليه من دخل يعيلون به أسرهم وقراهم البعيدة .

وهم بقمصانهم المبتلة بالعرق وسراويلهم الرخيصة ، ونعالهم الخفيفة ، يجلسون قرب الأنوال المقعقعة التي تصدر أصواتاً تصم الآذان ، ولا يرتدون أي أجهزة واقية لحماية أنفسهم من هذه الآلات الضخمة المتحركة . ويقول العمال إنهم يعانون من حوادث العمل والأمراض المهنية والصدمات الكهربائية ، والإصابات من المكوكات الطائرة ، والالتهابات الجلدية والسل . وتبدو أماكن سكناهم العديمة النوافذ علباً إسمنية مكدس بعضها فوق بعض على عدة طوابق حيث ينام ما قد يصل إلى ١٠ عمال في غرفة واحدة . والعشرات منهم يشتركون في مرحاض عمومي وصنبور .

وكان العمال الذين قضوا سنوات في المصانع يتوقون إلى أن يرووا قصصهم لأغراض تحرير هذا التقرير . فناجيندرا تيواري ، البالغ من العمر ٤٢ سنة ، جاء من جوراخبور في ولاية أوتار براديش ، إلى بيواندي في عام ١٩٨٨ عندما أصبح والده ، وهو مزارع فقير ، غير قادر على تحمل تكاليف العثور على أزواج لبناته الخمس فاضطر ناجيدرا إلى الهجرة بحثاً عن المال لمهور أخواته . وتعين عليه أن يترك وراءه زوجة وأربعة أطفال .

وبصفته خريج مدرسة ثانوية وله مهارات إدارية ، انتقل من مصنع إلى مصنع ، ولكن العمل لم يكن سهلاً . وقال: "لقد عملنا في نوبات مدتها ١٢ ساعة ، وكنا نتقاضى أجورنا كل ١٥ يوماً . وليس هناك أي عطلات" . وكان تيواري يحصل على أجر يعادل أقل من ٢٠ دولاراً في الشهر ، على أساس العمل بالقطعة ، فكان يدفع ٢٥٠ روبية (حوالي ٥,٦٠ دولارا) شهرياً مقابل إيجار غرفة كان يتقاسمها مع ثلاثة رجال آخرين . وعندما سمح له أخيراً رب مصنع بحضور المحاضرات الأسبوعية بشأن الوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية التي يديرها فرع محلي لجمعية تنظيم الأسرة في الهند ، انخرط بحماس ونشاط في حملة الجنس المأمون .

وقال "كنت انتظر بفارغ الصبر أيام الجمعة طيلة ستة أشهر . فقد فقدت ابن عم لي بسبب مرض الإيدز في قريتي وكنت أرغب في العودة والتحدث إلى سكان القرية ، الذين لا يعرفون شيئاً عن الإيدز" . ونظراً للأعداد الغفيرة من الرجال الذين يعيشون من دون عائلاتهم في بيواندي ، فإن مهنة الدعارة تزدهر .

وأعجبت الجمعية المحلية لتنظيم الأسرة بتفانيه وبما يتمتع به من مهارات التواصل ، فجعلت منه أحد مثقفي مجموعات الأقران ، ثم موظفاً بالجمعية ، ولكن تيواري يقول إنه لا يزال يعيش مع عمال المناسج الذين ينتمي معظمهم إلى ولايته . وتغطي الجمعية المحلية لتنظيم الأسر حوالي ٢٠ ٠٠٠ عامل مهاجر (من أصل ٤٠ ٠٠٠ في المنطقة) بمشاريع التوعية والوقاية والفحص المتعلقة بفيروس نقص المناعة البشرية ،

▲ ناريدا تيوالي في وحدة للنسيج في بيواندي. وقد هاجر منذ ١٠ سنوات ، وفي قريته تعتمد أسرته بأكملها على أجرته.
© آتول لوك/بانوس

▲ مفوض لاغوس للتخطيط المكاني، فرانسيسكو بولاجي أبوسيدي، خلال مقابلة مع مسؤولي صندوق السكان في مكتبه في إيكيجا، لاغوس، نيجيريا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أكينتوندي أكينليه

والتي توعي العمال أيضاً بشأن الأمراض الأخرى المنقولة جنسياً والصحة الإنجابية ومسائل الصحة العامة. ويقول العمال إنهم استفادوا من هذه التجربة الحضرية، وإنهم ينقلون المعلومات إلى قراهم في العطلات السنوية لتوعية الآخرين.

ورغم مصاعب ومخاطر عملهم اليومي، يصر الرجال على القول إنه لا بديل لهم ولا مستقبل لهم في قراهم وبلداتهم. وانفرد شيام نارايان براجاباتي، خريج الجامعة البالغ من العمر ٤٥ سنة والعامل حالياً في الجمعية المحلية لتنظيم الأسرة، بالقول إنه وإن عمل في مصانع الغزل والنسيج لأكثر من ٢٠ عاماً، فإنه لا يزال يأمل في العودة إلى بلدته في ولاية أوتار براديش. فهو يريد دخول المعترك السياسي لمكافحة الفساد وسوء الأداء الاقتصادي في ولايته.

ويدرك العمال أن المدينة والصناعة بحاجة إليهم وأنها هي صك تأمينهم. أما سانتال بيند، الذي يعود إلى الشمال لرؤية عائلته كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيعترف بأنه منهك بدرجة لا تسمح له أن بأن يقوم بشيء آخر في بيواندي غير الأكل والشرب والنوم، ومع ذلك فإنه غير قلق على مستقبله ولا يخشى أن يفقد عمله في المصنع بسبب المهارات التي تعلمها بصفته حائكاً. وقال "إذا عدت إلى بلدتي يوماً، فإنني أستطيع أن أجد عملاً في أي مصنع نسيج عند عودتي".

بين المخطط له والعشوائي

في لاغوس، العاصمة التجارية والمالية لنيجيريا والميناء الكبير الذي يعد من أكبر موانئ أفريقيا، قال فرانسيسكو بولاجي أبوسيدي إن أول شيء فعله عام ٢٠٠٧ عندما أصبح مفوض التخطيط لولاية لاغوس، التي تضم المنطقة الحضرية، هو الاطلاع على الخطة الرئيسية لعام ١٩٨٠ وطرح السؤال التالي: "أين أخطأنا ؟"

وقال أبوسيدي الذي تولى منصبه في عام ٢٠٠٧، إن الحكومات المتعاقبة قد تخلت عن الخطة، ومفهوم تخطيط المدن، فتوسعت المدينة كثيراً وتدهورت الحياة الحضرية في غياب تخطيط سليم.

وأضاف قوله "لقد كبرت لاغوس. وأغرى الناسَ نمطُ العيش. وارتفعت معدلات الجريمة. وساد شعور بالضيق الاجتماعي". وبعد تحليل الوضع في المدينة ـ الولاية، قال أبوسيدي إنه يعرف أنه لا يستطيع الانتظار أربع سنوات للبدء في العمل. "فما الذي نستطيع عمله ؟ لقد التقطنا أجزاء من الخطة الرئيسية من هنا وهناك، ومن ثم كنا على استعداد للانطلاق للعمل. وقسمنا لاغوس إلى تسع مناطق ذات سمات مشتركة، وقيمنا نقاط القوة والضعف لتحديد ما تحتاجه كل منطقة".

وقد ولد أبوسيدي في لاغوس، وتلقى تعليمه في المدينة ودرس التخطيط القطري في معهد بوليتكنيك عبدان قبل الانتقال إلى مركز التخطيط الحضري والإقليمي في جامعة ستراثكلايد في اسكتلندا، والعمل لحساب شركة بريطانية تقوم بتخطيط المدن. وقال "اطلعت على شؤون السكان المحليين. فالسكان المحليون محليون للغاية. فتجلس معهم وتسألهم عما ينفعهم". وقد شغل مناصب عديدة في التخطيط في نيجيريا.

وبصفته مفوض تخطيط في لاغوس، جعل أبوسيدي هدف أحد مشاريعه الأولى إعادة تنمية جزيرة لاغوس، وهي أقدم جزء من المنطقة الحضرية، التي أصبحت محمية بريطانية في عام ١٨٦١. وكانت إلى حد ما مهد نيجيريا الحديثة. وكانت جزيرة لاغوس مكتظة ولا تزال كذلك. واستناداً إلى أبوسيدي وآخرين، كان هذا الجزء من المدينة مشهوراً بالأنشطة غير المشروعة.

وبدأت الحكومة تشق طرقاً جديدة وتنظف بعض الشوارع الأشد معاناة من الجريمة لبناء مركز تجاري وشقق ومركز تجاري متعدد الطوابق .

إحياء مدينة تاريخية

لا تزال جزيرة لاغوس مشروعاً جارياً . وقال سكان محليون إن المركز التجاري كان شاغراً في وقت مبكر من هذا العام بسبب غلاء الإيجار بالنسبة لباعة الرصيف السابقين . وبدا العديد من التجار وكأنهم يتشبثون بأكشاكهم غير النظامية المنصوبة في الشارع . ورممت بعض المباني التي تعود إلى العهد الاستعماري في الجزيرة ، والتي ترتبط بالبر الرئيسي للاغوس بطرق معبدة وجسور .

وتقدم أقدم المباني التي لا تزال منتصبة ملامح عما يمكن أن تكون عليه المنطقة من جمال بشوارعها الملتوية وهندستها المعمارية الفريدة . لكن مساعدي المفوض يقولون إنه لن تستبقى إلا المباني ذات الأهمية التاريخية الحقيقية . ويذكر هذا القرار بقرار مماثل في سنغافورة ، حين شرعت الحكومة منذ عقود في جرف المناطق القديمة في الحي الصيني ، لتكتشف فيما بعد أنها أضاعت طابع المدينة وجانبها السياحي . وقد أعيد إنشاء بعض الأحياء لاحقاً .

ومن المشاريع الأخرى المخطط لها في لاغوس تنمية منطقة ليكي لتكون منطقة للتجارة الحرة والصناعة حيث يمكن للشركات أن تعمل في ظل أنظمة ضرائب ورسوم المنطقة الحرة ، وبمنأى

السكان الحضريون حسب المناطق الجغرافية الرئيسية

(نسبة مئوية من مجموع السكان)

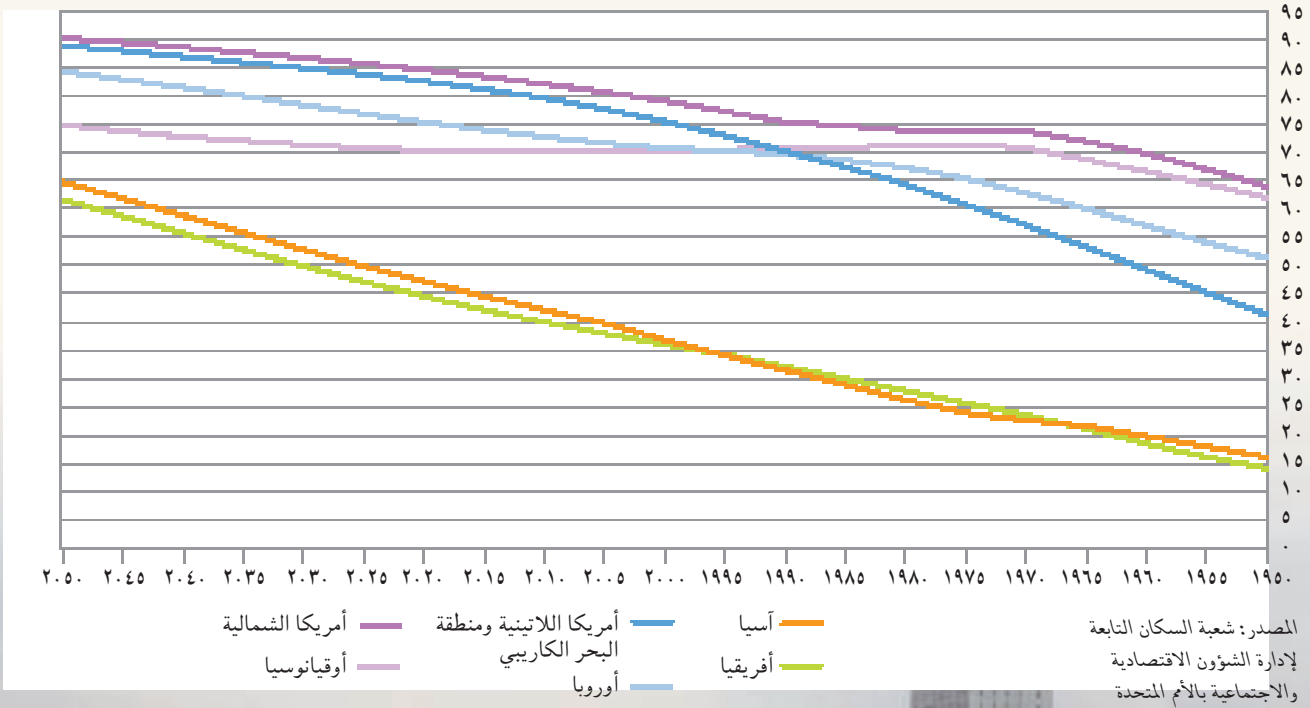

المصدر: شعبة السكان التابعة لإدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية بالأمم المتحدة

© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ أكينتوندي أكينلييه

عن البيروقراطية. والأمل معقود على أن تجلب الشركات فرص العمل في الصناعة إلى المدينة. وقال أبوسيدي متفائلاً "إن الناس سيعيشون ويعملون هناك. وستكون مدينة نموذجية يقطنها حوالي ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة. وسيكون فيها مطار لاغوس الجديد. وسيكون هذا المطار أكبر من المطار الحالي خمس مرات".

ويجري تنفيذ مشروع طموح آخر قبالة جزيرة فيكتوريا القريبة، وهو مكون آخر من مكونات المنطقة الحضرية للاغوس. وهذا هو إيكو الأطلسي، وهو موقع استصلاح يجري بناؤه على الرمال التي يتم ضخها من قاع المحيط وستصبح، استناداً إلى القائمين على المشروع، مدينة تجمع بين المناطق السكنية والمناطق التجارية، وتتسع لما لا يقل عن ٢٥٠ ٠٠٠ نسمة وتوفر مكاتب لما مجموعه ١٥٠ ٠٠٠ عامل. وتقوم حالياً ببناء المشروع شركة أنشئت خصيصاً لهذه المهمة وتمولها بالكامل مصارف ومستثمرون من القطاع الخاص.

ويقول أبوسيدي إنه لا يرى حاجة لبناء العديد من المدن الجديدة في منطقة حضرية يعتقد أنها ستستوعب ٤٠ مليون نسمة في نهاية المطاف. وهدفه هو إنعاش الضواحي والمناطق القائمة فعلاً في المدينة. وأضاف قائلاً "إننا سنخفض وقت التنقل، ونحمل الناس على العيش والعمل واستخدام الخدمات الاجتماعية في نفس المكان. فكيف السبيل إلى تقليل الوقت الذي يستغرقه التنقل؟ وكيف يمكنني أن أحملك على المشي من البيت إلى العمل وإلى المراكز الاجتماعية؟". وقال إن الحياة يمكن أن تكون على قدر أكبر من الصحة وطول العمر في القطاعات الحضرية المستقلة ذات السكن الكثيف والمفتوحة على المساحات الخضراء.

وقال إنه ليس هناك أي خطط لبناء شبكات نقل عمومي في لاغوس أكبر من الشبكة الموجودة فعلاً في مقترحات المشاريع لأن الهدف هو دفع الناس إلى العمل والانخراط في الأنشطة الترفيهية على مقربة من البيت. وأضاف إنه مع ذلك، ينظر في إمكانية النقل المائي عبر بحيرة كبيرة على حافة المدينة. وقال إنه تفقد القوارب في سنغافورة وماليزيا، وتحدث مع سفير هولندا عن الكيفية التي يعمل بها نظام النقل بالقوارب هناك. وقال إن لاغوس مستعدة الآن لمنح امتيازات لمشغلي العبّارات من القطاع الخاص.

ومن قرارات التخطيط التي أثارت قلقاً كبيراً بين مناصري سكان لاغوس الفقراء تفضيل الحكومة الترخيص للمنعشين العقاريين من القطاع الخاص وشركات البناء ببناء مساكن ومراكز الأحياء الجديدة وبيعها للدولة، التي ستعرضها على البيع برهن للقاطنين. وقال أبوسيدي "إننا نريد أن يتبنى الناس ثقافة الرهن العقاري". ويقول المسؤولون إن ثمة قدراً مفرطاً من المعاملات تنجز نقداً، مما يحرم محدودي الدخل من اقتناء عقار.

ويعد "مركز العمل من أجل الحقوق الاجتماعية والاقتصادية" بمثابة منظمة غير حكومية نيجيرية بارزة مقرها لاغوس وتعمل من خلال العمل المجتمعي، وتقدم المساعدة القانونية وتقوم بأعمال الدعوة لتعزيز الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وقال فيليكس موركا، المدير التنفيذي للمنظمة، إنه يعتقد أن خطط الحكومة قد تعود بالنفع على الطبقة الوسطى ولكنها لن تساعد فقراء المدينة.

▼ امرأة تسوق قاربا بمجداف في جماعة ماكوكو بالعاصمة التجارية لنيجيريا، لاغوس.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أكينتوندي أكينلييه

وأضاف قوله ”إن لاغوس تحتاج إلى خمسة ملايين بيت أو أكثر . والحكومة توظف المال في مساكن الطبقة المتوسطة بأسعار ليست في متناول الكثيرين . ولا توجد إجابة حقيقية بشأن وقف نمو الأحياء الفقيرة“ . وقال موركا إن أقل من ١٢ في المائة من سكان لاغوس يملكون بيوتهم .

وتشك منظمته في جدوى النهج التدريجي قطاعاً بقطاع الذي يتبعه المسؤولون في المدينة . ويقول موركا إن عدم وجود شبكة للنقل العمومي هو انعكاس لانعدام التخطيط الكلي . وقال إن المدينة كلها بحاجة أيضاً إلى تحسين الخدمات الصحية والتعليمية . فالكثير من الشبان عاطلون عن العمل ، أو يفتقرون إلى التدريب على الوظائف المتوفرة . وقال إنه يمكن أن يتلقى ٥٠٠ طلب للعمل في مؤسسته ولا يجد إلا طلبين صالحين للنظر في إمكانية توظيف صاحبيهما .

وماكوكو منطقة من المناطق المهمشة التي تعمل فيها تلك المنظمة غير الحكومية . وهي مجتمع من عشرات الآلاف من الناس الذين هاجروا على مدى سنوات عديدة من المناطق الساحلية في نيجيريا ومن بنن وتوغو وغانا . وجزء من ماكوكو يوجد في اليابسة والجزء الآخر هو قرية صيادين كبيرة جداً بنيت على ركائز بحرية في بحيرة لاغوس . وعلى الجانب الواقع في اليابسة ، يقول صغار التجار والعاملون في القطاع غير النظامي إنهم عانوا من الطرد الجماعي على مدى عدد من السنوات ، وكانت آخر مرة تعرضوا فيها للطرد في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٠ . ووقعت تحركات أخرى لإخراجهم قبل أن تتولى السلطة الحكومة الحالية في ولاية لاغوس في عام ٢٠٠٧ ، ولكن يبدو أن السكان المحليين يرون في كل هذه الإجراءات المزعجة لاستقرارهم اعتداءً جماعياً .

تعبئة سكان المدينة

القاطنون والقاطنون السابقون في ماكوكو منظمون تنظيماً محكماً فقد شكلوا جماعة حقوق ، هي ”منتدى المجتمعات المحلية المهمشة“ ، الذي أقام

الرئيس التنفيذي لمركز العمل من أجل الحقوق الاجتماعية والاقتصادية ، فيليكس موركا في مكتبه في حي أوجودو بلاغوس ، نيجيريا .
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أكينتوندي أكينلييه

دعاوى ضد الحكومة في المحكمة منذ عام ١٩٩٠ بمساعدة من جماعات من قبيل ”مركز العمل من أجل الحقوق الاجتماعية والاقتصادية“ . وفي بقعة مقفرة على الجانب الواقع في اليابسة ، خلف صف من المتاجر الصغيرة ، يشير القاطنون السابقون إلى المكان الذي كان فيه فيما مضى حوالي ٥٠٠ كوخ مكون من غرفة واحدة . واستناداً إلى أقوال السكان لم يُعَد توطين إلا ٣٠٠٠ من سكان المنطقة ، من أصل عدد مضاعف عدة مرات من المطرودين . فقد قال أحد القادة المحليين إن عدد المطرودين على مدى السنين بلغ ٣٠٠٠٠٠ شخص .

والأسئلة التي تحوم حول جزء ماكوكو المشيد على البحيرة مثال للتعقيد المفضي إلى الشلل والمتمثل في المواجهة التي يمكن أن تحدث في العديد من البلدان النامية عندما تصطدم الحكومة الراغبة في التحديث والتطوير ، بجماعة شرسة في تمسكها باستقلالها ومقاومة للتغيير ، حتى وإن أفضى ذلك إلى وضع متعفن . ولا يمكن للكلمات أن تصف وصفاً دقيقاً الحياة في قرية الصيد ماكوكو ، إذ فيما عدا صيد السمك ، فإن الصناعات الأخرى الوحيدة هي مناشر الخشب ومعامل التدخين حيث يدخن الصيد اليومي لتسويقه .

وقرية صيد الأسماك ــ وهي في الواقع مدينة قائمة على ركائز بحرية يقدر عدد سكانها بحوالي ٥٠٠٠٠ نسمة أو أكثر ــ تفتقر إلى أي نوع من الخدمات العامة . فليست هناك مياه عذبة . وتستمد

الطاقة الكهربائية بصورة غير مشروعة من خطوط الكهرباء البلدية . ووسيلة النقل الوحيدة داخل القرية هي الزوارق اليدوية التي يوجد منها المئات ، إن لم يكن الآلاف ، وتمخر عباب مياه آسنة بالنفايات .

وقال قائد محلي ، مدعِّيا أن عدد السكان الآن حوالي ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة ممن يعيشون في المجتمع القائم هنا منذ أكثر من ١٠٠ سنة ، إنه لا توجد مدارس باستثناء مدرسة صغيرة تديرها جمعية خيرية ولا مستشفى للطب الحديث ، سوى عيادة يديرها طبيب تقليدي . ولا توجد خدمات لتنظيم الأسرة . وقال القائد إن المجتمع المحلي لم يطلب يوماً تنظيف المستنقع النتن الذي يعيش فوقه أو يحاول إزاحة النفايات المتراكمة . وألقى باللوم على الجزء الواقع على اليابسة عبر البحيرة في التسبب في التلوث ، وقال إنه انتشرت أوبئة التيفوئيد والملاريا ، وهما مرضان يمكن الوقاية منهما .

ويقول القائد المحلي إن مجتمع الصيادين في ماكوكو يمارس تعدد الزوجات ، وإن كان الرجال يقتصرون على زوجتين . وللأسرة الواحدة ما بين ١٠ و ٢٠ طفلاً . وفي معظم الحالات ، يقتسمون هيكلاً خشبياً من غرفة واحدة ورصيفاً صغيراً حيث ترسو القوارب وتُربط . وغالبية الناس يتكلمون لغة إغون التي تنتسب إلى لغة يوروبا المهيمنة في جنوب غرب نيجيريا ، استناداً إلى مراجع علمية . ومع ذلك ، هناك نوع من الفصل العرقي ، استناداً إلى التاريخ والمظهر من الجانبين . وعندما سئل مسؤول حكومي عن السبب الذي جعل سكان ماكوكو يرفضون المساعدات الحكومية رغم أنهم يعيشون في بيئة غير صحية ، وصف المسؤول الموقف المحلي بأنه "شيء عرقي" ، وتكهن بأن البيئة المتدهورة هي نوعاً ما شارة تمرد .

ولكن لا يلزم اعتبار القرى المشيدة فوق ركائز في الخلجان والبحيرات مجرد أهداف للهدم . ففي جنوب شرق آسيا يوجد العديد من هذه القرى التي تكيف فيها الناس مع تغير الأزمنة دون أن يفقدوا سبل عيشهم التقليدية على المياه . ومن هذه المجتمعات مجتمع كامبونغ آير في بندر سيري بيغاوان عاصمة بروني دار السلام ، وهي بلد غني بالإيرادات النفطية مثل نيجيريا .

فقد قاوم سكان كامبونغ آير ، التي تعني "قرية الماء" ، جهود ترحيلهم في الماضي . وغيرت الحكومة المسار في النهاية وقامت بدلاً من ذلك

تعجز جهود تحسين الأحياء الفقيرة ، رغم أهميتها ، عن مواكبة وتيرة نمو أعداد الفقراء

السكان القاطنون في الأحياء الحضرية الفقيرة ونسبة السكان الحضريين القاطنين في الأحياء الفقيرة ، بالمناطق النامية ، ١٩٩٠-٢٠١٠

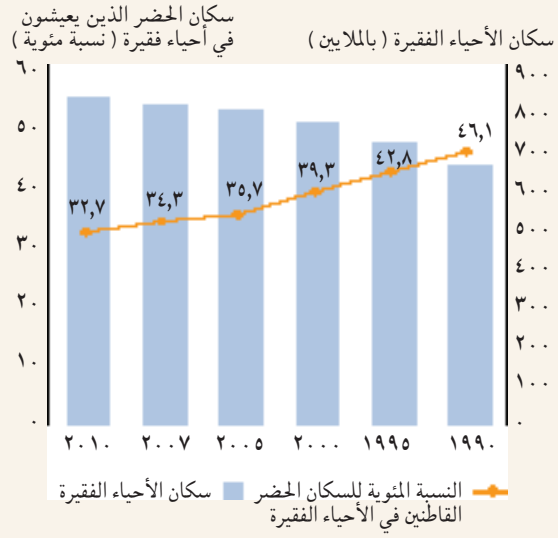

على مدى السنوات العشر الماضية ، انخفضت نسبة السكان الحضر الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة في العالم النامي من ٣٩ في المائة في عام ٢٠٠٠ إلى ٣٣ في المائة في عام ٢٠١٠ . وكون ما يزيد على ٢٠٠ مليون من سكان الأحياء الفقيرة قد تمكنوا من الحصول إما على مياه أو صرف صحي محسن أو سكن دائم أقل اكتظاظاً يدل على أن الدول والإدارات البلدية قد بذلت محاولات جادة لتحسين أوضاع الأحياء الفقيرة ، وبالتالي تعزيز إمكانات إفلات الملايين من الناس من براثن الفقر والمرض والأمية . ومع ذلك ، فإن عدد سكان الأحياء الفقيرة في العالم النامي بالأرقام المطلقة ، يتزايد بالفعل ، وسوف يستمر في التصاعد في المستقبل القريب . وفي العالم النامي ، يقدر حالياً عدد سكان الحضر الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة بحوالي ٨٢٨ مليون نسمة .

المصدر: تقرير الأهداف الإنمائية للألفية لعام ٢٠١٠.

بتحديث المستوطنة ، فأضافت شبكة للصرف الصحي والكهرباء ومدت إلى بيوت ٣٠٠٠٠ شخص أنابيب المياه النظيفة فوق مستوى نهر برواني الذي بنيت فوقه البيوت . وبالإضافة إلى كون كامبونغ آير مكاناً أفضل للعيش ، فإنه الآن منطقة سياحية .

المدن تنمو ـ وتتقلص

في المكسيك ، تبين من التعداد الوطني للسكان أن مجموع السكان يبلغ ١١٢ مليون نسمة أي بزيادة ٤ ملايين عما كانت توحي به التوقعات في وقت سابق . وهذا ما أدى إلى إمعان التفكير في سبب ذلك والكيفية التي حدث بها ، وكيفية ارتباط النمو السكاني بثقافة وتاريخ المدن والمناطق في المكسيك . وقالت سارة توبلسون فريدمان ، نائبة وزير التنمية الحضرية والإقليمية في وزارة التنمية الاجتماعية ، "إن بعض المدن في المكسيك تفقد سكانها ، والبعض الآخر ينمو بمعدلات سريعة" .

"وثمة أسباب عديد تؤدي إلى النمو وأسباب عديدة تؤدي إلى تناقص عدد السكان . وفي المكسيك ، معظمها يعني الهجرة ، إما إلى ولاية أخرى أو إلى مدينة أخرى أو بلد آخر ، أي إلى الولايات المتحدة في الغالب" . وما فتئت وزارتها تجمع الوثائق التي تحلل نمو السكان في المدن المكسيكية والضغوط على مواردها . وخلال هذه العملية ، خلصت إلى أن ثمة فوارق جوهرية المناطق الحضرية القديمة العهد والمراكز السكانية الحديثة نسبياً .

وتقول توبلسون إن ثمة حاجة ماسة إلى التفكير في كيفية نمو المدن . "لنقل لدينا ٨٠٠٠٠٠ شخص في مدينة . فقد ينمو هذا العدد ثلاث مرات ، وهو رقم هائل ، أو قد ينمو خمس إلى عشر مرات . إننا متأثرون للغاية بالنماذج الأمريكية للإسكان والنمو ـ وهي نماذج تقوم على الزحف . وبالتالي فإن المدن تزحف عندما تبدأ المدينة في النمو ، وترتبط مصالح عديدة بالزحف" .

وتبسُط توبلسون خرائط توضح النمو السكاني في عدد من المدن المكسيكية ، وتركز على مدينتين: أكابولكو ، وهي منتجع على الساحل الغربي ، وغوادالاخارا ، في وسط البلاد ، على بعد حوالي ٤٦٠ كيلومتراً شمال غرب مكسيكو . وكانت المنطقة الساحلية الحضرية من أكابولكو أصلاً مدينة صغيرة على خليج المحيط الهادي تضخمت بسرعة خلال طفرة سياحية في القرن الماضي . وتحدد الفنادق والشقق المواقع السياحية الرئيسية ، ولكن ثمة أشياء أخرى في أكابولكو ، إنها الأحياء التي تعيش فيها على مدار العام ساكنة يبلغ عددها مليون نسمة .

وقالت توبلسون إن البلدية لم تعد قادرة على صيانة هذه المنطقة ، ووجهت توبلسون الانتباه إلى حجم الزحف في أكابولكو والقضايا التي تواجه

النسبة المئوية للسكان القاطنين في المناطق الحضرية ١٩٥٠-٢٠١٠

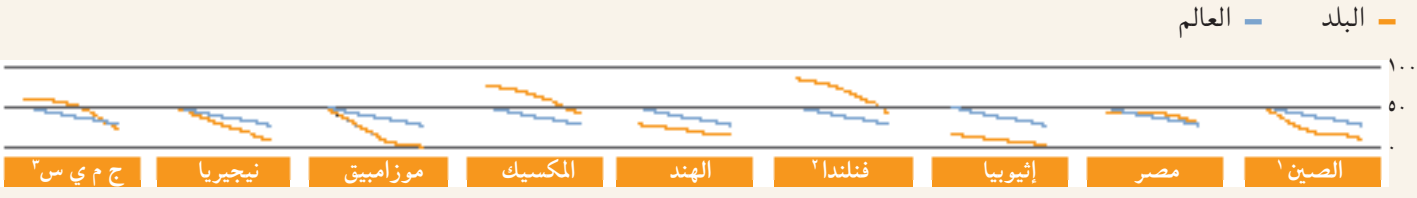

١ لأغراض إحصائية ، لا تشمل بيانات الصين منطقتي هونغ كونغ وماكاو ، وهما منطقتان إداريتان خاصتان في الصين .

٢ بما فيها جزر آلاند .

٣ جمهورية مقدونيا اليوغوسلافية السابقة .

المصدر: الأمم المتحدة ، إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، شعبة السكان ، (٢٠١٠). توقعات التحضر في العالم: تنقيح ٢٠٠٩ .

الخدمات العامة والعمليات الأمنية . وأضافت "وبالطبع فإن المناطق السياحية مختلفة . إن لديهم الكثير من الشقق عالية المستوى لا تكون مشغولة إلا خلال فترة تتراوح بين شهرين وأربعة أشهر في السنة . ومع ذلك ، تضطر البلدية إلى جمع القمامة ، وتنظيف الشوارع ، ودفع تكاليف الإنارة العامة ، وفحص جميع الهياكل الأساسية ـ الأسلاك والمجاري والطاقة" . وعندما تنهك ميزانيات المدن ، يتدهور المستوى الأمني .

وقالت توبلسون إن "قصة غوادالاخارا مختلفة" . ففي غوادالاخارا ، كان للتاريخ والجغرافيا دور كبير في منع الزحف العمراني . فمركز المدينة القديمة في غوادالاخارا ، وكاتدرائيتها التاريخية والساحات المحيطة بها ، لا تزال تستقطب القاطنين وتشكل محوراً قوياً لحياة المدينة . وقالت توبلسون "إن وهداً شاهقاً إلى الشمال الشرقي من المدينة قد حال دون تنميتها من تلك الجهة" . فتناثرت المستوطنات الأخرى في شكل كتل متراصة حول مركز المدينة القديمة .

وعلى مدى ما يقرب من ثلاثة عقود ، تضاعف عدد سكان غوادالاخارا وزاد حجم المدينة أكثر من ثلاث مرات تقريباً . وخلال الفترة نفسها ، تضاعف عدد سكان أكابولكو أيضاً تقريباً ـ بنسبة أقل قليلاً من غوادالاخارا ، ولكن مساحتها اتسعت ما يقرب من ١٠ مرات .

وقالت توبلسون " إن التحدي المطروح لم يعد هو توسيع المناطق الحضرية ولكن التوسيع داخل [المنطقة القائمة من] المدينة . فثمة بقع أرضية شاغرة ، وهناك مناطق شاغرة . وثمة صناعات رحلت . انظر إلى الداخل" . وأضافت إنه على حافة المدن ، يمكن استخدام الأحزمة الخضراء لرسم حدود النمو .

المستوطنات العشوائية

ظل تزايد المستوطنات العشوائية ، أي الفقيرة في كثير من الأحيان ، جزءًا من النمو الحضري لسنوات في المكسيك ، وعلى نطاق واسع في أمريكا اللاتينية ـ وترمز إليه بشكل صارخ الأحياء الفقيرة (الفافيلات) في ريو دي جانيرو ومدن أخرى في البرازيل . ولا تريد توبلسون أن ترى هذا النوع من النمو يتواصل في المكسيك . وأضافت قولها إن المجتمعات العشوائية ستطالب بالخدمات العامة عاجلاً أم آجلاً . كما أن المشاريع السكنية التي يشيدها المنعشون العقاريون من القطاع الخاص تؤثر سلباً على ميزانيات المناطق الحضرية . وتقول توبلسون إنه "حتى لو كانت التنمية يقوم بها القطاع الخاص ، فإن الربط لا يتولاه القطاع الخاص أبداً . فربط الأحياء بالمدينة ، أو بالطريق السريع ، أو بالمدارس ، والمستشفيات" كلها أمور تكلف إدارات المدن مبالغ كبيرة من المال .

وتعد مقاطعة مكسيكو الاتحادية المتمتعة بالحكم الذاتي ، وهي العاصمة الوطنية ، صلب منطقة حضرية لمكسيكو الكبرى التي تضم أيضاً أجزاء من ولايتي مكسيكو (وهي كيان سياسي منفصل) ، وهيدالغو المجاورتين . وفي جميع أنحاء المنطقة الحضرية لمكسيكو البالغ عدد سكانها حوالي ٢٠ مليون نسمة ، وفي غيرها من المدن في مختلف أنحاء البلد ، يوجه الاهتمام والمال إلى صيانة الأماكن العامة .

▼ قاطنون شباب ينتظرون قطار الأنفاق في مكسيكو.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو راميريز آريولا

وعلى المستوى الاتحادي ، يجري حالياً إنشاء أو ترميم الحدائق العامة والمناطق الترفيهية . وقالت توبلسون إنه تم استصلاح وترميم ٣٤٠٠ حديقة عامة في مختلف أنحاء البلد في السنوات الأربع الماضية من أجل تحسين حياة المجتمع والحد من الجريمة . وقد سئل سكان المجتمعات المحلية عما يريدونه في حدائقهم ، وأدت طلباتهم إلى بناء مدرجات للوحات الزلاّجة وقاعات للحواسيب وأماكن للخياطة ، ومسارات للدراجات ومسالك للمشي . وقد حُث القطاع الخاص على الانضمام إلى برنامج "تبني الحدائق" ، وضمان صيانة المساحات المفتوحة والمراكز الترفيهية لمدة خمس أو ١٠ سنوات .

وقد أحدثت إدارة مقاطعة مكسيكو الاتحادية المزيد من الشوارع المخصصة للمشاة في أحياء عدة (وتستعار الكراسي المتحركة للمعوقين مجاناً في أكشاك متناثرة) . وتقوم العاصمة الاتحادية والإدارات المحلية المكونة لها ـ والتي تعمل في شكل مدن صغرى أو أحياء داخل مدينة كبرى ـ بفتح ساحات حول المباني التاريخية والمعالم الأخرى ، مضيفة الأشجار ونافورات المياه . وتم تجديد مركز زوكالو التاريخي في المدينة والذي يعود إلى عصور الأزتيك وهو من أكبر الساحات في العالم . وقد تم توسيع الشوارع الرئيسية في المدينة ، وأضيفت الأعشاب والزهور على طول الأرصفة أو الشرائط الوسيطة .

وتمثل حجر الزاوية في التطوير الأخير شبكة السكك الحديدية الخفيفة التي تتخلل المدينة على مستوى الشوارع ، لربط محطات مترو الأنفاق والحافلات . وتوزع على نطاق واسع في جميع أحياء المدينة دراجات تدعى (الدراجة الإيكولوجية) ecobici ليستخدمها أي شخص يشتري اشتراكاً سنوياً لخطة تقاسم الدراجة . ويقول مسؤولون في إدارة التنمية الحضرية والإسكان في المدينة إنه تم خفض ٣٧ في المائة من انبعاثات غازات الدفيئة بفضل هذا المشروع وغيره من المشاريع . وقد أصبحت مدينة مكسيكو مكاناً مختلفاً بعد أن كانت مشهورة بهوائها الملوث .

وفي ولاية مكسيكو الواقعة على الحدود مع مقاطعة العاصمة الاتحادية من ثلاثة جوانب ، شرعت تولوكا عاصمة الولاية أيضاً في تنفيذ خطط طموحة لإنشاء أو توسيع الحدائق العامة . وقالت باتريشيا شيمور رويز ، الأمينة التقنية لمجلس السكان في الولاية . "إن هناك طلباً كبيراً على المساحات الحضرية" ، وقد تم استكمال حديقتين كبيرتين في تولوكا ، ومن المقرر إنشاء مركز دولي للشركات ، وتنفيذ مشاريع أخرى . وقالت شيمور إن المجالس الاستشارية لولاية المكسيك تضم أعضاء من المجتمع المدني .

وفي منطقة الثكنات العسكرية السابقة ، تحول ١٢ هكتاراً إلى مساحة خضراء للركض وركوب الدراجات والتزلج على منحدرات جديدة . وثمة حديقة أخرى أكبر حجماً ، بها مرافق رياضية و متحف للأطفال يعمل بشعار "الرجاء أن تلمس" . ولتحقيق هذين المشروعين ، قاوم مخططو المدن بنجاح طلبات عروض مناقصة

التحضـــر

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

ينبغي أن تعمل الحكومات على زيادة قدرة وكفاءة سلطات المدن والبلديات على إدارة التنمية الحضرية وصون البيئة ، وتلبية احتياجات جميع المواطنين ، بما في ذلك المستقطنون في الحضر ، إلى السلامة الشخصية ، والهياكل والخدمات الأساسية ، وعلى القضاء على المشاكل الصحية والاجتماعية ، بما في ذلك مشاكل المخدرات والإجرام ، والمشاكل الناشئة عن الاكتظاظ والكوارث ، وتزويد السكان ببدائل للعيش في المناطق المعرضة للكوارث الطبيعية والكوارث التي هي من صنع الإنسان . . . [و] تُحث الحكومات على تعزيز إدماج المهاجرين من المناطق الريفية في المناطق الحضرية وتنمية وتحسين قدرتهم على كسب الدخل بتيسير حصولهم على فرص العمل والائتمان والإنتاج وفرص التسويق ، والتعليم الأساسي والخدمات الصحية والتدريب المهني والنقل ، مع إيلاء اهتمام خاص لحالة العاملات وربات الأسر المعيشية . . .

قدمتها الحكومة بغرض نزع الملكية لبناء مكاتب جديدة .

وتستقطب تولوكا وولاية مكسيكو عموماً المهاجرين من مناطق أخرى من البلد . وتقول شيمور إنه في إطار جهد يرمي إلى منع توسيع المزيد من الأحياء الفقيرة في المناطق الحضرية أو الهامشية أو منع المزيد من الناس من الانتقال إلى المناطق المعرضة للفيضانات ، يعمل مسؤولون مع مقاولين من القطاع الخاص لبناء مدن جديدة مستقلة بذاتها تضم بيوتاً للبيع بأسعار في متناول الأسر ذات الدخل المنخفض . ويقع أحد هذه المشاريع ، المسمى بونانزا ، خارج المدينة ، وهو غير مربوط بوسائل النقل العمومي . ويقول مسؤولون إن أصحاب الحافلات الخاصة قد لبوا فعلاً تلك الحاجة ، مما يعكس اتجاهاً في المكسيك يوجب على القطاع الخاص الإسهام بشكل أكبر في التنمية . وقالت شيمور عن مشاريع الدولة لإسكان ذوي الدخل المنخفض "إن شركات البناء ملزمة ببناء

الحياة في الأحياء الفقيرة الهندية : المرأة تتحدث

ربما لا تؤخذ حكمة النساء الفقيرات في الاعتبار عند وضع خطط الحكومات والمؤسسات الدولية ومؤسسات البحوث ، لكنهن يعشن حياتهن اليومية المحفوفة بالمخاطر على الخطوط الأمامية لعالم السبعة بلايين نسمة . وإحصائياً ، تعد المرأة في أفقر القرى والأحياء بالدول النامية ، أماً أو ستكون أماً لمعظم من يضافون إلى عداد سكان العالم في هذا القرن ، وحتى لو كان حظها من التعليم ضئيلاً أو منعدماً ، فإنها تريد أن تخبر عن تجربتها ورأيها وتسدي مشورتها .

بهيم ناغار حي من الأحياء الفقيرة التي حشرت في ساحة مفتوحة في ثين ، وهي منطقة حضرية للطبقة الوسطى تابعة لمومباي ، عاصمة المال والترفيه في مومباي . وتذهب التقديرات إلى أن ٣٠ في المائة من سكان ثين يعيشون الآن في هذه المستوطنات التي تنمو بسرعة . ولكن بهيم ناغار ، بالنسبة لأولئك الذين يعيشون هناك ، هو حي الحيوية والإبداع ، رغم الحرمان والعنف العائلي المتفشي . ففي صلبه نساء يعملن بجد لإعالة أسر كبيرة في ظروف قاسية .

وقضاء فترة بعد الظهر في بهيم ناغار مع بضع نساء مقتعدات الأرض قرب بيوتهن الصغيرة والعديمة النوافذ ، يقدم لمحة عن شعور فطري لكثير من نساء العالم غير المتعلمات وهن يتحدثن عن القوى الاجتماعية والاقتصادية التي جاءت بهن إلى هذا المكان . ونساء بهيم ناغار إذ يعكسن شواغل المرأة وآمالها في مجتمعات نامية أخرى ، يتحدثن لا عن حياتهن اليومية فحسب ، بل أيضاً عن القضايا الكبرى من قبيل: ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، والفرص والمعايير التعليمية ، والثغرات في مجال الرعاية الصحية ، والزواج المبكر للغاية وخطر العنف العائلي الذي يمنعهن من استخدام الخدمات المتاحة لتنظيم الأسرة . ورفقتهن أطفال ينظرون بعيون واسعة ، ويستمعون .

قاطنات بهيم ناغار القادمات أصلاً من ماهاراشترا الغربية ، الهند ، وكلهن يعملن خادمات بيوت في المناطق الحضرية المجاورة. © آتول لوك/بانوس

لقد هاجر جميع النسوة ــ اللواتي ينحدر معظمهن من ولاية مهاراشترا ، حيث تقع مدينة مومباي ــ مع أزواجهن إلى هذا المكان ، ووجدن المأوى في هذه الصفوف الحقيرة من البيوت التي يملكها أصحاب العقارات الذين قد يطردوهن في أي وقت . وتزوج كل هؤلاء النساء في سن المراهقة . فزواج الأطفال غير قانوني في الهند ، حيث حدد قانون ١٩٧٨ سن زواج الفتيات في ١٨ عاماً . غير أن القانون يتم تجاهله على نطاق واسع ، ولا سيما في المناطق الريفية . ولاحظت امرأة أنها لم تكن تعرف أنها قد تزوجت عندما سلمها أبواها إلى رجل في صفقة نظمتها العائلتان . ولم يكن هناك أي مخرج .

ونساء بهيم ناغار اللواتي يعملن خادمات بيوت أو في بعض الأحيان منقبات في القمامة عن نفايات قابلة لإعادة الاستعمال ، غالباً ما يكن كاسبات الدخل الوحيدات في أسرهن ويدفعن الفواتير ، بما فيها الإيجار الذي يبلغ حوالي ٣٨ دولاراً في الشهر من أجور شهرية نادراً ما تتعدى ٥٠ دولاراً . وقلن إن أزواجهن عمال مياومون لا يعملون إلا من حين لآخر عندما يعثرون على عمل .

ومن المشاكل التي تعاني منها أسر كثيرة الإدمان على الكحول والعنف . وقالت امرأة في منتصف العمر من خلال مترجم شفوي "إنني أعمل طوال اليوم ، وأعود إلى البيت وأقوم بالطهي ، وقبل أن أتناول الطعام يضربني زوجي" . فهو يبحث عن ذرائع للاعتداء عليها . ومن شكاويه "الطعام بارد ، أو أنه غير لائق ، أو مالح جداً" . وتقول النساء المصابات بكدمات إنهن لا يستطعن أن يتوقفن عن تنظيف البيوت أو الطبخ في انتظار أن تندمل الجراح لأنهن

مرافق من قبيل المدارس والمستشفيات. وهذا ما لا يتم في العديد من الأماكن الأخرى".

ويشكل نمو المدن في كل مكان تحديات حقيقية بالنسبة للحكومات والناس الذين يعيشون فيها. ولكن التوسع الحضري يمكن أن يشكل محركاً إيجابياً للتنمية الاقتصادية والبيئية والاجتماعية المستدامة، استناداً إلى تقرير لصندوق السكان صادر في عام ٢٠١١ تحت عنوان، ديناميات السكان في أقل البلدان نمواً: تحديات وفرص التنمية والحد من الفقر. ويضيف التقرير إنه بتزايد السكان، من المنطقي من الناحية الاقتصادية والبيئية أن يقترب الناس من بعضهم البعض في المناطق الحضرية. فالتحضر يخلق فرص عمل تمكن البلدان من توفير الخدمات الأساسية بتكلفة أقل للفرد الواحد. ويمكنه أيضاً أن يخفض استهلاك الطاقة، ولا سيما في مجال النقل والإسكان، ويخفف من الضغط السكاني في المناطق الريفية.

يخشين فقدان وظائفن. وليس للأسر ضمان اجتماعي ولا معاشات تقاعدية ولا تأمين.

وقالت نسوة بهيم ناغار إنهن أنجبن ما بين أربعة وسبعة أطفال لكل منهن. وقلن إنهن يعرفن تنظيم الأسرة، وأماكن الحصول على خدماته، ولكن يمنع عليهن استخدامه. وقالت إحداهن "الرجال كثيرو المطالب"، ووافقتها جارتها الرأي. وأضافت "إنهم لا يريدون إلا الأبناء. ويتمتعون بالسلطة". وعندما سئلن عن الحجم المثالي للأسرة، اتفقن على أنه طفلان ــ مقتربين بشكل خارق للعادة من مستوى الإحلال المعترف بها عالمياً ألا وهو ٢,١ طفل، والذي من شأنه أن يؤدي إلى استقرار السكان في هذه الزاوية من الهند. ويقول القاطنون في بهيم ناغار إنه لا يوجد فيه إلا ١٠ مراحيض؛ خمسة للرجال وخمسة للنساء، ويشترك في استخدامه الآلاف من الناس. ولا تنظف المراحيض النسائية إلا بشكل متقطع. وليس في المستوطنة مياه جارية. والمالك، الذي يفتح الصنابير لبضع ساعات في معظم (وليس كل) الأيام، يفرض سعراً على الأسر يبلغ ١٠٠ روبية، أي حوالى ٢,٥٠ دولار، لملء الأواني المنزلية. كما تباع الكهرباء لهن، مقابل ١٠٠ روبية شهرياً لكل مقبس أو منفذ. ومعظم البيوت مظلمة أو مضاءة بشكل خافت جداً.

والعثور على ما يكفي من الغذاء لأسرهن هو الشغل الشاغل لهؤلاء النسوة ومصدر إجهادهن الفكري وتوترهن النفسي الهائل. ويعرفن أنهن يستوفين شروط الحصول على مساعدة من برامج المساعدة الحكومية الذي يوفر بأسعار مخفضة الأغذية الأساسية والوقود. ولكنهن يقلن إن المواد الغذائية تحول إلى السوق السوداء قبل أن تصل إليهن وحتى لو كانت لديهن بطاقات التموين، فهي عديمة الفائدة عندما تجبر النساء على شراء المواد بأسعار السوق.

ومن خلال كل هذا، تبدي نساء بهيم ناغار قدرة مدهشة على التحمل. فلقد أرسل العديد منهن أبناءه إلى المدارس غير النظامية أو المحلية في الولاية أملاً في أن تكون حياتهم مختلفة. والتحق بعض هؤلاء الأطفال بالتدريب المهني أو التعليم العالي. غير أن العيش بالنسبة للفتيات قد يكون أصعب. فبعضهن في الحي يشتغل خادمات بيوت، إذ انقطعن عن الدراسة لمساعدة أسرهن المحتاجة، وقدر عليهن أن يكررن عيشة أمهاتهن. وأخريات يتزوجن مبكراً ــ ففي بعد ظهر ذلك اليوم أجري حفل خطوبة لفتاة في الرابعة عشرة من عمرها ــ وقد يكون قدرها أن تنضم إلى جيل آخر من ضحايا العنف العائلي.

وفي هذا الحي وفي بضعة أحياء أخرى في المنطقة، للمرأة مكان تلجأ إليه لالتماس المشورة والمساعدة. فثمة في مكان قريب فرع صغير لاتحاد بهارتيا ماهيلا، تلقى مساعدة من صندوق الأمم المتحدة للسكان للبدء في عمله، ويقوم بمساعدة النساء في الحصول على المشورة والمساعدة القانونية أو مكان في مأوى (كفالة طفل أو مدرسة داخلية للأطفال) عندما تشتد الأزمة. ويخصص المتطوعون، بمن فيهم المدرسون والمرشدون الاجتماعيون والأطباء النفسانيون، وقتهم للمركز الذي تشغله المنظمة في ثين. وشُكلت فرقة مسرح الشارع لإيصال الرسائل إلى المجتمعات المحلية الفقيرة. ومن الأعمال الناجحة ذلك العمل الذي يحمل عنوان "انقذ الفتيات وانقذ البلد" والذي عُرض أكثر من ٢٥٠٠ مرة. وقد استقطبت الفرقة اهتماماً واسعاً، ودعيت لعرض عملها في ألمانيا.

وحكت برابها راثور، إحدى نساء الحي الفقير، كيف ساعدها مركز المرأة على التخلص من حياة زوجية عنيفة أُكرهت عليها في سن الرابعة عشرة. وقالت أنها كانت امرأة شابة منزوية ومرعوبة لسنوات عدة، لكنها أصبحت بعدئذ امرأة بالغة واثقة من نفسها تعيش عيشة كريمة إذ تطبخ وتبيع وجبات أغذية هندية (tiffin box) تشتهر بها مومباي بصفة خاصة. ولا تزال تعيش في الحي الفقير، وتساعد الأطفال المهجورين أو المحرومين بشدة. وللأسف، فإنها اضطرت إلى التخلي عن ابنيها للحصول على الطلاق. وقالت "الآن أقول إنني لم أنجب طفلين فقط، بل إن لي الآلاف من الأطفال في المجتمع المحلي".

الفصل السابع

تقاسم موارد الأرض والعمل على استدامتها

لم يكن النمو الاقتصادي العالمي الذي حدث منذ مؤتمر قمة الأرض المعقود عام ١٩٩٢ ، والذي انتشل ملايين الناس من ربقة الفقر ، لم يكن "بلا ثمن" ، ويتحمل تكلفته التي تتزايد يوماً بعد يوم الفقراء والمستضعفون على سطح هذا الكوكب ، بمن فيهم الكثير من سكان أقل البلدان نمواً ، وفقاً لما ذكره أخيم شتاينر ، المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة في مؤتمر للأمم المتحدة عقد في أيار/مايو ٢٠١١ .

وقال شتاينر إن العقدين السابقين شهدا "تغيرات ملحوظة ، وإن كانت معتدلة ، اقتصادياً واجتماعياً وبيئياً في أنحاء كثيرة من العالم" .

فمن تغير المناخ إلى فقد التنوع الحيوي ، ومن ارتفاع معدلات تدهور الأراضي إلى تزايد شحة المياه العذبة ، يترجم التغير البيئي ، حسبما يقول شتاينر ، إلى آثار اجتماعية وبيئية متصاعدة وحالات شح في مختلف المجالات .

ويتابع شتاينر قائلا: "إننا ندرك حاجتنا إلى أن ننمي اقتصاداتنا لكي ننتشل المزيد من الناس من ربقة الفقر ولكي نوفر الوظائف اللائقة للشباب الذين يعانون من نقص العمالة أو البطالة ، وبخاصة في أقل البلدان نمواً . لكن هذا النمو ينبغي أن يكون أكثر ذكاءً" في عالم تعداده سبعة بلايين نسمة . "وما لم نتوخَّ ذلك ، فإن المخاطر والصدمات وضروب عدم إمكانية التنبؤ بأسعار الأغذية والوقود وغيرها من السلع الأساسية ـ على نحو ما جرى خلال العامين أو الأعوام الثلاثة الماضية – يمكن أن تصبح أشد وطأة وأكثر صعوبة على الصعيد الاجتماعي" .

ودعا شتاينر إلى تطوير "اقتصاد أخضر" لا يحقق النمو الاقتصادي فحسب ، لكنه أيضاً يساعد على القضاء على الفقر . "فمن الممكن تحفيز النمو والعمالة مع الحفاظ على البصمة البشرية داخل الحدود الإيكولوجية" .

لقد اتسعت بالفعل رقعة البصمة الإيكولوجية للبشر ، وفقاً لما أعلنته الشبكة العالمية للبصمة البيئية ، وهي أحد مجمعات البحث في شؤون البيئة ومقرها كاليفورنيا: فمنذ السبعينات من القرن الماضي ، أصبحت البشرية "خارج نطاق القدرات الإيكولوجية" حيث تجاوز الطلب السنوي على الموارد ما يمكن للأرض أن تنتجه خلال ٣٦٥ يوماً . "وما أصبحنا نستعمله خلال عام واحد تنتجه الأرض الآن خلال عام ونصف العام" .

وتقيس البصمة الإيكولوجية مساحة الأرض والمياه التي تتطلبها مجموعة من البشر لإنتاج الموارد التي تستهلكها ولامتصاص انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناجمة عنها ، باستعمال التكنولوجيات السائدة .

وفي عام ٢٠٠٧ ، عزي نصف البصمة العالمية إلى ١٠ بلدان ، واستخدمت الولايات المتحدة الأمريكية والصين ، على التوالي ، ٢١ و ٢٤ في المائة من "القدرة الحيوية" للأرض .

صبي يبيع المثلجات في لاغوس ، نيجيريا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أكينتوندي أكينليه

▲ شاب يجلس على سور كوبري قصر النيل المطل على نهر النيل بوسط القاهرة.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ماثيو كاسل

وفي الولايات المتحدة تتطلب إعالة الفرد الأمريكي العادي ٩,٥ هكتارات من مساحة الأرض ، بالمقارنة مع ٢,٧ هكتارات للفرد العادي في جميع أنحاء العالم ، ونحو هكتار واحد فقط للفرد العادي في الهند ومعظم أنحاء أفريقيا . وتقول الشبكة العالمية للبصمة البيئية إنه "إذا عاش كل فرد على غرار نمط حياة الأمريكي العادي ، سنكون في حاجة إلى خمسة كواكب ، لا كوكب واحد" .

الصحفي فريد بيرس المختص في شؤون البيئة يعكس الرأي القائل بأن نسبة ضئيلة من سكان العالم تستأثر بأغلبية الموارد وتنتج أغلبية التلوث .

فنصف البليون الأشد ثراء من بين سكان العالم – والذين يمثلون ٧ في المائة من مجموع سكان العالم – يتحملون المسؤولية عن نحو ٥٠ في المائة من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون على مستوى العالم ، ويعد هذا أيضاً مقياساً بديلاً عن استهلاك الوقود الأحفوري . وفي الوقت نفسه ، فإن نسبة الخمسين في المائة الأفقر من سكان العالم مسؤولة فقط عن ٧ في المائة من الانبعاثات ، وفقاً لما يقوله بيرس في مقال كتبه للموقع الشبكي لجامعة ييل المعنون "Environment 360" . ويجادل بيرس بالقول "إن ذلك هو مجرد استهلاك زائد عن الحد ، وليس نمواً سكانياً ، وتلك هي المشكلة الأساسية" ، مشيراً إلى بحث أعده بول مورتوه بجامعة ولاية أوريغون الذي دافع عن "ميراث الأجيال" لأطفال اليوم . فقد بين هذا البحث أن كل طفل إضافي يولد اليوم في الولايات المتحدة سيظل ينتج ، عبر الأجيال المقبلة ، بصمة بيئية كربونية تعادل سبعة أمثال البصمة التي تنتج عن أي طفل إضافي يولد في الصين ، أو ٥٥ مرة لأي طفل يولد في الهند ، أو ٨٦ مرة لأي طفل يولد في نيجيريا .

النمو السكاني وتغير المناخ

هناك فيض من الدلائل التي تبرهن على أن ما طرأ مؤخراً من تغير على المناخ يعزى في المقام الأول إلى النشاط البشري ، وفقاً لما أورده تقرير حالة سكان العالم ٢٠٠٩ ، "في مواجهة عالم متغير: المرأة والسكان والمناخ" . ولكن التقرير يحذر من أن تأثير النشاط البشري على تغير المناخ ذو طابع معقد ولا يتخذ مساراً خطياً . "وتغير المناخ إنما يتعلق بما نستهلكه ، وبأنواع الطاقة التي ننتجها ونستعملها ، وبما إذا كنا نقيم في مدينة أو مزرعة ، أو نعيش في بلد غني أو فقير ، وما إذا كنا من الشباب أو المسنين ، وبما نأكله ، بل وبمدى تمتع النساء والرجاء بالمساواة في الحقوق والفرص" ، وفقاً لتقرير صندوق الأمم المتحدة للسكان . ويضيف التقرير قائلاً: "كما أن تأثير تغير المناخ على السكان هو أيضاً ذو طابع معقد ، ويستحث على الهجرة ، ويدمر سبل كسب الرزق ، ويخل بالاقتصادات ، ويقوض التنمية ، ويفاقم التفاوتات بين الجنسين" .

وبسبب تزايد الفقر بين النساء ، وتمتعهن بسلطة أقل على مقدَّرات حياتهن ، وقلة الاعتراف بإنتاجيتهن الاقتصادية ، والعبء غير المتناسب الذي يتحملنه في إنجاب الأطفال وتربيتهم ، فإنهن يواجهن تحديات إضافية مع تغير المناخ .

وتقول السيدة أميناتا توريه ، رئيسة فرع شؤون قضايا الجنسين وحقوق الإنسان والثقافة في صندوق الأمم المتحدة للسكان "إن النساء هن الأشد تضرراً من المشاكل البيئية ، بما في ذلك

تغير المناخ . ولأن النساء في البلدان النامية هن المسؤولات عن زراعة المواد الغذائية وتوفير الغذاء للأسرة ، فهن اللاتي تشعرن بآثار المشاكل البيئية مثل حالات الجفاف أو الفيضانات" .

ويعتبر البنك الدولي أن تغير المناخ يمكن أن يعكس مسار مكاسب التنمية التي تحققت بشق الأنفس على مدى العقود الماضية ، وكذلك مسار التقدم المحرز صوب تحقيق الأهداف الإنمائية للألفية . وستحدث نكسات نتيجة لشح المياه ، والعواصف المدارية الحادة ، وحالات المد المصحوبة بالعواصف ، والفيضانات ، وفقد المياه الجليدية التي تذيبها الحرارة دون أن تستفيد منها الزراعات المروية ، وحدوث نقص في المواد الغذائية ، وأزمات صحية . وينطوي تغير المناخ على مخاطر بتفاقم حدة الفقر ، أو إثقال كاهل المهمشة والضعيفة بمشاق جديدة .

ففي جنوب شرق آسيا ، على سبيل المثال ،هناك ٢٢١ مليون نسمة بالفعل يعيشون دون خط الفقر المحدد بدولارين يومياً . ويعيش الكثيرون من فقراء المنطقة في المناطق الساحلية وفي دلتا الأنهار المنخفضة ، وكثير منهم من المزارعين ذوي الحيازات الصغيرة أو الذين يكسبون رزقهم من خيرات البحار . والأسر الفقيرة معرضة بوجه خاص لآثار تغير المناخ لأن دخولها الهامشية لا تمكنها في قليل أو كثير من الحصول على الخدمات الصحية أو شبكات الأمان الأخرى لحمايتها من مخاطر الظروف المتغيرة ، ولأنها تفتقر إلى الموارد التي تمكنها من الانتقال إلى أماكن أخرى إذا ما حلت بها الأزمات .

وللديناميات السكانية أهميتها بوجه خاص عند مناقشة سبل مواجهة تغير المناخ أو التكيف معه . فبعض البلدان الفقيرة ذات المعدلات السكانية السريعة قد لا تتوفر لها القدرة على التكيف عن طريق الهجرة ، على سبيل المثال ، من المناطق الساحلية المنخفضة إلى مناطق حضرية لأن الخدمات والإسكان وفرص العمل للسكان الجدد قد لا تكون كافية .

وفي مؤتمر الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ ، المعقود في كانكون في عام ٢٠١٠ ، أدرج المتفاوضون لأول مرة صياغة تتناول ضرورة قيام الحكومات بأن تأخذ في الاعتبار البيانات الديمغرافية والاتجاهات السكانية لدى وضع الاستراتيجيات المتعلقة بالتكيف مع تغير المناخ .

وفي عام ٢٠١٠ أيضاً ، احتشد ممثلون من أكثر من ٢٠ منظمة غير حكومية ، إضافة إلى صندوق الأمم المتحدة للسكان ، في نيويورك لغرض إقامة شراكات تدعو إلى إدراج القضايا السكانية في جداول أعمال الاجتماعات الدولية المقبلة بشأن البيئة ، وبخاصة مؤتمر ريو بعد ٢٠ عاماً ، وهو مؤتمر متابعة لمؤتمر قمة الأرض المعقود عام ١٩٩٢ ، من المقرر عقده في عام ٢٠١٢ .

ويقوم بعض الخبراء الآن بالفعل بإعداد تقييم كمّي للروابط القائمة بين طائفة كبيرة من القضايا السكانية والاتجاهات البيئية ، مثل تغير المناخ . وعلى سبيل المثال ، ففي ورقة نشرت في عام ٢٠١٠ في سياق أعمال الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية ، وصف برايان سي . أونيل ، أحد العلماء في مجال تغير المناخ ، وفريق من الخبراء الدوليين ، وصفوا الاستنتاجات التي توصلت إليها الورقة بأنها "أول تقييم شامل لأثر

منشأة للطاقة النووية محاطة بكرمة عنب في ضاحية جيان بالصين.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/غيو تيليو

▲ أميليا باسل وزوجها سيلفستر سيلستينو ويزلي يعملان في حديقتهما حيث يزرعان الكرنب والبطاطس وغيرها من المنتجات الغذائية لبيعها في سوق مابوتو.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ بيدرو سا دا باندييرا

انبعاثات ثاني أكسيد الكربون العالمية على التغير الديمغرافي" .

وكانت الاستنتاجات التي توصلت إليها الورقة المعنونة الاتجاهات الديمغرافية العالمية والانبعاثات الكربونية في المستقبل نتاج نموذج جديد للنمو القائم على اقتصاد الطاقة يأخذ في الاعتبار طائفة من العوامل الديمغرافية . ويقول أونيل: "إننا نبين أن إبطاء وتيرة النمو السكاني يمكن أن تحقق ما بين ١٦ و ١٩ في المائة من تخفيضات انبعاثات الكربون التي أشير إلى ضرورة تحقيقها بحلول عام ٢٠٥٠ من أجل تجنب حدوث تغير مناخي خطير" .

وطبقاً لأحد الاستنتاجات التي توصل إليها التقرير ، الذي استعان ببيانات من ٣٤ بلداً تمثل ٦١ في المائة من سكان العالم ، فإن الشيخوخة ستؤدي إلى انخفاض الانبعاثات في المدى الطويل بما يصل إلى ٢٠ في المائة . والشيخوخة هي الآن أحد العوامل ذات التأثير وبخاصة في البلدان الصناعية التي ترتفع فيها معدلات الانبعاثات . ويقول التقرير إن السكان الشائخين في هذا النموذج "يرتبطون بعامل انخفاض إنتاجية اليد العاملة أو بمعدلات مشاركة كبار السن في القوة العاملة" الأمر الذي يؤدي ، إذا ما تساوت الاعتبارات الأخرى ، إلى بطء النمو الاقتصادي ، وفقاً للتقرير . وهذا الاستنتاج يلقي الضوء على بعد آخر من أبعاد المناقشة المتعلقة بحساب التكاليف والفوائد بالنسبة لكبار السن .

ومع ذلك ، فحتى في حالة تحقيق نمو صفري ، فإن ذلك لن يؤثر بالكاد على مشكلة المناخ – التي سيلزم لنا فيها تخفيض الانبعاثات بنسبة ٥٠ إلى ٨٠ في المائة بحلول منتصف القرن ، حسبما يقول فريد بيرس في مقاله المنشور على الموقع الشبكي لجامعة ييل . "وفي ضوء التفاوتات الحالية في الدخول ، لا مفر من اعتبار أن الاستهلاك المفرط من جانب القلة الثرية هو أسّ المشكلة وليس الزيادة المفرطة في عامة الفقراء" .

وفي الصين ، فإن أبحاث البروفسور كاي لين ، من مركز دراسات السكان والتنمية بجامعة رينمن ، تعكس الشعور المتزايد في كثير من الأوساط بأن هناك عوامل كثيرة هي بالضرورة جزء من المناقشات الدائرة بشأن السكان والتنمية ، ولابد من أخذ جميع هذه العوامل بعين الاعتبار . ويقول البروفسور لين إن الصين تعكف على وضع

رؤية شاملة وكلية للعلاقات بين السكان والبيئة وتغير المناخ لا تشتمل فقط على السياسات السكانية ولكن أيضاً إعادة تنظيم الصناعات وتحسين قطاعات الطاقة ، والزراعة ، وتربية الحيوانات ، والحراجة .

ونشر في الصين في عام ٢٠٠٦ تقرير تقييم وطني عن تغير المناخ ، تلاه في عام ٢٠٠٨ وضع خطة عمل وطنية في هذا الصدد . ومنذ ذلك الحين ، بذلت جهود متضافرة للحد من التلوث الجوي ، وتنقية الهواء في المدن ، وتطوير نظم التخلص من الفضلات الحضرية . وتجري زراعة الأشجار والشجيرات على طول الشوارع في المناطق الحضرية وعلى جانبي الطرق السريعة التي تمتد عبر المناطق الريفية . ويجرى إعداد الدراسات بشأن التلوث البحري الناجم عن الفضلات الصناعية ومياه المجاري غير المعالجة .

والصين ، التي تعد الآن أكبر مصْدر في العالم لانبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناجمة عن الوقود الأحفوري ، لديها تخوفات محلية وإقليمية بشأن التغير البيئي وتغير المناخ ، بالنظر إلى موقعها بين أنهار الجليد الآخذة في الذوبان في جبال الهملايا والعواصف المدارية الشديدة التي تهب عليها من المحيط الهادئ . وفي الخطة الخمسية الثانية عشرة للصين التي اعتمدت في آذار/مارس ٢٠١١ ، وعد المسؤولون بإيلاء المزيد من الاهتمام للتطورات البيئية .

وقد حظيت الخطة بالثناء والتأييد من مختلف الأماكن حول العالم لاعترافها بالحاجة إلى توجهات جديدة . وخصصت الحكومة المركزية بلايين الدولارات للتنمية "النظيفة والخضراء" ، وعكف المسؤولون والعلماء الصينيون على العمل مع الأمم المتحدة حول مجالات من قبيل تكنولوجيا الفحم النظيف وإدارة المياه . ووفقاً للمسؤولين والعلماء الصينيين فإن التنمية بمعناها الأعمّ جرى إدماجها في المناقشات المتعلقة بحجم السكان .

ويساعد البنك الدولي الصين على مواصلة زيادة إنتاج الطاقة المتجددة ؛ ويعد البلد بالفعل من بين بلدان العالم الرئيسية في مجال إنتاج الطاقة النظيفة . ويذكر البنك الدولي أنه خلال العقد الأخير كانت نسبة ٩٠ في المائة من استثماراته في الصين مكرسة لهذا المجال . وهذه التطورات لا تساعد فحسب على تنقية الهواء في بعض المدن والمناطق الصناعية المعروفة بشدة معدلات التلوث فيها ، لكنها تساعد أيضاً على ضمان حصول السكان الموسرين على الطاقة الكهربائية اللازمة لتشغيل أجهزتهم الكهربائية التي حصلوا عليها حديثاً فضلاً عن استخدام الكهرباء في الإضاءة . وتتطلب جميع أنواع الصناعات إمدادات موثوق بها من الطاقة الكهربائية من أجل تنمية هذه الصناعات .

وعلى الصعيد العالمي ، شجع البنك الدولي ووكالات الأمم المتحدة البلدان النامية على زيادة استعمال الطاقة النظيفة في استعمالاتها الخاصة وللتصدير . وعلى سبيل المثال ، يقول المتخصصون في طاقة السولار إن البلدان الأفريقية قد يكون بوسعها أن تبيع من طاقة السولار ما يكفي لتلبية الجزء الأكبر من احتياجات أوروبا . وفي مصر ، التي تعيد تجميع قواها بعد ثورة ٢٠١١ ، يولى الاهتمام لإنتاج المزيد من طاقة السولار من المناطق الصحراوية غير المنتجة زراعياً .

ترتبط شيوخة السكان بقلة مشاركة اليد العاملة.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

ويعد تغير المناخ والنمو السكاني السريع من بين العوامل الكثيرة التي تسهم في الجفاف والمجاعة اللذين يحدقان الآن بالقرن الأفريقي ، وتأثر بهما أكثر من ١٢ مليون نسمة ، وفقاً لما ذكرته منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة . "ومع النمو السكاني السريع ، وانخفاض مساحات الأراضي القابلة للزراعة على يد مزارعي الكفاف ، والهجرة إلى الأراضي الحدية ، وشدة آثار تغير المناخ ، واستمرار التهميش الاقتصادي لاقتصادات القرن الأفريقي في اقتصادات العالم ، استمر الضغط على الموارد الشحيحة لهذه المنطقة" .

وتبرز الأزمة القائمة في القرن الأفريقي الحاجة إلى الأخذ بنهج متكامل إزاء تغير المناخ يشمل اتخاذ إجراءات لمساعدة الناس على التكيف مع آثار الجفاف وغيره من الأحوال المرتبطة بالمناخ في الأماكن التي تستغل فيها الأراضي بكل طاقتها من أجل دعم أنشطة الحياة البشرية ، وفقاً لتصريحات أدلى بها باباتوندي أوشوتيمن ، المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان ، لوكالة رويترز للأنباء في شهر آب/أغسطس . وقال: "إننا بحاجة إلى تحسين إنتاج الأغذية... وأن نعمل مع الدول الأعضاء لكي نضمن حصول النساء ، وبخاصة صغار الفتيات ، على التعليم ، بما في ذلك التثقيف الجنسي ، وعلى الخدمات الصحية وخدمات الصحة الإنجابية ، بما في ذلك تنظيم الأسرة . وأكد أوشوتيمن على الطابع التطوعي لسياسات تنظيم الأسرة التي يدعمها الصندوق ، وقال إن الهدف من هذه السياسات في الأجل الطويل هو مساعدة المرأة "على إنجاب الأطفال في الوقت الذي تريده ، وعلى أن تختار العدد الذي يناسبها من الأطفال حسب ظروفها الخاصة" .

الميـاه

تعد مسألة تناقص إمدادات المياه المسألة البيئية الأشد عرضة للإثارة في أغلب الأحيان في البلدان النامية إما لضرورة الحفاظ على إنتاجية الأراضي الزراعية لتلبية الاحتياجات الغذائية الحيوية للأعداد المتزايدة من السكان ، وإما للحاجة الماسة إلى تخفيض المخاطر الصحية التي يتعرض لها السكان المكتظون في المناطق الحضرية حيث لم تواكب الخدمات العامة للمياه – والمرافق الصحية – معدلات النمو .

وكان منتدى اقتصادي عالمي عقد في عام ٢٠١٠ قد أعلن عن توقعات بازدياد الطلب على المياه ، وأشار أحد التحليلات إلى أن العالم سيواجه نقصاً عالمياً بمعدل ٤٠ في المائة بين توقعات الطلب والإمدادات المتاحة بحلول عام ٢٠٣٠ .

ومصر هي أحد البلدان الكثيرة التي يحتمل أن تواجه حالات نقصان حادة في المياه ، وينادي الخبراء الديمغرافيون في القاهرة ، ومنهم هشام مخلوف ، رئيس جمعية الديمغرافيين المصرية ، بتكريس المزيد من الاهتمام لهذه الأزمة المحتملة .

وكان موضوع أمن المياه العذبة في مصر موضوع دراسة أجراها ليستر ر . براون ، مؤسس ورئيس معهد سياسات الأرض في واشنطن ، ومؤلف كتاب عالم على الحافة *World on the Edge* ، والذي يربط حالة عدم اليقين فيما يتعلق بإمدادات المياه في مصر بحصول بلدان من مناطق أخرى مؤخراً – منها جمهورية كوريا ، والصين ، والمملكة العربية السعودية ، والهند – على أراض زراعية أفريقية في السودان (بما في ذلك دولة جنوب السودان الجديدة) .

▼ حارة مخصصة للحافلات في مكسيكو إلى جانب حارات المرور العام.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو رامبريز آريولا

وفي دراسة بعنوان "حينما تجف مياه النيل When the Nile Runs Dry" قال براون إن اتفاق مياه النيل المبرم عام ١٩٥٩ أعطى لمصر الحق في استعمال نسبة ٧٥ في المائة من مياه النهر بعد أن تعبر إثيوبيا وجنوب السودان والسودان، حيث يلتقي فرعا النيل. وقال براون في دراسة نشرت مؤخراً: "إن الوضع يتغير فجأة حيث تقوم حكومات البلدان الأجنبية الغنية ومؤسسات الأعمال الزراعية الدولية بوضع يدها على مساحات هائلة من الأراضي القابلة للزراعة في أعلى حوض النهر". وفي واقع الأمر فإن البلدان المتقدمة النمو والنامية الغنية من خارج أفريقيا تقوم بالفعل بإنشاء مصارف أغذية تحسباً لحالات النقص المقبلة في تلك البلدان عن طريق الحصول على الأراضي الزراعية من البلدان الفقيرة.

"والآن، حينما تتنافس القاهرة على مياه النيل، يتعين عليها التعامل مع العديد من الحكومات والمصالح التجارية التي لم تكن طرفاً في اتفاق عام ١٩٥٩". ويضيف براون قائلاً إن عمليات اكتساب الأراضي تشمل أيضاً اكتساب المياه، وأراضي أدنى المجرى في مصر في حاجة إلى المياه المطلوبة لزراعة محصول القمح الأساسي الذي لا يزال يعتمد عليه سكانها الذين لا يزالون في ازدياد.

غادة برسوم، تعمل أستاذة مساعدة في قسم السياسة العامة والإدارة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وحينما اكتشفت برسوم عدم وجود اهتمام كبير بين طلابها حينما طرحت في قاعة المحاضرات قضايا تتعلق بنمو السكان في مصر، قررت أن تصطحب طلابها في جولة ميدانية. وبالطبع لم تأخذهم إلى الصحراء، لكنهم ذهبوا لمشاهدة عرض وثائقي من إعداد مايكل وودلي، الحائز على جائزة الأوسكار للأفلام الوثائقية، وكان عنوان العرض: مستقبل البشرية: مستقبل المصريين.

كان الشباب الذين التقت بهم برسوم في كلية الشؤون الدولية والسياسة العامة يدرسون في واحدة من أهم الجامعات النخبوية والتنافسية في العالم، وكثير منهم يستعدون لشغل وظائف مؤثرة في مجال تقرير السياسات في الحكومة أو القطاع الخاص.

وقد اشتهر المخرج وودلي بفيلمه وودستوك *Woodstock*، الذي أطلق عام ١٩٧٠، وأرّخ لجيل سابق من الشباب وفاز بجائزة أكاديمية الفنون عن أفضل فيلم وثائقي. وفي الآونة الأخيرة وجه وودلي اهتمامه لتوثيق مخاطر الثقافات الاستهلاكية في كل مكان، وقام بإلقاء المحاضرات في الجامعات والمنظمات المدنية. وقد حضر إلى القاهرة معززاً ببيانات تقرير التنمية البشرية عن مصر لعام ٢٠١٠، المعنون: شباب مصر: بناة مستقبلنا.

أما برسوم فكانت قد أعدت في عام ٢٠١٠ دراسة استقصائية عن شباب مصر بدعم من صندوق الأمم المتحدة للسكان، وعملت من قبل مديرة لبرنامج الفقر ونوع الجنس والشباب لغربي آسيا وشمال أفريقيا التابع لمجلس السكان. وتقول برسوم إن عرض وودلي كان له تأثيره على طلابها في الجامعة الذين لم يفكروا كثيراً في قضية السكان باعتبارها إحدى قضايا السياسة العامة. لكنهم حينما ربطوا بين النمو السكاني والضغوط على البيئة، وخاصة فيما يتعلق بالموارد المائية للبلد، سرعان ما اجتذب الأمر اهتمامهم.

البيئـــة

مقتطفات من برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية

تعتمد تلبية الاحتياجات البشرية الأساسية للعدد المتزايد من السكان على توفير بيئة صحية. والعوامل الديمغرافية، إذ تقترن بالفقر والافتقار إلى فرص الوصول إلى الموارد في بعض المجالات، والإفراط في الاستهلاك وأنماط الإنتاج التبديدية في مجالات أخرى، تسبب أو تؤدي إلى تفاقم مشاكل التدهور البيئي ونفاذ الموارد، ومن ثم تعرقل التنمية المستدامة.

A GIRL
G

الفصل الثامن

آفاق المستقبل: إنجاز مهام جدول أعمال القاهرة

في الوقت الذي يبلغ فيه تعداد سكان عالمنا السبعة بلايين نسمة ، من بينهم قرابة بليونين من المراهقين والشباب ، فإن جدول أعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية لعام ١٩٩٤ يظل وثيق الصلة بالموضوع أكثر من أي وقت مضى ، وفقاً لما أعلنه باباتوندي أوشوتيمن ، المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان .

إن العلامة الفارقة التي يمثلها يوم ٣١ تشرين الأول/أكتوبر حين يبلغ عدد سكان العالم ٧ بلايين نسمة تمثل ، في آن واحد معاً ، "فرصة عظيمة وتحدياً هائلاً" حسبما يصفها الدكتور أوشوتيمن ، الطبيب ووزير الصحة السابق في نيجيريا ، الذي تولى منصبه في كانون الأول/ يناير حاملاً معه خبرة شاسعة من أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، حيث ترتفع معدلات الخصوبة وينتشر الفقر على نطاق واسع . وحمل معه أيضاً كنزاً من الدروس المستفادة عن كيفية التحرك السريع للوفاء بالوعود التي بشر بها المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ، الذي أطلق شرارة برنامج عمل مدته ٢٠ عاماً عبَّر عن وعي بأن الاتجاهات ، أو "الديناميات" ، السكانية المتعلقة بالصحة الإنجابية ، والفقر ، وأنماط الإنتاج والاستهلاك ، والبيئة إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعضها بعضاً حتى أنه لا يمكن تناول أي منها على نحو كاف بمعزل عن غيرها .

ويقول الدكتور أوشوتيمن: "وحيث إن نقطة انطلاقنا هي تلك العلامة الفارقة ببلوغ عدد سكان العالم رقم السبعة بلايين ، فإن هناك أموراً كثيرة يتعين علينا أخذها في الاعتبار" مع التركيز على جدول أعمال عالمي . "وأول هذه الأمور هو إنني أريد لهذه العلامة الفارقة أن تكون مدخلاً يفضي بنا إلى حيث يمكننا أن ندرس قضايا السكان ، والتنمية ، والصحة الإنجابية ، والحقوق الإنجابية ، والخدمات – بما في ذلك خدمات تنظيم الأسرة – وقضايا الشباب" . وفي جميع هذه القضايا ، فإن الحقوق العالمية لها الأهمية القصوى . "ومن وجهة نظري ، فإنني أعتبر أن قضية الحقوق هي التي تحرك كل شيء" ، هكذا أوضح أوشوتيمن في مقابلة صحفية حدد فيها نهجه في العمل .

وقال أوشوتيمن إن الديناميات السكانية المتطورة – كالشيخوخة في البلدان المتقدمة النمو والبلدان متوسطة الدخل ، والمجموعات السكانية الكبرى من الشباب في البلدان النامية ، والهجرة ، والتحضر – لها جميعها تأثيرها على تحقيق التنمية المستدامة للجميع .

وفي صندوق الأمم المتحدة للسكان ، الذي يضطلع بدور رئيسي في الأمم المتحدة فيما يتعلق بقضايا السكان والتنمية ، يأمل الدكتور أوشوتيمن الآن في أن يتحول تركيز الصندوق والمانحين والمجتمع المدني والحكومات والبلدان التي يخدمها الصندوق إلى التدابير العملية والفعالة التي تعجل بإحراز تقدم صوب تحقيق أهداف المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ، والأهداف

▶ شابات إثيوبيات أمام لجنة الشباب والرياضة في أديس أبابا.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/أنطونيو فيورنته

الإنمائية للألفية ، وبخاصة الغاية ٥ – باء ، المتعلقة بتعميم إتاحة خدمات الصحة الإنجابية بحلول عام ٢٠١٥ .

ويقول أوشوتيمن: "إننا ندرك أنه لكي يتسنى لنا بلوغ هذه الأهداف ، علينا أن نولي مزيداً من الاهتمام للمراهقين والشباب" ، مشيراً إلى أن هناك أكثر من ١,٢ بليون من المراهقين بين سن ١٠ سنوات و ١٩ سنة منهم يعيشون في بلدان نامية .

وحول تصوره للسياسات التي يمكن لصندوق الأمم المتحدة للسكان وشركائه اتباعها في المستقبل ، قسَّم أوشوتيمن العالم إلى ثلاث مجموعات من البلدان ذات مستويات متباينة من التنمية ، وتواجه تحديات مختلفة ، ومن ثمَّ لها احتياجات مختلفة ، وهذه المجموعات هي: البلدان النامية ، لاسيما البلدان الفقيرة وتكون أحياناً ذات معدلات نمو سكاني عالية ؛ والبلدان المتوسطة الدخل التي استقر سكانها بالفعل لكنها لا تزال تتعرض لديناميات أخرى مثل الهجرة ؛ ثم البلدان المرتفعة الدخل ، بما فيها عدد كبير من البلدان التي تعاني من تقلص عدد السكان ومن الشيوخة .

التحديات التي تواجه البلدان النامية

يقول أوشوتيمن إن الدول الأعضاء في البلدان النامية "أعربت عن قلقها إزاء تزايد سكانها ، وإننا في صندوق الأمم المتحدة للسكان نريد أن نشارك بالسياسات والبرامج التي تعزز جدول أعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية [جدول أعمال القاهرة] ، الذي تحتل فيه حقوق المرأة مكانة عليا ، وتولى خياراتها أهمية مركزية" . وفي هذه البلدان ، "ينبغي أن تتاح خدمات الصحة الإنجابية للجميع حتى الشوط الأخير . وفي ضوء الأعمال التي نفخر بأننا نضطلع بها في صندوق الأمم المتحدة للسكان ، علينا أن نضمن أن كل حمل مرغوب فيه وأن يولد كل طفل في جو من الرعاية والكرامة" .

ويضيف قائلاً إنه ينبغي أن يكون ضمن هذه الجهود مساعدة البلدان على الوفاء بالاحتياجات غير الملباة في مجال تنظيم الأسرة . "فهناك ٢١٥ مليون امرأة في حاجة إلى خدمات تنظيم الأسرة ولا يمكنهن الحصول عليها . ومن الأهمية بمكان أن يتبوأ صندوق الأمم المتحدة للسكان مكان القيادة في هذه العملية التي ينبغي أن تكون في إطار التكوين الأساسي للصحة والحقوق الإنجابية لكي تحقق الهدف المرجو منها" .

ولكن الأخذ بنهج متكامل إزاء الصحة والحقوق الإنجابية يعني أن خدمات تنظيم الأسرة لا يمكن تقديمها في فراغ . ويوضح أوشوتيمن أن تنظيم الأسرة لا ينبغي أن يكون جزءًا لا يتجزأ من الجهود العامة في مجال الصحة والحقوق الإنجابية فحسب ، ولكن الصحة الجنسية والإنجابية ينبغي أيضاً إدماجها في النظم العامة للرعاية الصحية .

ويمضي قائلاً: "دعوني أعطيكم مثالاً على ذلك: ففي وضع يتم فيه تقديم خدمات رعاية أولية تتعلق بإجراء الفحوص وتقديم الإرشاد بشأن فيروس نقص المناعة البشرية ، يمكن أن تقدم أيضاً خدمات ما قبل الولادة للنساء والتثقيف الصحي المتعلق بمسائل الوقاية . ثم تتخذ الترتيبات لضمان إدماج تنظيم الأسرة في هذه العملية . فهذه الخدمات وما شابهها يمكن تنسيقها وتقديمها بتكلفة منخفضة ، وقد بدأنا بالفعل نشهد أمثلة على حدوثها" .

وليس من شأن الأخذ بنهج متكامل أن يؤدي فقط إلى نتائج أفضل ، لكنه أيضاً منطقي من الناحية الاقتصادية . إذ يمكن تجنب الازدواجية والتداخل ، واستخدام الموارد الشحيحة على نحو أكثر فعالية ، والتقليل من خطر نشوء بعض الخدمات على حساب خدمات أخرى أثناء عمليات التنفيذ .

ويقول أوشوتيمن ، الذي أدار برنامج نيجيريا لمكافحة فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز لفترة ١٠ سنوات ، إنه يعتقد أن الجهود التي بذلت للتصدي لذلك الوباء ربما قيض لها أن تكون أكثر فعالية لو نسقت مع الجهود المبذولة لتحسين الصحة الجنسية والإنجابية والصحة النفاسية .

ويتساءل بقوله: "لماذا لم نعالج آنذاك مسائل الصحة الإنجابية والصحة النفاسية ؟ فنسبة ٢٠ في المائة من الوفيات النفاسية في أفريقيا مرتبطة بفيروس نقص المناعة البشرية . ولماذا لم نبحث بجدية أكبر المسائل المتعلقة بانتقال الفيروس من الأم إلى الطفل ؟ لقد جئت من هناك الآن . ولذلك فإنني أفكر في كل مرة في ما ينبغي لنا أن نقوم به الآن . أعتقد أنه يجب علينا أن نتوصل إلى ترتيب يكون شاملاً ولا يستبعد أحداً ، ويضمن لنا أنه يمكننا أن نحقق الكثير بموارد ضئيلة . وعلينا أن نقطع هذا الشوط الإضافي" .

ويتمثل أحد السبل لتنسيق هذه الإجراءات في تشجيع البلدان على إدماج الخدمات في ميزانياتها وتنظيماتها الوطنية . ويقول أوشوتيمن إنه يعتزم العمل حثيثاً بوجه خاص مع أعضاء الهيئات التشريعية الوطنية ليس فقط لأنهم مسؤولون أمام دوائرهم ولكن لأنهم أيضاً يسيطرون على الإنفاق العام . "وهم يقررون أين تنفق الأموال" .

ويقول أوشوتيمن إن لديه خططاً للدعوة إلى النهج المتكامل بين وزراء المالية والتخطيط والمسؤولين عن الصحة في أماكن عمل الصندوق . ويضيف قائلا: "إن هناك مشكلة رئيسية مع الكثير من النظم في البلدان النامية ، وهي أن السياسات الصحية والاجتماعية لا تحظى بما تستحقه من أولوية" .

وينبغي للحكومات أن تدمج خدمات الصحة الجنسية والإنجابية ، بما في ذلك تنظيم الأسرة ، في ميزانياتها العادية ، وإلا فإن هذه الخدمات تواجه خطر التعامل معها كبنود اختيارية يمكن حذفها وقتما توقف التمويل المقدم من جهة مانحة لأنشطة معينة . "ولابد من تخصيص بند في الميزانية لهذه الخدمات ـ ولجميع خدمات الصحة الإنجابية الأخرى – على أساس سنوي . ويمكن للجهات المانحة أن تدعم هذه الخدمات لكن لا ينبغي لها أن تكون المصدر الرئيسي لتمويلها . وأعتقد أننا في صندوق الأمم المتحدة للسكان تقع علينا مسؤولية التحدث إلى الدول الأعضاء والجهات المانحة التي تدعمها ، وأن نقول لهم: عليكم أن تدرجوا هذا الأمر في جدول أعمالكم" .

"ولا يزال صندوق الأمم المتحدة للسكان ملتزما بالتنمية الوطنية والنابعة من صميم البلدان ، وبتعزيز النظم ا لوطنية" .

وعلى الصعيد العالمي ، وبخاصة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، تعرضت الموارد المخصصة للصحة الجنسية والإنجابية ، بما في ذلك خدمات تنظيم الأسرة ، للضغوط نتيجة لتدهور أزمة فيروس نقص المناعة البشرية/الإيدز . وقام المانحون والبلدان النامية على السواء بتعزيز نصيبهم في الموارد المخصصة لفحوص الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية وعلاجها في حين اعترى الركود تمويل الصحة الجنسية والإنجابية .

ويواصل أوشوتيمن قائلا: "ولكن الأمر لا يتعلق فقط بالأموال . فهو يتعلق أيضاً بتشغيل

▲ باباتوندي أوشوتيمن ، المدير التنفيذي لصندوق الأمم المتحدة للسكان ، في بنغلاديش.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/وليام ريان

الأشخاص الذين جرى تدريبهم على خدمات الصحة الإنجابية . وشغل مقدمو خدمات تنظيم الأسرة وظائف أخصائيي الإرشاد بشأن فحوص الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية . لقد قمنا ببساطة بتحريك الجميع . وهذا ما يجعلني حينما أنظر إلى الوراء أقول لنفسي إنه كان ينبغي لنا جميعاً أن نقول 'نعم ، إننا نواجه هذه المشكلة ، وسوف نعالجها . ولكن العمل الذي يقوم به الأشخاص بالفعل مترابط بشكل كبير . فلماذا لا نقوم فقط بمجرد التوسع فيما نقوم به ؟' ولا ينبغي أن يتعلق الأمر باختيار نشاط دون آخر ، بل ينبغي أن يشمل كلا النشاطين . فالرفالات ، على سبيل المثال ، لا ينبغي النظر إليها فقط باعتبارها ضمن خدمات تنظيم الأسرة أو أنها مجرد وسيلة لمنع الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية . فهي تخدم الغرضين معاً ، ولذلك فلا معنى هناك للفصل بين الخدمتين أو تسديد تكاليفهما من ميزانيتين مختلفتين . ويضيف أوشوتيمن قائلاً: إن الرفالات في معظم الأماكن الآن مرتبطة بفكرة أنها مجرد أداة لمنع الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية ، ويبدو أن معظم الناس قد نسوا أنها وجدت أصلاً كأداة لتنظيم الأسرة .

ويشير أوشوتيمن إلى أن هناك بعض الحكومات التي لا تعطي الأولوية دائما لتنظيم الأسرة . ولذلك فلا تتم مراعاة حقوق المرأة في بعض الأماكن . ولكن بعض البلدان ، مثل بنغلاديش ، قطعت أشواطاً كبيرة نحو توفير الخدمات غير الملباة .

ت . بول شولتز ، خبير اقتصادي في مركز النمو الاقتصادي التابع لقسم الاقتصاد بجامعة ييل ، درس برنامج بنغلاديش التجريبي التطوعي للتخطيط والتوعية في مجال تنظيم الأسرة في مقاطعة ماتلاب في بنغلاديش . وبنغلاديش ، التي شهدت انخفاضاً في معدلات الخصوبة ، أحرزت أيضاً تقدماً كبيراً في تعليم الفتيات وفي بلوغ الأهداف الإنمائية الأخرى للألفية . وعنوان دراسة شولتز ، التي نشرت عام ٢٠٠٩ ، هو تعزيز التنمية

المساعدة في مجال السكان ، ١٩٩٨ – ٢٠٠٨

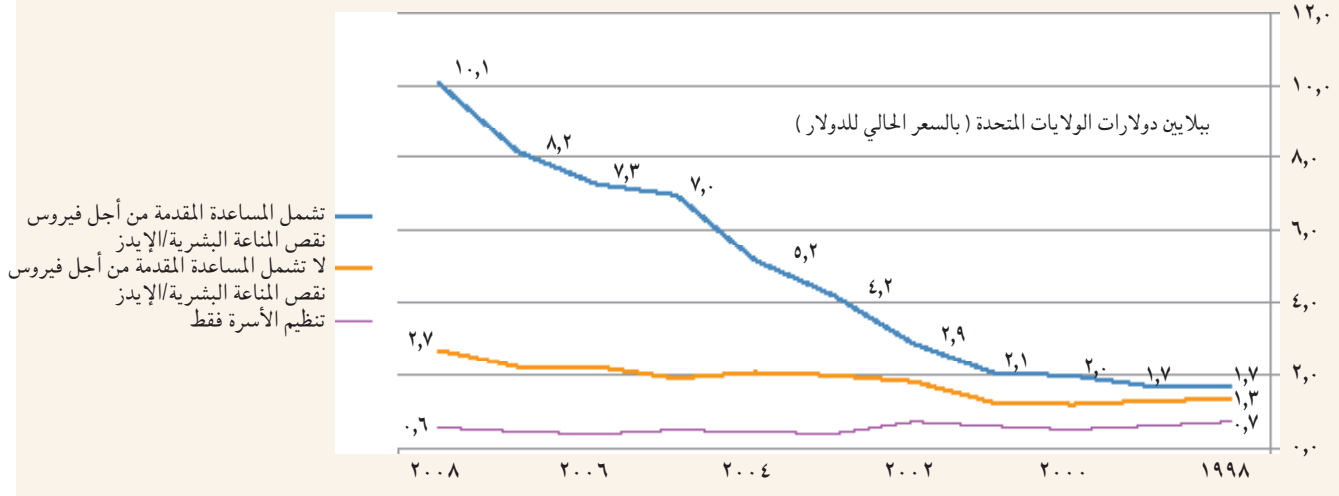

المصدر: تدفقات الموارد المالية للأنشطة السكانية في ٢٠٠٨. صندوق الأمم المتحدة للسكان (٢٠١٠)

من خلال تنظيم الأسرة: شواهد من التجربة الاجتماعية في ماتلاب ، بنغلاديش ، ١٩٧٧-١٩٩٦ .

وفي إطار برنامج ماتلاب يسافر الموظفون من الأخصائيين الصحيين إلى القرى ويعرضون على نسائها مجموعة متنوعة من الخيارات الخاصة بوسائل منع الحمل ويقدمون إليهن معلومات عن استعمالها وسلامتها . وعلى مدى عقدين من الزمان أفضى البرنامج إلى انخفاض تراوح بين بين ١٠ و ١٥ في المائة في معدلات الخصوبة ، وإلى زيادة في أجور النساء بمعدل الثلث ، وفقاً لما ذكره شولتز . وتحسنت أيضاً معدلات بقاء الطفل وتعليمه وصحة الأمهات والبنات ، في الوقت الذي زادت فيه الأصول المملوكة لأفراد الأسر في القرى التي شملها البرنامج – مثل المدخرات المالية ، والمجوهرات ، والسلع الاستهلاكية ، والإسكان ، والحدائق ، والبرك – بالمقارنة بالقرى الأخرى التي لم تشارك في التجربة .

وكتب شولتز قائلاً إنه ينبغي للتحليلات التي ستجرى مستقبلاً أن تتناول الكيفية التي أمكن بها لهذه الأنشطة أن تحقق نتائج طيبة لها أهميتها الحاسمة في تمكين الأجيال المقبلة من الهروب من ربقة الفقر ، مثل تخفيض معدلات الخصوبة ، وزيادة فرص الحصول على العمل المأجور للنساء ، وإحداث تغييرات في المدخرات المنزلية الخاصة ، وفي تكوين الثروات المنزلية ، وأخيراً تحسين معدلات بقاء الطفل ، وصحته ، وتغذيته ، وتعليمه في مرحلة الطفولة المبكرة .

وترى جيتا راو غوبتا ، الرئيسة السابقة للمركز الدولي لبحوث المرأة ، والزميلة الأقدم في مجال التنمية العالمية بمؤسسة بيل وميليندا غيتس ، وهي حالياً نائبة المدير التنفيذي لليونيسيف ، أنه ينبغي أن تتاح للمرأة فرص الحصول على الخدمات التي تمكنها من أن تكون في صلب عملية اتخاذ القرارات والخيارات بالنسبة لحجم الأسرة .

وتقول: "إنه قرار يتعلق بالمرأة . ولو تم إمدادها بما هو متاح من المعلومات ووسائل منع الحمل ، فإنها ستختار الطريقة التي ستستفيد بها منها على أفضل وجه هي وأسرتها . ومعلوم أنها ربما تتأثر بقواعد ثقافية ، وربما تتشاور مع أفراد أسرتها حول إمكانية الوفاء باحتياجات معينة . ولكن هذا هو التحدي الذي عليها أن تواجهه . ... وتتمثل مسؤوليتنا في ضمان أن نوفر لها ، حينما تواجه هذه التحديات ، ما تحتاج إليه من خدمات جيدة النوعية . فهذا هو كل ما يمكننا القيام به" .

التحديات التي تواجه البلدان المتوسطة الدخل والمرتفعة الدخل

يقول أوشوتيمن إنه في البلدان المتوسطة الدخل ، والتي انخفضت فيها معدلات الخصوبة دون مستوى الإحلال ، والتي ربما تكون قد ترسخت فيها خدمات الصحة الإنجابية ، بما في ذلك تنظيم الأسرة ، فإن قضايا مثل الهجرة تحتل واجهة الصدارة . وهناك أيضاً القضايا المتعلقة بعدم التوزيع العادل للثروة ، والعنف المرتكب ضد المرأة ، أو إنكار حقوقها واستبعاد أبناء الشعوب الأصلية .

"أما في المجموعة الثانية من البلدان ، فسيتعلق الأمر بقيامنا بالكثير من الأنشطة التمهيدية في مجال السياسات الاجتماعية" ومساعدة البلدان على رصد برامجها وتقييمها لكي تقرر ما إذا كانت هذه البرامج تصل إلى المهمشين والضعفاء وتعمل على تمكين المرأة والشباب . وفي البلدان المتوسطة الدخل يمكن لصندوق الأمم المتحدة للسكان أيضاً أن يساعد في جمع البيانات عالية الجودة وتحليلها بما يحقق فهماً أفضل للاتجاهات ، مع تقديم المشورة لمقرري السياسات في الحكومة .

ويقول أوشوتيمن إن المكسيك توضح بعض القضايا التي تواجه البلدان المتوسطة الدخل الآن . "فسكانها مستقرون . وهي ضمن البلدان ذات المعدلات المرتفعة جداً فيما يتعلق بانتشار استعمال وسائل منع الحمل" . ولكن البلد يواجه أيضاً عمليات كبيرة من انتقال السكان – من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية ، ومن المناطق الحضرية إلى تخوم المدن ، وإلى بلدان أخرى .

إيرما غيفارا وأطفالها في ميتلاتونوك ، بالمكسيك. غيفارا من المهاجرات السابقات إلى الولايات المتحدة.

© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ ريكاردو رامريز آريولا

ولذا ، فإن جانباً كبيراً من أعمال صندوق الأمم المتحدة للسكان في المكسيك ينصب على مساعدة الحكومة على إدارة الهجرة ، وخاصة إلى المدن ، بما يضمن أن يؤدي الانتقال إلى تحقيق حياة أفضل للناس وألا يفاقم من حالات انعدام المساواة . "كيف نضمن أن تتمكن مكسيكو ، وهي آخذة في النمو ، من أن تلبي احتياجات الجميع من حيث فرص الحصول على خدمات الصحة الإنجابية ، ومن حيث القدرة على الأخذ بالخيارات التي نتوقع لكل فرد أن يتمكن من الأخذ بها ؟ وكيف يمكن لنا أن نحد من انتشار العنف القائم على نوع الجنس ؟ وكيف لنا أن نضمن للشابات استمرار توافر فرص التعليم أمامهن وأن بمقدورهن تحقيق إمكاناتهن حينما ينتقلن إلى المدينة" ؟

أما المجموعة الثالثة من البلدان – وهي البلدان المرتفعة الدخل – فهي تواجه أيضاً مشكلة الهجرة وتسعى إلى معالجتها ، ولكنها الهجرة إلى تلك البلدان وليس منها . فمعظم هذه البلدان تواجه أيضاً المشكلة التي تتزايد أهميتها يوماً بعد يوم والمتعلقة بشيوخة السكان ووضع السياسات اللازمة لتلبية احتياجات كبار السن مع الإبقاء على مشاركتهم في مجتمعاتهم . ويضيف أوشوتيمن قائلاً "إن على كل المجتمعات والمجتمعات المحلية أن تعد وتنشئ الهياكل التي يمكن أن تستوعب كبار السن وأن تتعامل بكرامة مع هؤلاء الذين بلغوا تلك الأعمار المتقدمة" .

ما بعد عام ٢٠١٤

من المقرر أن ينتهي أجل برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية في عام ٢٠١٤ ، ولا يزال تحقيق الكثير من أهدافه أمراً بعيد المنال في بلدان كثيرة . ويقول أوشوتيمن إنه "لحسن الطالع ، هناك قرار للجمعية العامة يسمح لنا بتمديد أجل البرنامج خلال عام ٢٠١٤ وأن نواصل عملنا في إطاره لأنه لا يزال هناك الكثير مما ينبغي القيام به" . ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأهداف الإنمائية للألفية التي لابد من بلوغها بحلول عام ٢٠١٥ . وصندوق الأمم المتحدة للسكان ، بما يقوم به من أعمال ، يساهم في تحقيق هذه الأهداف التي تعنى بالفقر ، ونوع الجنس ، والصحة النفاسية ، وبخاصة الغاية المتعلقة بتعميم فرص الحصول على الصحة الإنجابية . ويضيف أوشوتيمن قائلاً "إننا الآن بالذات ليس لدينا موقف فعلي ملزم إزاء ما سيكون عليه برنامج التنمية في مرحلة ما بعد الأهداف الإنمائية للألفية" . ولكن بصرف النظر عما سيحدث في الفترة المتبقية حتى عام ٢٠١٥ وفي السنوات المقبلة عموما ، "ستتعالى أصوات كثيرة من بلدان الجنوب في عالمنا ، وسيكون جانب كبير منها للشباب . وينبغي لهذه الأصوات ، سواء أكانت للشباب أم لكبار السن ، أن تلقى آذاناً صاغية على كل المستويات ، من المستوى الوطني إلى الإقليمي والدولي" .

لولا داري ، الأمينة التنفيذية للمجلس الأفريقي للتنمية الصحية المستدامة والمديرة التنفيذية لمركز علوم الصحة والتدريب والبحوث ، المسجل في نيجيريا والمملكة المتحدة ، تدعو إلى المزيد من المشاركة الفعالة من جانب المجتمع المدني وحكومات البلدان النامية من أجل التأثير على الرأي العام على المسرح العالمي . وتقول داري: "إن الطريقة التي يتم بها بسهولة خفض الأموال المخصصة للصحة الإنجابية إنما هي تعبير

عن فشل الدعوة من جانب بلدان الجنوب" . ففي البلدان المانحة "لا يسمع الناس صوتنا . لقد شاهدوا فقط حفنة من النشرات عن الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية ، لكنهم [لا يعرفون سوى القليل] عن حياتهم الحقيقية . إن علينا أن نتكلم ، وأن نقول إن هذه المسائل مهمة بالنسبة إلينا . والأمر ليس مجرد ساحات للبناء . فالساحات قائمة ومتوفرة . وأصواتنا في الجنوب ينبغي أن تملأ هذه الساحات بوجهات نظرنا نحن" .

وهناك الآن بالفعل مجموعة من المؤتمرات الرئيسية للأمم المتحدة التي يتطلع إليها أوشوتيمن ، مثل الاحتفال بالذكرى السنوية العشرين لقمة الأرض في عام ٢٠١٢ ، والاحتفال بالذكرى السنوية العشرين للمؤتمر الدولي للسكان والتنمية في عام ٢٠١٤ ، باعتبارها فرصاً للتركيز على العدد الضخم الذي يمثله سكان العالم من الشباب "لكي يكونوا جزءًا من الحوار" .

إن ما هو ضروري الآن هو أن يقوم المجتمع العالمي بإشراك الشباب ، وأن يضمن لهم إمكانية الحصول على التعليم المناسب ، وليس مجرد أي تعليم ، ولكن المطلوب هو التعليم الذي من شأنه أن يحدث فرقاً في حياتهم – "وهذا التعليم ينبغي أن يشمل التثقيف الجنسي الذي يلائم كل سن ، حتى يمكن للشباب أن يحددوا خياراتهم بشأن حياتهم ، وأن يقرروا متى ينجبون أطفالهم ، وفي هذه الحالة عدد هؤلاء الأطفال وفترات المباعدة بين حملهم" . وقال أوشوتيمن إن الصندوق سيساعد على تمكين الشباب من اتخاذ هذه القرارات وعلى زيادة فرص حصولهم على ما يحتاجونه من خدمات . ويضيف قائلاً: "إن الشباب هم أحد الثوابت التي تحدد مصير الغد . وهم الذين سوف يقررون مدى قوة زخم النمو في المستقبل" .

وتحدثت داري عن الصحة الإنجابية والحياة الجنسية لدى الشباب ، وبخاصة الفتيات ، فقالت إن الرسالة التي بعث بها مؤتمر القاهرة كانت ، في رأيها ، هي مجرد أن يقول الشباب "لا" ، وأعربت عن اعتقادها بأن هناك حاجة إلى إيلاء المزيد من الاهتمام لمساعدة الشباب على اكتشاف أنفسهم . وأشارت إلى ما انتهت إليه دراسة استغرقت خمس سنوات في نيجيريا ، وشارك فيها الدكتور أوشوتيمن ، من أن الناس استوعبوا كثيراً من المعلومات عن الصحة الإنجابية . "ولكن كان تعليق الفتيات على هذه المعلومات أنها أبلغتهن متى يقلن (لا) ، لكنها لم تبلغهن متى وكيف يقلن (نعم)" .

وخلصت الدراسة إلى أن مصطلح "الشباب" يعبر عن فئة عريضة ، وأنه ينبغي وضع استراتيجيات اتصال مستقلة حسب السن لكي تنقل إلى فئات الشباب الرسائل التي تناسبها ، سواء أكانت التربية الجنسية جزءًا رسمياً من المنهج الدراسي أو يتم تنفيذها في أوضاع شتى غير نظامية ، مثل مجموعات الشباب ، أو مراكز تنظيم الأسرة المواتية للشباب ، أو عيادات الصحة الإنجابية . وقالت داري إن صغار المراهقين ربما لا يكونوا قد بلغوا بعد مرحلة النشاط الجنسي .

وتقول داري إن الجسد في سن ١٥ سنة يجعلك تسأل متى ولماذا أقول (نعم) . أما في سن ١٨ إلى ٢٢ سنة ، فربما يقول الشباب "أنا أريد الجنس ، وأريد أن أعرف ما هي خياراتي" . وتضيف داري قائلة إن الراشدين من صغار السن ، الذين يمرون بالفعل في مرحلة النشاط الجنسي ، هم أيضاً في حاجة إلى المعلومات . وبالنسبة إلى التثقيف الجنسي "لابد من وجود متوالية تشمل النشاط الجنسي من مرحلة المراهقة إلى سن الرشد . وهذا أمر من شأنه التمكين وليس فقط توفير المعلومات" . وتواصل داري قائلة إن هذه الاستراتيجيات الملائمة حسب السن – بالنسبة للفتيات والفتيان وكذلك بالنسبة للنساء والرجال – "تساعد على إرشادهم عبر السنوات الصعبة من حياتهم الشخصية ، وتهيئهم للأخذ بالخيارات الجيدة وهم يتبوءون مكانهم في المجتمع" .

وترى راو غوبتا من اليونسيف إنه لكي تحقق الفتيات والنساء إمكاناتهن وخياراتهن في الحياة

على النحو الذي توخاه المجتمع الدولي في المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ، فإنهن في حاجة إلى التعليم والحماية من العنف ، وفي حاجة إلى كل الأمور الأخرى التي تتيح لهن حياة ذات نوعية جيدة . ... وقد أقر جدول أعمال القاهرة بأن تنظيم الأسرة هو أحد مكونات حقوق المرأة ، وبأننا نهيئ الظروف لإعمال حقوق المرأة ولضمان عدم التمييز ضدها بأي شكل من الأشكال" .

ويقول تقرير للأمين العام عن حجم الأموال اللازمة لتنفيذ برنامج عمل القاهرة إنه سيلزم توفير نحو ٦٨ بليون دولار في عام ٢٠١١ فقط لتغطية تكاليف المبادرات المتعلقة بالصحة الجنسية والإنجابية ، بما في ذلك تنظيم الأسرة ، والوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية والعلاج من مرض الإيدز ، والبحوث وجمع البيانات .

ومن أصل هذا المبلغ ، من المتوقع أن تساهم البلدان نفسها بمبلغ ٣٤ بليون دولار . ومن المتوقع أن يقدم المانحون الدوليون والثنائيون ، معاً ، مبلغ ١٠,٨ بلايين دولار ، وذلك يترك فجوة تناهز ٢٥ بليون دولار . ويحذر التقرير من أنه بدون التزام قوي بقضايا السكان ، والصحة الإنجابية ، وقضايا الجنسين ، "فإنه من المرجح أن الأهداف والغايات التي توخاها كل من المؤتمر الدولي للسكان والتنمية وقمة الأمم المتحدة للألفية لن يكتب لها أن تتحقق" .

وفي اجتماع للجنة السكان والتنمية في نيسان/أبريل ٢٠١١ ، قال أوشوتيمن "إن الاستثمارات الرامية إلى تمكين الأفراد من اتخاذ قراراتهم بأنفسهم" سيكون لها أعظم الأثر على الاتجاهات الديمغرافية مثل النمو السكاني . "وفي

صندوق الأمم المتحدة للسكان في ميدان العمل

صندوق الأمم المتحدة للسكان هو الجهة الرئيسية لتقديم مساعدة الأمم المتحدة في ميدان السكان منذ بدأ تشغيل الصندوق في عام ١٩٦٩ . ويعد الصندوق أكبر مصدر في العالم للمساعدة السكانية ، وهو يعمل مع البلدان النامية ، والبلدان التي تمر اقتصاداتها بمرحلة انتقالية ، ومع البلدان الأخرى بناء على طلبها لمساعدتها في معالجة القضايا المتعلقة بالصحة الإنجابية والسكان . ويقوم الصندوق بالتوعية بهذه القضايا في جميع البلدان .

وتتمثل المهام الرئيسية للصندوق في المساعدة على تعميم خدمات الصحة الإنجابية ، بما في ذلك تنظيم الأسرة والصحة الجنسية ، على جميع الأزواج والأفراد ؛ ودعم الاستراتيجيات السكانية والإنمائية التي تمكن من بناء القدرات في مجال وضع البرامج ؛ وتعزيز الوعي بقضايا السكان والتنمية ؛ والدعوة إلى حشد ما يلزم من موارد وإرادة سياسية من أجل إنجاز أعماله . ويسترشد صندوق الأمم المتحدة للسكان بمبادئ المؤتمر الدولي للسكان والتنمية لعام ١٩٩٤ وبرنامج عمله ويعمل على تعزيزهما . وتعد أهداف المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ، وبخاصة ما يتصل منها بالصحة والحقوق الإنجابية ، والمساواة بين الجنسين ، وتمكين المرأة ، وتعليم البنات ، جزءًا لا يتجزأ من جهوده الرامية إلى تحسين نوعية الحياة وتحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية المستدامة .

وفي عام ٢٠١٠ ، قدم صندوق الأمم المتحدة للسكان الدعم إلى ١٢٣ من البلدان النامية والمناطق والأقاليم: ٤٥ في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، و ١٤ في الدول العربية ، و ٢٠ في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى ، و ٢١ في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي ، و ٢٣ في آسيا والمحيط الهادئ . وحصلت منطقة أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى على أكبر نسبة مئوية من الموارد العادية للصندوق بما مقداره ١٣٥,٩ مليون دولار ، تليها آسيا والمحيط الهادئ بما مقداره ٩٦ مليون دولار ، وأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي بمقدار ٣٨,٨ مليون دولار ، والدول العربية بمقدار ٢٧,٣ مليون دولار ، وأوروبا الشرقية وآسيا الوسطى بمقدار ١٦,٩ مليون دولار . ومن أصل مجموع الإنفاق من الموارد العادية ، قدم الصندوق مساعدات قيمتها ١٧٤,١ مليون دولار للصحة الإنجابية ، و ٧٦,٦ مليون دولار للسكان والتنمية ، و ٤٣,٥ مليون دولار للمساواة بين الجنسين وتمكين المرأة ، و ٧٢,١ مليون دولار للتنسيق والمساعدة البرنامجيين .

وباعتباره المنظمة الرائدة في الأمم المتحدة لمتابعة وتنفيذ برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية ، يلتزم الصندوق تمام الالتزام بالعمل في شراكة مع الحكومات ، ومنظومة الأمم المتحدة ، والمصارف الإنمائية ، ووكالات المعونة الثنائية ، والمنظمات غير الحكومية ، والمجتمع المدني ، من أجل ضمان تحقيق أهداف وغايات المؤتمر الدولي للسكان والتنمية .

ناشطون في مجال مكافحة فيروس نقص المناعة البشرية، كاتارينا وسيليست وأنشا وأدريانو ولينا وماريا، وهم من المثقفين الأقران الشباب والمستفيدين من هذا التثقيف في برنامج غيراشاو بيز.
© صندوق الأمم المتحدة للسكان/ بيدرو سا دا باندييرا

نهاية المطاف، فإن الخيارات والفرص التي يتمتع بها الأفراد هي التي تحدد الديناميات السكانية".

وقال أوشوتيمن "إن قضية السكان هي قضية تتعلق بالبشر، وبدعم الحقوق والكرامة الإنسانية، وتهيئة الظروف لكل واحد منا لكي يعيش على سطح كوكب ينعم بأسباب الصحة، ولكي نحقق كامل إمكاناتنا".

وأضاف قائلاً: إن هدف صندوق الأمم المتحدة للسكان هو تعزيز الصحة الجنسية والإنجابية والحقوق الإنجابية، والحد من الوفيات النفاسية، والتعجيل بإحراز تقدم تنفيذ جدول أعمال المؤتمر الدولي للسكان والتنمية، والهدف الخامس من الأهداف الإنمائية للألفية، وهو الهدف الذي لم يصادف تحقيقه إلا أدنى مستوى من التقدم. "إننا في حاجة إلى تمكين الفئات السكانية التي تعاني من نقص الخدمات المقدمة إليها، وإلى تحسين أوضاع حياتها، بما في ذلك النساء والمراهقون"، ويجب أن تكون الإجراءات التي يتخذها الصندوق "مدعومة بفهمنا للديناميات السكانية وحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين".

"وطالما استمر تزويج الفتيات وهن بعد طفلات يدركهن الحمل قبل أن تتهيأ عقولهن وأجسادهن لذلك، وطالما عجزت النساء والأزواج عن التخطيط لولاداتهم والمباعدة بينها حسبما يشاءون، وطالما عانت النساء من ناسور الولادة أو لقين حتفهن بسبب مضاعفات الحمل والولادة، وطالما ظل الشباب معرضين لدرجات المخاطرة العالية ويعانون من الافتقار إلى المعلومات والخدمات الصحية الملائمة، وطالما كانت هناك إصابات جديدة بفيروس نقص المناعة البشرية والإيدز، فإن صندوق الأمم المتحدة للسكان سيناصر حقوق كل فرد في الصحة الجنسية والإنجابية. وسنعمل على تعميم فرص الحصول على خدمات الصحة الإنجابية بحلول عام ٢٠١٥. وسندعم البلدان في جمع البيانات السكانية وتحليلها واستخدامها لكي تسترشد بها في سياساتها وبرامجها وميزانياتها. "إن المستقبل يتوقف على الخيارات التي نصنعها الآن".